Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

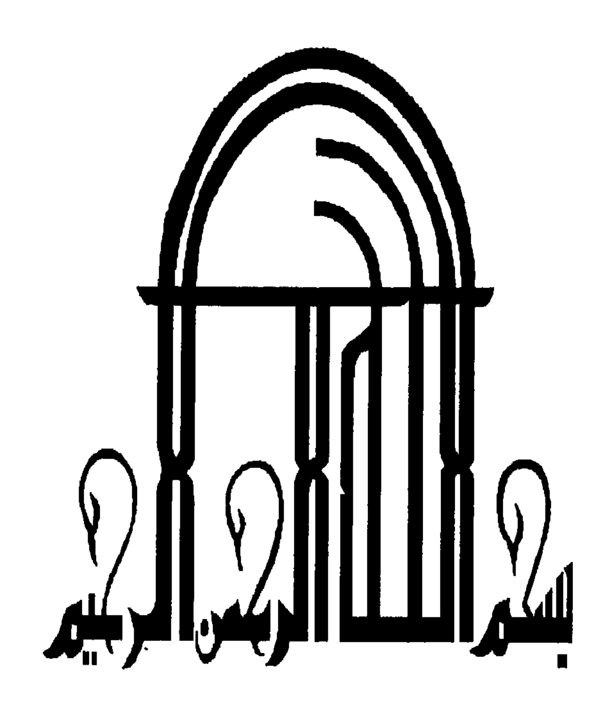



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطنة هرمز العربية

سيطرة سلطنة هرمز العربية على الخليج العربي

المجلد الثاني

سلطنة هرمز العربية المستقلة

ركائزها، حوزاتها، سكانها، اقتصادها، هيمنتها

٦١١ه ١٢١٤م — ٩١٣ه ١٥٠٧م

تأليف

أ. إبراهيم خوري

د. أحمد جلال التدمري

رأس الخيمة

١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع محفوظة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى وزارة الإعلام والثقافة

١٢/١/٠/٤٤٦٠ بتاريخ٢٩/٥/٢٠٠٠

ت د م
٩٥٣,٠٧٦

سلطنة هرمز العربية

سيطرة سلطنة هرمز العربية على الخليج العربي

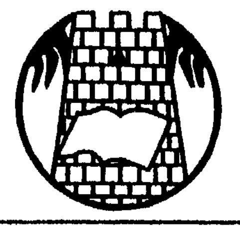
المجلد الثاني

تأليف : أ. إبراهيم خوري و د. أحمد جلال التدمري

إصدار مركز الدراسات والوثائق

رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

مقاس : ١٧ x ٢٤ ص : ٢٩٩



مركز الدراسات والوثائق

ص.ب: ١٥٥٩ - رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : ٢٣٣١١١١ - ٧ - ٠٠٩٧١ - فاكس : ٢٣٣١٠٠٠ - ٧ - ٠٠٩٧١

DOCUMENTARIES & STUDIES CENTRE

Tel.: 00971 - 7 2331111 - Fax : 00971 - 7 - 2331000

P.O.Box : 1559, Ras Al Khaimah, U.A.E.

E-mail: dscgrak@emirates.net.ae

www.dsc_amiricourt.com



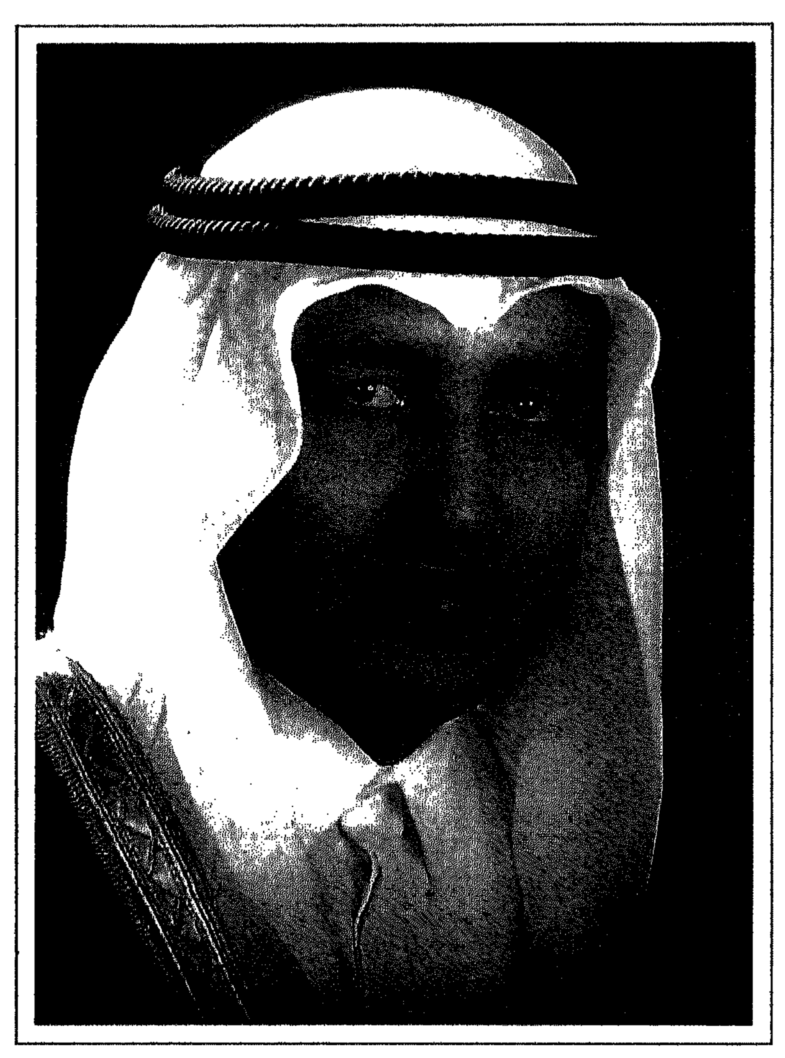
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد
حاكم إمارة رأس الخيمة وتوابعها


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



صاحب السمو الشيخ خالد بن صقر القاسمي

ولي العهد ونائب الحاكم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصديــــــر

تــاريخ الأمـــم والشعوب ، وسيرة حضاراتها ، يجب ألا تدون إلا بأقلام أبنائها ، حرصاً علـــى أمانـــة المضمون ، ونقاء الجوهر ، لأن الأقلام الغربية غالباً ما تعبث بالأمانة ، وتعكر لقاءها ، بحسن نية أو بسوء نية مع سبق الإصرار والترصد ، ولأن الهدف الرئيسي الذي من أجلـــه أنشـــئ مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري برأس الخيمة يتمثل في عملية إعادة كـــتابة تـــاريخ مـــنطقة الخلـــيج العربي والتاريخ العربي والإسلامي ، فإننا نعمل بروح فريق العمل.

وبدعـــم كريم من صاحب السمو الحاكم الشيخ / صقر بن محمد القاسمي ، وسمو الشيخ/ ســـعود بـــن صقر القاسمي رئيس المركز ، أنجز مركزنا حتى الآن عدداً جيداً من الدراسات التاريخـــية القـــيمة ، أصدرنا بعضها ، ونعمل على إصدار المتبقي منها تباعاً ، ضمن سلسلة كـــتاب الأبحاث وسلسلة الندوات التاريخية التي نظمها مركزنا بالتعاون مع مؤسسات وفعاليات تاريخية وعلمية وثقافية مرموقة .

إن مجلـــدات سلطنة هرمز العربية للمؤرخين السيدين الأستاذ إبراهيم خوري ، والدكتور أحمـــد جـــلال الـــتدمري تترجم هذا التوجه على أرض الواقع ، وتجسد الأمانة التاريخية في التوثـــيق التاريخـــي المحـــايد الهادف إلى بلورة الحقائق ، وخدمة الأمة ، ولذلك تبنى مركزنا بتوجـــيه كريم من سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي رئيس المركز ، رئيس الديوان الأميري برأس الخيمة طباعة هذه المجلدات الثلاث ، وإصدارها ضمن إصدارات مركزنا .

نحـــن في مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري براس الخيمة ، عاهدنا الله سبحانه وتعـــالى ، وقيادتـــنا الحكـــيمة أن نبذل قصارى جهدنا للوفاء بالأمانة المقدسة الموكولة إلينا ، والتـــي نعتـــبرها شـــرفاً قـــبل أن تكون مسؤولية بالغة الأهمية ، ومن هذا المنطلق عملنا في الماضـــي ، واســـتناداً علـــيه سنعمل في المستقبل ، وليكن الله العلي القدير في عوننا ، لنقدم لمكتبتـــنا العربـــية رافداً علمياً جديداً يثريها ، ولكل الباحثين والدارسين منهلاً عذباً نقياً يروي عطشهم الدائم للحقيقة التاريخية الصادقة النقية الأمينة بإذن الله تعالى .

والله ولي التوفيق ،

مدير المركز

د . علي عبد الله فارس


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

هرمز هرمزان: هرمز العتيقة، وهرمز الجديدة. أما هرمز العتيقة، فتقع على البر الساحلي قرب مصب نهر ميناب الذي يسمى جون الخبر، على بعد نحو ٣٠ ميلاً من بندر عباس الحالي، في أقليم كرمان. وإحداثياتها ٩ʹ٠ ٢٧° شمالاً، و ٥ʹ٠ ٥٧° شرقاً. ويزعم البعض أن أردشير الأول الساساني (نحو ٢٢٦ ـ ٢٤١م)، مؤسس السلالة الساسانية (٢٢٦ ـ ٦٥١م)، بناها، ويتنافى هذا القول بداهة مع الحقيقة التاريخية. ففي سنة ٣٢٥ قبل الميلاد، أرسى أسطول اسكندر المقدوني، بقيادة أمير البحر نيارخس، في مصبّ نهر أناميس في بلد تسمى هرموزية Harmouzeia، ونهر أناميس هو نهر ميناب، وهرموزية هي هرمز[١]. وفي عام ١٥٠ ميلادي، ورد في جغرفية بطليموس أن مدينة هرمز Ἁρμουδα Πόλισ ورأس هرمز Ἁρμουδον ἄκρον واقعان على ساحل كرمانية[٢]. ويحتمل أن تكون هرموبولس عند أميان مرسيلين، مدينة هرمز ذاتها[٣]. وفي سنة ٥٤٠م، اشتهرت هرمز باسمها، وكانت نصرانية نسطورية ومركز مطرانية، اسم مطرانها جبراييل[٤].

ويتحدث البلاذري[٥] عن فتح كرمان، وعن معركة هرموز فيها، وعن إقطاع أراضي أهل كرمان للعرب الذين أعمروها، فيقول: «وقد كان أبو موسى الأشعري وجّه الربيع بن زياد، ففتح ما حول السيرجان، وصالح أهل بمّ والأندغار، فكفر أهلها ونكثوا. فافتتحها مجاشع بن مسعود، وفتح جيرفت عنوة، وسار في كرمان، فدوّخها، وأتى القفص. وتجمّع له في هرموز خلق ممن جلا من الأعاجم، فقاتلهم، فظفر بهم

---

(١) أريان Arrian، رحلة نيارخس، فص ٣٣، ترجمة ماك كرندل، ص ٢٠٢.
(٢) بطلميوس، ٦ روماني، فقرة ٨، ص ٥.
(٣) أميان مرسيلين، الكتاب ٢٣، فقرة ٦٥، ص ٤٩.
(٤) السمعاني، ج ٣، ص ١٤٧ ـ ١٤٨، ذكر في هوبسون ـ جوبسون، ص ٦٤٦.
(٥) فتوح البلدان للبلاذري، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٥١ ـ ٥٥٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظهر عليهم، وهرب كثير من أهل كرمان، فركبوا البحر، ولحق بعضهم بمكران، وأتى بعضهم سجستان. فأَقْطِعَتِ العربُ منازلَهم وأراضيهم، فعمّروها، وأدّوا العشر فيها، واحتفروا القنى في مواضع منها. وولّى الحجاج قطن بن قبيصة بن مخلوق الهلالي فارس وكرمان». وبذا أصبحت هرمز العتيقة من السنة الهجرية العشرين ٦٤٠م في الاحتمال الغالب عربية قلباً وقالباً، أرضاً وسكاناً، ولم يتبدّل وضعها لا في عهد الخلافة الأموية، ولا في أيام العباسيين. وكانت تدفع الخراج بانتظام.

فتاريخياً، دامت الخلافة العباسية خمسة قرون ونيفاً: ١٣٢هـ/ ٧٥٠م إلى ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. لكنها بدأت تضعف بعد وفاة هارون الرشيد مباشرة سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م. فقامت في أرجائها حركات انفصالية عديدة، وتتابع ظهور السلالات المحلية الأهلية المستقلة عنها عملياً. منها الدولة الطاهرية (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م - ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، بزعامة طاهر بن الحسين (المتوفى سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، أحد كبار قوّاد الخليفة المأمون الذي عهد إليه بقمع ثورة الخوارج في خراسان، ففعل واستقلّ عن العباسيين. والدولة الصفّارية (٢٤٩هـ/ ٨٦٣م - ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) التي أسسها يعقوب بن الليث الصفّار (المتوفى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م) في أيام المستعين (٢٤٨هـ/ ٨٦٢م) على أنقاض الدولة الطاهرية، وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي حظي برضى الخليفة المعتمد (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) والمعتضد (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م). والدولة السامانية في ما وراء النهر (٢٦١هـ/ ٨٧٤م - ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م) التي أنشأها سامان خداه، واشتهر من ملوكها نصر الثاني (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م - ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) ونوح الأول، (٣٣١هـ/ ٩٤٢م - ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م). والبويهيون (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م - ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) الذين احتلوا اقليم كرمان وبغداد (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) فيما احتلوا من بلدان. وقد قضى عليهم السلاجقة التركمانيون، فحرروا الخلافة من سيطرتهم، وحكموا كرمان (٤٣٣هـ/ ١٠٤١م - ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) فيما حكموا. وفي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، سار ملك دينار على رأس الغزّ إلى كرمان وملكها[1]، واستقر في جيرفت وسكّ العملة باسمه. وفي عامي ٥٨٤ و ٥٨٥هـ/ ١١٨٨، ١١٨٩م. قام بحملة على جنوبي كرمان، واحتلّ منوقان، واستوفى ألف دينار من هرمز كخراج، وتوفي سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م. ولما خلفه نجله فرّوخ شاه (توفي سنة ٥٩٢م/ ١١٩٦م)، عمّت الفوضى كرمان إلى أن انتصر أميرا شبانكارة، قطب الدين مبارز ونظام الدين محمود على الغزّ سنة

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ١١٥، جعل احتلال ملك دينار لكرمان سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٤م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، لكن أتى حكم شبانكارة في كرمان أسوأ من حكم الغزّ. فنصّب جماعة من أمراء بردسير وأهلها وأئمتها عجمشاه بن ملك دينار، الذي أمضى بعض الوقت في بلاط خوارزمشاه، ثم جاء إلى بمّ، وتزعم غزّها. فدخلت كرمان قوات من إقليم فارس، بقيادة عماد الدين بن زيدان ابن أخ أتابك فارس سعد الدين الأول بن زنكي (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣ ـ ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، واستعادت بردسير. وأعقب ذلك قيام سعد الدين نفسه بعدة حملات على كرمان إلى أن أخضع الغزّ سنة ٦٠٥/ ١٢٠٩م، وعيّن الكتّاب وجبى الضرائب والرسوم.

وفي سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، أعطى خوارزمشاه إقليم كرمان إلى الأمير الخوارزمي قوام الدين مؤيد الملك، ولقبه بالملك، فانطلق هذا الأخير من زوزن في خراسان إلى كرمان، واستسلمت له جيرفت وبم وبافت، وأخيراً بردشبر في شهر صفر ٦١٠هـ/ حزيران ١٢١٣م. ويروي ابن الاثير بتحفّظ أن إخضاع مملكة هرمز لخوارزمشاه تمّ سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤[1]. لكن ينبغي فهم إخضاع هرمز بانه اعتراف اسمي بتبعية شكلية، تقتضي دفع مبلغ من المال قيل عنه إنه خراج أو أتاوة أو مقرّر، وتُبقي التنظيم السياسي والإداري والاقتصادي على حاله.

ويتضح من هذا التوالي للأحداث السياسية والحربية أن هرمز العتيقة أو الساحلية أدّت أموالاً إلى الغزّ (ملك دينار) في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وإلى الدولة الخوارزمية (تاج الدين أبو بكر) في أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وهذا يعني أنها كانت دولة تنعم بالاستقلال الذاتي في أواخر الخلافة العباسية، نقصد في أيام الناصر (٥٧٥هـ/ ١١٨٠م) والظاهر والمستنصر، وحتى وفاة المستعصم على يد هولاكو (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وأنها كانت تفتدي حريتها السياسية، وتتحاشى تخريب مرافقها الاقتصادية بتقديم أموال طائلة وهدايا ثمينة إلى الغزاة المغيرين على إقليم كرمان، من سلاجقة وغزّ، وشبانكارة وخوارزميين وغيرهم.

ولا ريب أنها كانت دولة قوية، حسب مفهوم العصر، بثرائها الكبير وحنكتها السياسية وبذلها الأموال وتضحيتها بالرجال عند الضرورة وفي الأيام العصيبة. وقد صمدت قرناً كاملاً في البر في الحد الأدنى (السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) ضد جميع الغزاة. ثم نقلت عاصمتها السياسية إلى وسط البحر، دون أن تبدّل اسمها،

---

(١) المرجع ذاته، ج ٩، ص ٣٠٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعقدت حلفاً أبدياً مع اليمّ، ليشترك في الدفاع عنها على مدى الدهر.

ويلاحظ أن ركائزها الأساسية كانت هرمز العتيقة والجديدة، ومدينة قلهات، ومدينة جلفار. وتفرض أهمية هذه الحواضر الثلاث مباشرة البحث بالحديث عنها في البدء، يلي ذلك إيضاح حوزة سلطنة هرمز في الخليج العربي، فحوزتها في خليج عُمان، فاستعراض عناصرها البشرية ومرافقها الاقتصادية من زراعة وأعمال حرفية وتجارة محلية ودولية على وجه التخصيص. وأخيراً أحداثها السياسية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

ركائز سلطنة هرمز الأساسية
هرمز العتيقة والجديدة، قلهات، جلفار

أرض سلطنة هرمز واسعة، ومساحتها كبيرة في البرّ والبحر. وسكانها كُثر. ومدنها وقراها عديدة. ونشاطها الاقتصادي فريد، تبرز فيه التجارة الدولية، وتدعمه الزراعة وتربية الحيوانات والأعمال الحرفية. إلا أن تاريخ سلطنة هرمز يتمحور حول هرمز العتيقة والجديدة، وقلهات، وجلفار، حتى ليمكن اعتبار هذه المدن الثلاث عواصم لها، وكانت فعلاً حواضرها، لكل منها وظيفة خاصة بها: فهرمز عاصمتها السياسية، وقلهات وجلفار مُجَمَّعَا احتياطي الرجال وتجنيد جيش حماية السلطة والدفاع عنها في الملمّات. وهذا ما يدفعنا إلى إفراد بحث خاص لكل منها.

أولاً ـ هرمز العتيقة وهرمز الجديدة

آ ـ هرمز العتيقة

ولعلّ وصف ماركوبولو لهرمز العتيقة أفضل وصف يتناول التعريف بهرمز العتيقة، بعد زيارته لها في زمن عزّها. قال ماركوبولو في الفصل ١٩ عن الذهاب إلى مدينة هرمز:

«يستمر السهل الذي تحدثنا عنه بالامتداد باتجاه الجنوب على مسيرة خمسة أيام، ثم يليه منحدر طوله عشرون ميلاً تقريباً، الطريق فيه رديئة جداً ومحفوفة بالأخطار، لكثرة قطّاع الطرق والناس السيئي السمعة. ومتى نزل المرء إلى أسفل هذا المنحدر، يصل إلى سهل جميل آخر، يدعى سهل هرموز، طوله مسيرة يومين، فيه مجاري ماء رائعة ونخيل تمر وافر وغيره من الأشجار المثمرة. وفيه أيضاً الكثير من الطيور الجميلة، كالدرّاج والأخيل الأخضر وسواهما، مما لا يعرف في بلادنا. وبعد قطع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان مسيرة يومين، يصل إلى البحر المحيط، ويجد على ساحله مدينة لها بندر، تدعى هرمز، يقصدها التجار القادمون من الهند، في مراكب موسوقة بالتوابل، والحجارة الكريمة، واللآلىء، وأثواب الحرير، والذهب، وأنياب الفيلة، والعديد من السلع الأخرى، التي يبيعونها من تجار هرمز، ويحملها هؤلاء إلى جميع أنحاء العالم، ويبيعونها بدورهم. والواقع أن هرمز مدينة تجارتها واسعة، يقع تحت سلطتها الكثير من المدن والقرى، إلا أنها هي العاصمة. ويسمى ملكها ركن الدين أحمد (ركن الدين محمود بن أحمد القلهاتي). وموقعها وبيء، وحرارة شمسها هائلة. وإذا توفي تاجر فيها أخذ الملك جميع ممتلكاته.

ويصنعون في هذه البلاد خمراً من التمر، ويمزجونه بالتوابل، فيطيب كثيراً. وإذا احتساه إنسان لم يعتد عليه، يصاب في البدء بإسهال شديد متكرر، ثم يألفه، ويكسبه سمنة. ولا يأكل سكان هرمز أبداً اللحم وخبز القمح إلا إذا كانوا مرضى. وإذا تناولوا هذا الطعام وهم أصحاء، يمرضون. وغذاؤهم، وهم أصحاء، التمر والسمك المملّح (الطون) والبصل. وهم يحافظون على صحتهم بهذا النظام الغذائي.

وسفنهم رديئة، وكثير منها يغرق، لأن ليس لديهم وسائل حديدية لربط خشبها، بل ترتق أخشابها بخيط مصنوع من قشر جوزة الهند. فيدقّون القشر حتى يصبح مثل سبائب الفرس، ثم يجدلونه، ويربطون به أخشاب المراكب. فتحفظ جيداً، ولا تصدأ بماء البحر، لكنها لا تقاوم العواصف جيداً. ولا تقلفط الأخشاب، بل تدهن بزيت السمك. وللمركب صاري واحد، وشراع واحد ومسكّن واحد، وليس له ظهر، بل غطاء تُغطى به السلع بعد تحميلها. ويتألف هذا الغطاء من جلود حيوانية، توضع فوقها الخيول التي تنقل إلى الهند لبيعها هناك. وليس لديهم حديد لصنع المسامير، لذلك يستعملون الدسر في بناء سفنهم، ثم يربطون الأخشاب بخيوط جوز الهند كما قلت. بالتالي يحفّ الخطر بالسفر في مثل هذه المراكب، ويغرق كثيرٌ منها، لأن العواصف رهيبة في الغالب في بحر الهند.

وسكان هرمز سمر، يدينون بالإسلام. ويتحاشى أهالي السلطنة البقاء في مدنها، لأن شدة القيظ في الصيف تقضي عليهم إن بقوا. لذلك يغادرونها، ويذهبون إلى بساتينهم في الريف، حيث تكثر المياه ومجاريها. مهما يكن، لا ينجون من ظاهرة واحدة سوف أشير إليها. فالواقع أن الريح تهبّ في الصيف في أغلب الأحيان، وتثير الرمال المحيطة بسهل هرمز، فتقتل الناس بحرارتها التي لا تحتمل، لولا أنهم يغطسون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الماء حتى رقابهم متى شعروا بهبوبها، ويظلون فيه إلى أن تهدأ. (ولإثبات ارتفاع حرارة هذه الرياح الشديد هناك، روى السيد مارك واقعة حدثت في أثناء وجوده. فقد امتنع ملك هرمز عن دفع الخراج لسلطان كرمان، فقرر هذا الأخير أن يطالب به عندما يقيم أهالي هرمز خارج مدينتهم، فجهّز قوة مؤلفة من ١٦٠٠ من الخيالة و ٥٠٠٠ من المشاة وسيّرهم بطريق رودبار لأخذ الباقين في هرمز على حين غرّة. لكن أخطأ دليلهم، فتأخروا في الوصول إلى المكان المخصص لمبيتهم في الليل، واضطروا أن ينصبوا خيامهم في العراء، ليس بعيداً عن هرمز. وفي الصباح، عندما استأنفوا سيرهم، علقوا في تلك الريح، فاختنقوا كلهم ولم ينج أحد منهم لنقل النبأ إلى ملكهم، إلا بعد إطلاع أهالي هرمز على الخبر وذهابهم لدفن الموتى لتحاشي حدوث الطاعون. لكن عندما أمسكوهم بأذرعهم لجرهم إلى الحفر، كانت الجثث قد تفسّخت من جراء شدة الحرارة. فانفصلت أيديهم عن أبدانهم. وفي النهاية اضطر الهرمزيون إلى حفر قبور قرب الموتى ودفنهم فيها).

ويبذر أهالي هرمز قمحهم وشعيرهم وسائر حبوبهم في شهر تشرين الثاني ويحصدونها في شهر آذار. ولا تجمع التمور إلا في شهر أيار، وفيما عدا ذلك، لا يوجد عشب ولا أي شيء أخضر، لأن شدة الحرّ تيبس كل شيء.

وعندما يتوفى أحد الأهالي، يتخذ الحداد عليه أهمية كبيرة، لأن النساء تحدّ أربعة أعوام على أزواجهن، ويندبنهم مرة واحدة يومياً في الحد الأدنى، ويجمعن نسيباتهن وصديقاتهن وجاراتهن لهذه الغاية، ويبكين بكاءاً مرّاً وينتحبن. (ولديهم ندّابات يعملن بأجر).

والآن نغادر هذه البلاد (هرمز). مع ذلك لا أستأنف كلامي لأتحدث عن الهند. لكن متى لاءم الزمان والمكان، سوف أعود من الشمال، وأتكلم عنها. وفي الوقت الحاضر، أرجع إلى طريق أخرى تؤدي إلى مدينة كرمان المشار إليها من قبل، لأنني لا أستطيع الوصول إلى هذه الأرجاء التي أودّ التكلم عنها إلا عبر هذه المدينة.

مع ذلك، أشير أولاً إلى أن السلطان ركن الدين أحمد، ملك هرمز احتلّها وتركها تابعة لسلطان كرمان.

وعلى طريق العودة من هرمز إلى كرمان، يمرّ المسافر في بعض السهول الرائعة جداً، التي يشاهد فيها كثيراً من الحمامات الحارة. ويجد كثيراً من الحجال على هذه الطريق. ويجتاز مدناً، الطعام فيها رخيص جداً ووافر. إلا أن خبز القمح مرّ جداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسبب ملوحة المياه، حتى إن لا أحد يستطيع أن يتناوله، إذا لم يكن معتاداً عليه. ولحمامات المياه التي ذكرت خصائص ممتازة. فهي علاج للحكة وأمراض عديدة أخرى[1]».

ويعود تاريخ وصف ماركوبولو إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)، ويحتوي على تفاصيل هامة جداً عن هرمز العتيقة، نبرز منها:

١ - قدوم مراكب الهند محمّلة بشتى السلع الهندية الثمينة إلى بندر هرمز القديمة.

٢ - قيام هرمز العتيقة بتوزيع تلك السلع على البلدان المشرفة على الخليج، وعلى البلدان الواقعة وراءها، مثل خراسان في الشرق أو بلاد الشام في الغرب.

٣ - وفرض سلطنة هرمز سلطتها على كثير من المدن والقرى في إقليم كرمان، وبخاصة في ساحله.

٤ - تبعيّة سلطنة هرمز الصورية لسلطان كرمان بدفعها الخراج له، لقاء تمتّعها بحرية ممارسة صلاحيات الدولة المستقلة.

وإذا عدنا إلى بحث إقليم كرمان في كتاب صورة الأرض لابن حوقل مثلاً، العائد إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، لوجدنا الوقائع ذاتها مؤكداً عليها فيه بصيغة أخرى فقد جاء فيه أن «هرموز مجمع تجارة كرمان، وهي فرضة البحر، وموضع السوق، بها مسجد جامع ورباط وليس بها كثير مساكن، وإنما مساكن التجار في رساتيقها متفرقين في القرى. وبلدهم كثير النخيل، والغالب على زروعهم الذرة. وجاء فيه أيضاً: «فالسيرجان ـ وهي قصبة كرمان ـ وجيرفت وبم وهرموز، وهذه أعلام مدنها وكبارها، مشهورة، معروفة، وفي أضعافها دونها»[2].

وهذا يعني أن هرمز تطورت كثيراً بعد القرن الرابع الهجري. ويستدلّ على تطورها الكبير المرحلي من كلام الشريف الأدريسي في منتصف القرن الثاني عشر، حيث يقول: «ومن مدن كرمان مدينة هرمز الساحلية... وهي فرضة مدن كرمان. وهي في ذاتها مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، كثيرة النخل، حارة جداً. ويزرع بنواحيها الكمون الكثير والنيلج الذي إليه المنتهى في الطيب، المضروب به المثل. ويتجهّز به

---

(١) كتاب سير ماركوبولو، ج ١، ص ١٠٧ ـ ١١٠.

(٢) صورة الأرض، ص ٢٦٨، وص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى كل الآفاق... ومدينة هرمز على خليج يسمى الخبر... تدخل فيه السفن من البحر إلى المدينة»[1].

وقد أثار ثراء هرمز القديمة طمع الفاتحين، فانتقل حكامها إلى جزيرة جرون، وبنوا هرمز الجديدة، التي ازدهرت بسرعة، ومع ذلك، حافظت هرمز العتيقة على مكانتها الاقتصادية وأهميتها البشرية فترة من الزمن غير قصيرة.

ب ـ هرمز الجديدة

تحوّلت هرمز الجديدة إلى أطلال، بعد إعطاء شاه عباس أوامره بعدم إبقاء حجر على حجر فيها، وبعد أعمال الهدم التي قام بها البرتغاليون فيها قبله. وزادت الهزات الأرضية تدميرها. ونهب الناس حجارتها ليشيدوا بها أبنية في أماكن أخرى. فصارت خراباً، تشرف عليه الجدران الحمراء الباقية من قلعة البوكيركيه.

وحتى منتصف القرن العشرين، بل حتى ١٩٧٩، على وجه الدقة، لم يجر أي تنقيب في موقعها. ولم يرسم مخطط دقيق لها، اعتماداً على أخبارها. ولم تؤخذ لها صور جوية. لكن تضمنت وثائق تاريخية محدودة ثلاثة مناظر بانورامية لها عامة جداً، جمعها م. لويس سيلفيرا، ونقل إحداها عن لنداس دا انديا لغسبار كوريا، ودرسها[2].

فلا يمكن والحالة هذه وصفها، إلا استناداً إلى الحوليات والوثائق البرتغالية، لأن الحوليات العربية والفارسية تركز على الأخبار السياسية وأحداثها في سلطنة هرمز، وتهمل المعطيات عن حالة المدينة وعن حياتها، ما عدا شذرات متفرقة في رحلة ابن بطوطة وفي مطلع السعدين للسمرقندي. وكان بالإمكان الاستفادة من حوليات المؤرخ عبد الكريم نمديهي، إلا أنها غير مطبوعة. ويصف جان أوبين جزيرة جرون ومدينة هرمز الجديدة فيها، وصفاً دقيقاً، نورده قبل إطلاع القراء على نتائج حفريات عام ١٩٧٩.

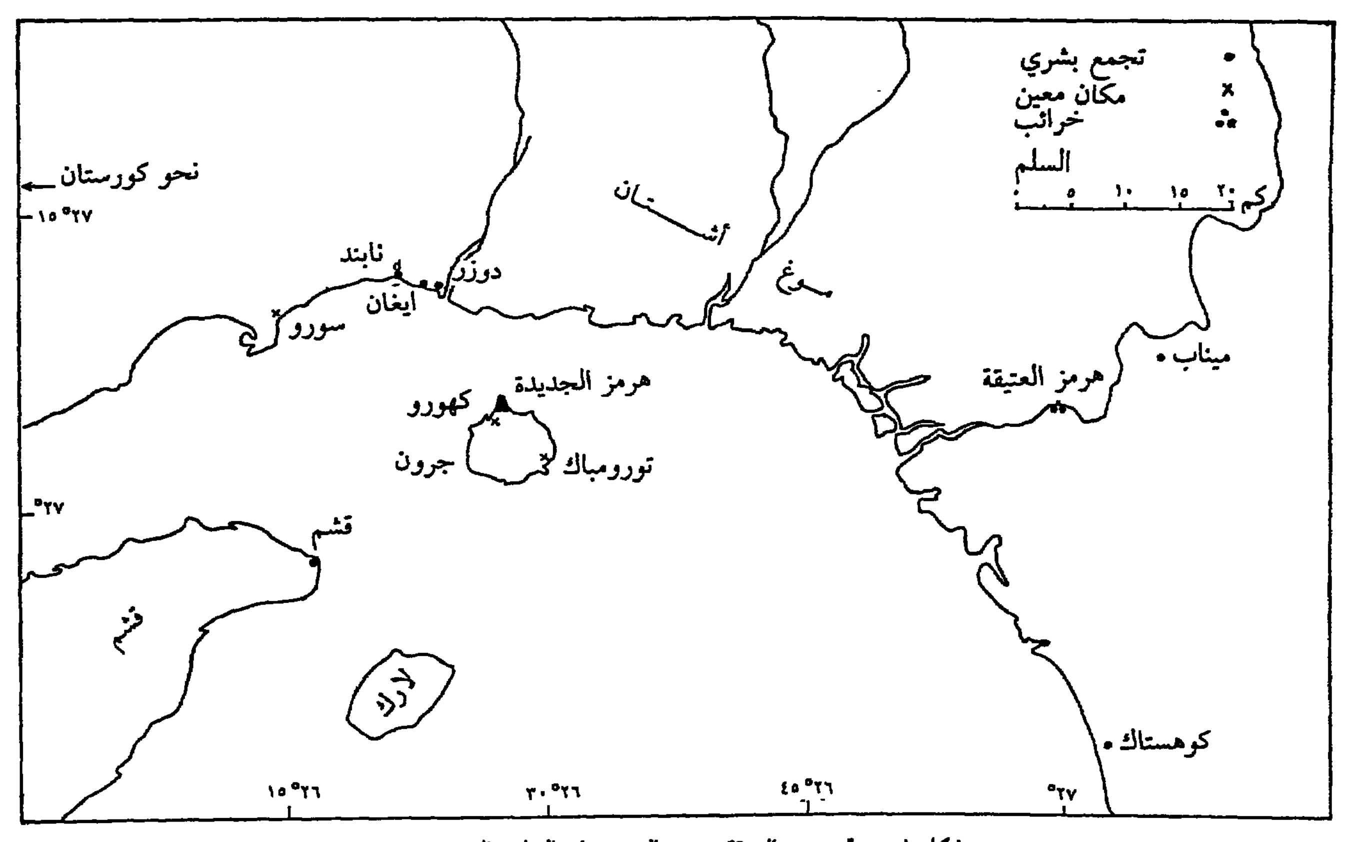
جـ ـ وصف هرمز الجديدة عند جان أوبين

تقارن جميع أخبار الرحلات، التي تصف جزيرة جرون، وحشة موقعها بثراء مدينة هرمز الجديدة فيها. فداخلها غامر خال من السكان، وجفافه شبه تام، تكثر فيه التلال البركانية، التي يتضادّ تلوينها بشكل رائع. وفي سنة ١٥٤٩م، ذكّرت متحجراتها

---

(١) نزهة المشتاق، ص ٤٣٦، ٤٤٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى جان أوبين، البحر البرتغالي الهندي، ج ٢، ص ٨٢ ـ ٩٧.



شكل ١ ـ موقع هرمز العتيقة وهرمز الجديدة في الخليج العربي

المعدنية القس اليسوعي غسبار برز بمسقط رأسه زيلندة، فكتب ما يلي: «كل الجزيرة ملح، وفيها سواقي ملح متجلّدة، تخترقها طولانيا (...)، وتتجمّد في فصل الصيف مثلما يحدث في مقاطعة فلاندر في فصل الشتاء (...). وتبدو فيها الجبال مثل حجارة الكلس المتكلّسة. وليس فيها خضرة، ولا مشاجر، بل بضع شجرات صنوبر فقط، وثلاث أو أربع شجرات أخرى، حيث لا ينتأ الملح». ويحدّد بدقة نوع شجرات «الصنوبر» في رسالة أخرى، فيقول: «ليس فيها شجر، ما عدا بعض شجرات العنّاب، وشجرتين أو ثلاث شجرات أخرى». فلا عشب فيها، ولا طيور، ولا حيوانات متوحشة، ولا مواشي. ولا يجزم بعض الرحّالة الآخرين هذا الجزم القاطع، لكنهم يشيرون إلى الوحشة ذاتها: فلا شيء ينمو فيها، سوى بعض شجرات العنّاب ومشاجر سنا مكة».

وشواطىء جزيرة جرون حادّة الانحدار، أو تتراكم فيها الصخور، باستثناء واجهتها الشمالية، التي ينتهي سهلها بشبه جزيرة ضيقة تستطيل نحو بر كرمان، الذي يبعد عنها بضعة كيلومترات فقط. وقد تأسست هرمز الجديدة على طرف هذا اللسان الأرضي في مطلع القرن الرابع عشر. ويحدّد هذا اللسان الأرضي مكلاءين مكشوفين، يشكّلان في رأي بحارة القرون الوسطى وملّاحي القرن السادس عشر مرسيين جيدين للجلبات والطرادات. ويشير مرتين فرننديز دي فيغويروا إلى أن هرمز تمتلك بندرين جيدين جداً، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب». وتقبل الزوارق وتدبر بين الشاطىء وبين المراكب الكبيرة، التي يمنعها ضعف عمق الماء من الاقتراب من الأرصفة. ولا ريب أن جودة المطارح حثّت مهاجري هرمز العتيقة على اختيار راس جزيرة جرون الشمالي مقراً جديداً لهم. ويؤكد ذلك تومية بايرس بلالبس، فيقول: «تأسست هذه المدينة بسبب المرفأين. وأبان بيرو دالبوكيركيه لدون مانوييل أن تلك المنطقة ليست لديها أسكلة أخرى فيها بندر للمراكب الكبرى مثل هرمز، وقريب إلى هذا الحد الكبير من اليابسة.

ويخلو أقصى طرف شبه الجزيرة من الأبنية، ويسميه كتاب التعليقات «رأس مورونا». ويحدّه من الجنوب مقرّ سلاطين هرمز. وهو قصر محصّن، مظهره متكتّل يشبه في أيامنا الحاضرة دور شيوخ العرب في الخليج العربي أو في جزيرة العرب الجنوبية. ويعود تأسيسه إلى مطلع القزن الرابع عشر. وقد توسع حتماً مع مرور الزمن. وتسميه المصادر البرتغالية العائدة إلى مطلع القرن السادس عشر الحصن أو القلعة. وقد أعلن السلطان سلغرشاه الثاني سنة ١٥٤١م، بعد فترة قصيرة من تدميره،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جزيرة هرمز
٣ كم
ش
الحصن البرتغالي
المسجد الجامع
سانتا لوسيا
تورومباك

طبقة ملح
منطقة تلال تقريبية في القرنين ١٤ ـ ١٥ (أسماء الأماكن بأحرف كبيرة)
منطقة تلال تقريبية في القرنين ١٦ ـ ١٧ (أسماء الأماكن بأحرف صغيرة)

شكل ٢ـ جزيرة هـرمـز (جـرون)

أن قصر السلاطين أجداده كان قوياً وشامخاً وأجمل وأمنع من قصر أي سلطان مسلم آخر في تلك المناطق. وكان له تسعة أبراج محصنة، مبنية بالحجر والملاط الأبيض، تلتصق بالسور الذي تبلغ سماكة جدرانه ٨ إلى ٣٣ شبراً (تقريباً ١,٦٠ م في أعلاها إلى ٦,٦٠ م في قاعدتها). وكان له سنة ١٥٠٧ جناح مكشوف من الجهة المطلة على المكلأ الشرقي. ولا يمكن إعادة رسم تنظيمه الداخلي. وكان له عدة مداخل. وتفصل باحات داخلية المباني بعضها عن بعض. ويضمّ مسلحة واصطبلات. ويزيّن السلطان والأثرياء قاعاتهم بمشاكي مليئة بالخزف الصيني.

ويبلغ طول واجهة القصر الشرقية ٨٠ م إلى ١٠٠ م على الأرجح. بالفعل، سمح تدمير القصر بكشف السهلة أمام القلعة البرتغالية، فقاس سيماو بوتلهو عمقها من الجهة الشرقية سنة ١٥٥٠ م، وبدا شكل السطح المسوّى غير منتظم، لأنه بلغ حوالي ٦٠ م في وسطه. ولم يعيّن بوتلهو المسافة الفاصلة بين النقاط التي قاس أبعادها الطولية، فلا يمكن أخذ فكرة عن عرض المقر الملكي. على النقيض، من المؤكد أنه يختلف عن القلعة البرتغالية، ولا يمتدّ من شاطىء رأس موررونا الشرقي إلى شاطئه الغربي. وكانت الدور الخاصة بالناس مبنية بين القصر والرملة الغربية. وقد هدمها البرتغاليون أيضاً.

وبعد تدمير القصر السلطاني القديم، استقرّ سلطان هرمز في فندق يقع جنوبي شرقي المباني المزالة، ويطلّ على المكلأ الغربي. ولهذا الفندق مظهر فخم جداً يضاهي القصور السلطانية الأخرى. وكان الوزير شرف الدين الفالي يملكه. ويجوز أن يتصور المرء أنه كان أحد أملاك أسرة فالي، وأن الوزراء الفاليين الأقوياء كانوا يقيمون فيه، على مقربة من قصر السلطان. وهناك مقر أميري آخر، قريب من مقر السلطان، نعني به المبنى المخصص للعميان من الأسرة المالكة. وكانت مباني أخرى تضفي صفة الارستقراطية والفخامة على طرف المدينة الشمالي، خلافاً لما هو حاصل في الأحياء الكثيفة السكان.

وبنى توران شاه الأول (١٣٤٧ ـ ١٣٧٧) مدرسة لها مأذنة مقابل القصر السلطاني وأضاف إليها مساجد وبازارات. ويشير باروس إلى وجود «مبنى ضخم يستخدم مستشفى، يسميه الهرامزة مدرسال، على مقربة من القلعة. وكتب عنه براس دالبوكيركيه يقول: «كان المستشفى دار صلاة، أسسها أجداد سلطان هرمز لإيواء المرضى والحجاج (...) مكرّسة لله». ويوحي هذا الوصف غير الموفق بأن هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنشأة تشبه النموذج المنتشر على نطاق واسع جداً في المدن الإسلامية في القرون الوسطى، وتشتمل على مدرسة ومستشفى وفندق وجامع، وتدخل في جملة الأوقاف. وتشير المصادر البرتغالية إلى وجود عدة مساجد في مدينة هرمز، لكنها لا تذكر إلا مأذنة واحدة، كما لو أنها تعرضت إلى حقد المبشرين الكاثوليك. وصحيح أن المباني القديمة في جرون أصيبت بأضرار خطيرة في أثناء زلزلة ١٠ محرّم ٨٨٨هـ/١٨ شباط ١٤٨٣م، التي سبقتها في ٢١ رمضان ٨٨٧هـ/٣ تشرين الثاني ١٤٨٢م، هزّات متواترة. وقد تصدى نمديهي عرضاً لمأساة الزلزلة، فروى أنها آذت أو دمّرت تهوية الدور وبعض المباني الشاهقة و«مآذن المساجد». أما المأذنة المذكورة في الوثائق البرتغالية، التي رسمها فريزر على مخططه سنة ١٤٢١م، وكانت ما تزال منتصبة في الوثائق البرتغالية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فهي مأذنة المسجد الجامع غير الداخل في المجمّع الذي أشاده توران شاه الأول قرب قصره. وكان قائماً في وسط المدينة على بعد بضعة ٢٥٠ متراً من القصر السلطاني. وتأسس في مطلع القرن الرابع عشر، وكبّره السلطان محمد شاه الأول (حوالي ١٣٧٧/١٣٧٨ ـ حوالي ١٤٠٠م). ويقول المؤلفون الأوربيون عنه إنه كان واسعاً وفخماً.

ولا يبعد مستودع الجمرك عن القصر السلطاني، ويقع على طرف «الرملة» أي الرملة الشرقية. بالفعل، كانت المراكب تفضّل الرسوّ شرقي شبه الجزيرة، ولا تنتقل إلى غربيّها إلا لتحتمي من الريح الشرقية أو لِتَـتَـلَقّى خدمات خاصة. وكانت الزوارق تجرّ، وتثبت بالحبال على الرملة التي تبدأ من مقابل مستودع الجمرك، وتمتد على طول المدينة، وربضها المستعمل حوضاً لبناء السفن، وهنا تقع مرائب واسعة سقوفها من قش. ونذكر هنا أن الربض في هرمز الجديدة لا يتعارض مع نواة المدينة القديمة، ولا يعدّ مركز النشاط الحيوي، كما هي الحال في معظم مدن ساحل الخليج الشرقي في القرون الوسطى، التي يحييها ازدهار اقتصادي حديث في عهدها الجديد.

ويقوم القصر ـ القلعة، مقرّ السلطة، على طرف التجمع البشري حسب التنظيم المتبع في تلك الأيام. وله منفذ يوصل مباشرة إلى خارجه. ويمثّل القصر السلطاني التحصين الرئيس، بل الوحيد في جزيرة جرون، التي يعتبر البحر أفضل حام لها. مع ذلك، تنتصب على أطراف المدينة بضعة أبراج يمكن أن توضع حامية فيها. وقد رأى اندريا كورسالي بامّ عينه هرمز وعدن سنة ١٥١٧، وقارنهما، فقال: «لعلّ هرمز أكبر من عدن، إلا أنها جميلة مثلها، لكن لا يحيط بها سور». ويثبت وصف المعارك الحربية بين البوكيركيه والهرامزة سنة ١٥٠٧ و١٥٠٨، ان هرمز لم تكن مسوّرة.

وكانت شوارعها تنتهي مباشرة إلى الرملة. وعندما أغلق خواجا عطا مداخلها سنة ١٥٠٨، ليقاوم هجوماً برتغالياً جديداً، شكّلت جدران الدور التي اتصلت بتلك الحواجز العالية سوراً حول مدينة هرمز من جهة البحر. وفي حالة الخطر، كانت بعض مدن هضبة فارس مثل تبريز أو مشهد، تستعمل هذا الجهاز الدفاعي، إذا كانت غير مسوّرة. وبهذا المعنى فقط، ينبغي فهم مرتين فرننديز دي فيغويرووا، الذي جاء إلى هرمز عام ١٥٠٨، عندما أكّد أن المدينة مسوّرة. كذلك ينبغي فهم تومبه بايرس عندما يشير إلى جدرانها وأبراجها وأسوارها.

ولا يمكن أن نقطع بأن بناء المدينة الأولي على الأرض الأصلية اعتمد على مخطط وظيفي. تستثنى من ذلك الخدمات الواضحة التي فرضها شكل شبه جزيرة مورونا على مؤسس هرمز الجديدة: توالي القصر السلطاني ومباني الجمرك وحوض بناء السفن على خط واحد، مقابل شاطىء آمن في الخليج. ولا نعلم إذا كان الميدان الكبير أي ميدان جرون يوصل إلى وسط التجمع البشري أو إلى أطرافه، كما هي الحال في كثير من ميادين القرون الوسطى. ويمكن دعم تحديد هذا الموقع الأخير بإحدى ملاحظات كوريا (التي لا يجوز مع ذلك استخلاص إثبات قاطع منها) المتعلقة بإنزال أحد البرتغاليين على اليابسة سنة ١٥٠٧ لشراء مواد غذائية: فقد رُوْقِبَ بدقة وتبيّن أنه أجرى مشترياته من البازار، وهو الميدان، دون أن يصل البتة إلى داخل المدينة.

ويعتبر دوارته بربوسه، الذي زار جرون سنة ١٥١٧ حتماً، أن جمال هرمز يفوق اتساعها، وأنها مخرّقة بالشوارع الجميلة والميادين الرائعة. وإذا كانت مقارنة هرمز بالمدن البرتغالية في أيامه قد اقتضت هذا التقريظ، فلا يجوز إعطاؤه إلا قيمة نسبية. فمخططات المنظر في آخر القرن السادس عشر ترسم فيها شوارع متقاطعة بزوايا قائمة. لكن يمكن التساؤل عن مدى الثقة التي يجوز ان تُعْطى لأمثال هذه المخططات المعمّمة والاتفاقية. وكان فيها أيضاً بعض شرايين المواصلات الكبرى: فقد حوت شارعاً عريضاً يذهب من جوار القصر السلطاني، ويخترق التجمع البشري متعامداً مع الشارع الرئيس الذي يتجه من الشرق إلى الغرب، وتلتقي به على مقربة من المسجد الجامع. ويضم الربض الجنوبي الغربي أربعة شوارع كبيرة، تذهب إلى صهريج خواجا عطا. مع ذلك، يعتبر فيغويرووا دقيق الملاحظة: فهو يصف شوارع هرمز في مطلع القرن السابع عشر، ويقول إنها ضيقة جداً، حتى إن شخصين فقط يستطيعان أن يسيرا فيها جنباً إلى جنب. أما البيوت، فليس لها فناء طيور، ولا حديقة، باستثناء بعضها الذي له صحن دار صغير. أما متاهات الأزقة الظليلة، المرتبطة رطوبتها بضيقها، فتتعرّج بين المباني

الشاهقة، التي يترواح عدد طوابقها بين الاثنين والأربعة، وتنفتح فيها نوافذ ذات مشربيات.

ويشيدون أبنيتهم بملاط الجص، وهو مادة تستخرج من الجون ذاته، على عمق بضع أقدام تحت الماء، فسمي «حجر السمك». وهو مسامي خفيف، أصله بركاني، مرغوب فيه في منطقة معرضة للهزات الأرضية، بخاصة لبناء جهاز التهوية (بادجير) المربّع، الذي يرتفع فوق السطوح المستوية، ويعدّ عنصراً من عناصر مشهد البناء الهرمزيّ. ويعتنى ببناء بعض هذه الأجهزة حتى حدّ التصنّع. وتختفي الدور ذات الطوابق في جنوبي المدينة. فهنا يسكن الفقراء في أكواخ قصب وسعف نخل.

وتسدّ سلسلة تلال شبه الجزيرة. وتقع رملة كهورو (كهورو الصغيرة) عند قاعدتها على الساحل الغربي. ولا تستعمل هذه الرملة لإنزال السلع. وهي بعيدة نسبياً عن المدينة. وتستخدم مكان اعتزال أو تسلية، وأحياناً نقطة نزول الأعداء. وفي محلّ لا يبعد كثيراً عن البحر، تشاهد مدافن أسلاف السلطان محمد شاه الأول. ويتحدث نيكولو دي أورتا ريبيلو في عام ١٦٠٦ عن مدافن عديدة وجميلة، مبنية بالحجر والملاط، منها ضريح «سلطان هرمز» الذي يتميز بجماله. وكان مدفن قطب الدين تهمتن الثاني ينتصب، هو ورموس أخرى ضخمة، مقابل كهورو، على ساحل الجزيرة الشرقي قرب مصلّى مكرّس للخضر.

وعلى مقربة من مقبرة كهورو، تنبسط أرض مستوية، تدعى أرض الأمير، ويقصدها سلاطين هرمز ليلعبوا فيها بالزرد. وكان رجال البلاط يقيمون فيها مدة طويلة أحياناً. وكان السلطان قطب الدين تهمتن الثالث يمضي فيها الصيف في بعض السنين. وقد خيّم فيها سلغرشاه الأول وحاشيته أربعين يوماً في أعقاب زلزلة شهر شباط سنة ١٤٨٣م/٨٨٨هـ. ويقيم فيها في أثناء قيظ الصيف، سكان هرمز الذين لا يذهبون إلى بساتين نخيل بر كرمان. ويبني الفقراء أكواخهم بأغصان الشجر، في كهورو وفي جميع الأماكن بين مدينة هرمز والتلال.

وتتميز المناطق المنخفضة في كرمان الساحلية بأمطار نادرة جداً، تنهمر بشدة عندما تهطل. وتطوّق فيها قباب مروّسة مشارف مواطن السكن، وتظلّل صهاريج الماء المحفورة في الأرض. وتتكرر هذه الظاهرة ذاتها في جزيرة جرون، فتشاهد خزانات تجميع مياه الجريان الناشيء عن هطل الأمطار الشتوية، في الربض وفي السهل الذي يمتد حتى التلال.

وترى أيضاً مباني متنوعة ومساجد بين المدينة والتلال. وكان المسلمون يقومون سنوياً بطقوس جليلة، ويجرحون أنفسهم بالسكاكين، في أضخم جامع واسمه جامع جلال أباد، مما يدفع إلى الظن بأن الشيعة شكّلت حتى القرن السادس عشر أقلية في هرمز، تقيم طقوسها الدينية خارج المدينة. ويرجح كثيراً أن أماكن عبادة الأقليات الهندية كانت واقعة على طرف التجمّع البشري. وفي سنة ١٦٠٦، التقى غسبار دي سان برناردينو بجوار مقبرة الأمير، بـ«برهماني» يعمل عملاً صالحاً بإطعامه كلاباً شاردة. وعلى بعد نصف فرسخ من هرمز، وفي منتصف القرن السادس عشر، كانت طائفة صغيرة من «اليوغائيين» تعيش في الكهوف، تحت سلطة رئيس تنصّر، وتسمى باولو دي سانتافيه، وكتب إلى إنياس دي لويولا يقول له انه كان كاهن الشعب الوثني وخادماً في أحد البدود. ويذكر تيتولو داس رنداس، العائد إلى عام ١٥٤١م ثلاثة نسّاك، كانوا يتلقون ريعاً ضئيلاً من سلطان هرمز. وكان أحدهم يقيم على مسافة نصف فرسخ من المدينة. وكان ناسك يقيم في المصلى الذي يتعبّد فيه المسلمون، وهو مبني في قمة سلسلة التلال الواقعة وراء مدينة هرمز. وفي أثناء هجوم البوكيركيه سنة ١٥٠٧، صعد «تجار محترمون وبدن» على منحدراته قاصدين الاحتماء به.

ويمثّل المكان المسمى «تورومباك»، على مسافة فرسخ في الجنوب الشرقي، قرب البرج، المحل الوحيد المعمور خارج سهل هرمز، ما عدا بعض معتكفات يرتادها الزهّاد. وكان الرقباء يترصدون من على مرتفعات تورومباك المراكب القادمة من الهند. وكان جناح سلاطين هرمز الذين يذهبون أحياناً في رحلة صيد إلى تورومباك، وبعض الشجيرات، ومشجرة نخيل، ومقلع حجارة أساس القلعة البرتغالية، والعلاج الناجح بمياه العين، كل ذلك كان يجتذب بعض السكان والمصطافين والمستشفين. وما تزال الحديقة الملكية القديمة خضراء بين الصخور حتى الآن، تسقيها الآبار ذاتها التي حاول البوكيركيه أن يردمها سنة ١٥٠٧م.

يتضح من هذا الوصف الدقيق أن هرمز الجديدة مثّلت ظاهرة بشرية حضارية فريدة تذكّر سرعة إنشائها وقيامها ببناء مدينة برازيلية، عاصمة البرازيل الجديدة على يد المهندسين كوستا ونيوميير، بعد سبعة قرون ونيّف من نقل هرمز العتيقة إلى هرمز الجديدة في جزيرة جرون. ولم تُعْطَ ظاهرة هرمز الجديدة حقّها من الدراسة لإظهار عظمتها حتى الآن، إلا بعد أن أخذت الحفريات تكشف ما خفي من أمجادها الغابرة منذ سنة ١٩٧٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د ـ نتائج حفريات عام ١٩٧٩

وقد أجريت الحفريات الأولى في جزيرة جرون سنة ١٩٧٩، من ٥ شباط إلى ١٠ أيار. ولخّص حسين بختياري نتائجهما في مجلة المعهد البريطاني للدراسات الفارسية المسماة «ايران»، فقال[1]: تقع جزيرة هرمز على بعد ١٥ كم جنوبي شرقي بندر عباس. أما آثار مدينة هرمز العتيقة أي هرموز الكلاسيكية، فتشاهد على الساحل، قرب نهر ميناب الأسفل. وكانت تجارة هرمز العتيقة هامة جداً حتى سنة ١٣٠٠م. لكن في عام ١٣٠٠م، نقل ملكها عاصمته إلى جزيرة جرون الآمنة، وسماها هرمز، فصارت، من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر (الثامن الهجري إلى الحادي عشر الهجري)، مركزاً عظيماً لتجارة السلع القادمة إلى الخليج من الهند والشرق الأقصى، لكي يتم توزيعها في وقت لاحق على البلدان الإسلامية الواقعة حول الخليج وغربيّه. وفي سنة ١٥١٤م، أصبح سلطان هرمز تابعاً للبرتغاليين. وفي عام ١٦٢٢م ساعدت سفن شركة الهند الشرقية الانكليزية شاه عباس، فاحتكر بندر عباس نشاط جزيرة جرون التجاري، وانحطت هرمز الجديدة.

وأبان المسح السطحي أن القسم الرئيس من مدينة هرمز الجديدة يضمّ الأرض الواقعة بين رأس الجزيرة الشمالي وبين طرف المقبرة العامة الجنوبي (مسماة اليوم مكتب خانة). أما المساحات المسكونة الأخرى، فتشمل السواحل الغربية والشرقية، وما حول زيارة الخضر وتورونباك، ورقعتين في جنوبي الجزيرة. وأثبت المسح الأولي والحفريات الأولية أن الآثار الرئيسة الباقية تعود إلى الفترة المحصورة بين القرن الثامن الهجري / ١٤م والقرن الحادي عشر الهجري / ١٧م. وقد أدّت إلى العثور على ما يلي:

١ ـ العمـــران

جميع الإنشاءات والمباني مشيدة بالحجارة المحلية المطلية بالملاط والسروج، منها:

(١) ـ الأنظمة الدفاعية

تشاهد البروج وأجزاء من سور المدينة بين الآثار على سواحل جرون الغربية

---

(١) إيران، ص ١٥٠ ـ ١٥٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشرقية: مثل برج تيرندز وبرج نغص. واكتشفت مصطبة كبيرة وحائط سمكه ٦ أمتار في محمود أباد.

(٢) ـ الــدور الخاصة

حفرت أجزاء من دارين، لكل منهما باحة مثمّنة الشكل رئيسة، وأربعة إيوانات وأربع حجر، وخزان ماء وبعض الآبار. وكشف في إحدى الدارين عن جزء من حمام أيضاً. وعثر في الدارين على شظايا نقش مجصّص وعلى نقش آخر مصقول. واستعملت رافدات خشبية طولانية وشاقولية في الجدران لتخفيف أضرار الزلازل.

(٣) ـ المباني الدينية

وشملت زيارة ملا (مزار إسلامي)، ولها ردهة وسطى مثمّنة، ومحراب، وقبة، وجدران مبنية بالقرميد المصقول، وكذلك زيارة الخضر، ولها ردهة مستطيلة، وصحنان، ومحراب وقبة (زار ابن بطوطة هذا المزار في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، «وشهر تغيهة» مكتب خانة (برج مقبرة أو مقبرة الأسرة). وكلها واقعة في المقبرة الرئيسة. وعثر في المقبرة على عدة شواهد قبور مـزخـرفـة ومكتـوب عليهـا آيـات قـرآنيـة، بعضهـا مـؤرخ بيـن ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م ـ ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م.

(٤) ـ مباني معقدة

ليست هذه المباني دفاعية أو دينية أو خاصة، لذلك يمكن اعتبار بعضها حكومية أو عامة أو ذات نفع عام. وقد كشفت منشأة معقدة قرب الساحل الشمالي، تتألف من مدخل رئيس وردهة وسطى كبيرة مع قوس حولها وحجرتين كبيرتين (٨ × ٥ و ١٠ × ٥م). والمباني الأخرى هي قصر الغلق أو برج الغلق، وقصر سرت، وقصر ناصر وقصر بيبيغال وخان زفريني.

(٥) ـ نظام خزن الماء

الصهاريج والآبار، ألخ.. لا يوجد ماء عذب في جزيرة هرمز. ففي أثناء عظمة سلطنتها جلب سكانها بعض الماء من جزيرة قشم وبعضه من جلفار (رأس الخيمة). ويخزنون ماء المطر في صهاريج في مدينة هرمز. وهذه الصهاريج مستطيلة أو مستديرة، والنوع الأول شائع في سيراف وقيس وقشم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٦) ـ المباني الخاصة

مثل مجلس المعلم كرنجه، المسمى باسم أشهر مواطن في هرمز. وتتألف آثار المبنى من فناء مربع وبعض الغرف حوله وإيوان واحد.

(٧) ـ الحفريات في الحصن البرتغالي أو القلعة البرتغالية

أشيد القسم الأكبر من الحصن بين ١٥٠٧ و ١٥٣٧م، وامتدَّ على عدة مراحل بناء. ففي الماضي، خلّف بعض الرحالة رسوماً ومخططات لهذا الحصن، ولهذه المصورات نقاط مشتركة محدودة. لكن أدّت الحفريات إلى الكشف عن مخططه الدقيق، وعن ثلاثة صهاريج صغيرة في قسمه الغربي الذي لم يرسم في مخططات الرحالة. وكشف أيضاً عن السور الخارجي (طوله ١٤ متراً) وعن جزء من البرج المتعدد الأضلاع.

٢ ـ الأفـــران

واكتشف اثنا عشر فرناً في أثناء الحفريات، وتبين أنها تشبه الأفران المكتشفة في سيراف. ويتألف كل فرن من جزئين: الموقد المثقّب السقف، وحجرة الأواني. وتبيّن أن الأواني فخّار أفران عديدة ومتنوعة وناعمة وسريعة الانكسار، وأنها مزينة برسوم طبيعية وهندسية، ومفروض عليها ضريبة، وهي مدموغة ومنحوتة بارزة. وعلى بعضها نقوش تشبه شواهد القبور العائدة إلى القرنين ٨ ـ ٩هـ/ ١٤ ـ ١٥م المشار إليها من قبل. وتشمل أنواع فخار الأفران الجرار والطاسات والقناديل، وآنية العطور وغيرها، وأواني أخرى متنوعة، وتماثيل صغيرة بشرية وحيوانية، والكثير من الحلى المعمارية المتنوعة الأشكال والحجوم. وتدل كمية خزف هرمز ونوعيته على أنها كانت حتماً تصدره إلى البلدان الأخرى.

٣ ـ الخزف الصيني

وعثر على خزف صيني أزرق وأبيض وأخضر فاه فني في أثناء المسح والحفر. وقد استوردت هذه الأصناف إلى هرمز من الصين من سنة ١٣٠٠ إلى ١٦٢٢، عندما كانت العلاقات التجارية قائمة بينهما. وفي العقدين الأولين من القرن التاسع الهجري / ١٥م، وصلت إلى هرمز عدة حملات صينية، قابلها سلطان هرمز بإرسال سفارات إلى الصين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ العمــلات

واكتشف في موسم الحفريات الأولى ألف قطعة عملة من البرونز، مسكوكة في هرمز. لكن مع الأسف لا تقرأ معظم النقوش على معظمها بسبب الرطوبة والتأكسد. وكتب على أحد وجهي إحدى القطع نقش مقروء نصه «عدل جرون»، وعلى الوجه الآخر رسمت مرساة سفينة. وتاريخ السك واضح على بعض العملات. وتتروح هذه التواريخ بين ١٣٢٠ و ١٦٠٠م. وتشير بعض النصوص التي تتحدث عن هرمز إلى وجود عملات ذهبية وفضية فيها.

ولا بدّ أن تتبدّل نظرة الباحثين إلى سلطنة هرمز بعد ما كشفت عنه الحفريات من مظاهرها الحضارية وأنشطتها وممارساتها السياسية، فقد ذكر دوارته بربوسه أن لهرمز عملتها الخاصة بها، إلا أن منسل لونغورس ديمس، ناشر كتاب بربوسه، أنكر وجود عملة هرمزية إنكاراً قبلياً، واستخلص من وجود هذا النقص المزعوم أنها لم تكن دولة ذات سيادة تامة. ثم جاء العثور على ألف قطعة نقد هرمزية، منقوش على أحد وجهيها «عدل هرمز» وعلى الثاني صورة مرساة سفينة، فأعطى دليلاً قاطعاً على ممارستها أعمال السيادة كاملة، خلافاً لبعض الأراء المبنية على تخمينات خاطئة، ترمي إلى التقليل من أهمية هذه الدولة العربية التي سيطرت على الخليج وعلى العلاقات التجارية بين بلدان سواحل بحر الهند وبين بلدان سواحل حوضة المتوسط الشرقية، من القرن ٤هـ/ ١٠م إلى القرن ١١هـ/ ١٧م. وقد ساعدها على تثبيت كيانها وتدعيم استقلالها وحفظه، أداؤها خراجاً للقوى الفاعلة في البرّ الآسيوي من جهة واعتمادها على ثلاث عواصم تشكّل عملياً ثلاثة خطوط دفاعية لها في الأزمات الحادة أو ثلاثة محاور مناورة سياسية، هي هرمز التي أبرزنا أهميتها، ثم قلهات وجلفار اللتين سوف نجمل ما يتعلق بهما فيما يلي.

ثانيـاً ـ مدينة قـلهــات

وقلهات أفضل مدن عُمان في زمن سلطنة هرمز، قال عنها ياقوت الحموي إنها «مدينة بعُمان على ساحل البحر، إليها ترفأ أكثر سفن الهند. وهي فرضة تلك البلاد، وأمثل أعمال عُمان، عامرة، آهلة، وليست بالقديمة في العمارة. . . وهي لصاحب هرمز»[1]. وجاء في رحلة ابن بطوطة أن «مدينة قلهات على الساحل، وهي حسنة

---

(١) معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٣٩٣، عامود ١.

الأسواق. ولها مسجد من أحسن المساجد، حيطانه بالقاشاني، وهو شبه الزليج. وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى. وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم... والأرز يجلب إليهم من أرض الهند. وهم أهل تجارة. ومعيشتهم مما يأتي إليهم من البحر الهندي. وإذا وصل إليهم المركب فرحوا به أشدّ الفرح. وأكثرهم خوارج، لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمتهن، ملك هرمز، وهو من أهل السنة»[١].

وقد زارها دوارته بربوسه، وقال عنها إنها مدينة مسلمة عظيمة، منازلها فخمة ومتقنة البناء، ويقيم فيها الكثير من التجار وتجار الجملة والأماجد[٢]. وقد مـرّ بها البوكيركيه سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م، ودمّرها وحرقها سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. وورد في كتاب التعليقات أنها مدينة تضاهي مدينة سنتاريم بالكبر. واستفاض ماركوبولو في الحديث عنها[٣]، فقال: «قلهات مدينة كبيرة، واقعة على الساحل في جون يدعى جون قلهات. وهي مدينة نبيلة، تبعد ٦٠٠ ميل عن ظَفَارِ في الجهة الشمالية الغربية. وأهلها مسلمون من رعايا سلطنة هرمز. وعندما تنشب حرب بين سلطان هرمز وملك آخر أقوى منه، ينسحب إلى مدينة قلهات المنيعة جداً بموقعها وتحصيناتها. ولا يزرع سكان قلهات الذرة، بل يستوردونها، لأن السفن التجارية القادمة إليها تحمل دوماً شيئاً منها. وميناؤها واسع جداً وجيد، وترتاده سفن عديدة موسوقة بالسلع الهندية. وتوّزع قلهات التوابل وغيرها من تلك البضائع على مدن عُمان الداخلية وقراها. وتصدّر إلى الهند الكثير من الخيول العربية الأصيلة. ومثلما قلت من قبل، يعجب المرء لهذا العدد الكبير من الخيول الذي يحمل سنوياً منها ومن جوارها إلى الهند على ظهر المراكب. ذلك أن الهند لا تربي الخيل، وتنفق الخيول عندها من جراء نقص العناية بها وسوء تغذيتها. وتقع قلهات عند مدخل جونها، فلا تستطيع سفينة أن تدخل الميناء أو تخرج منه إلا بأمر من رئيسه. وعندما يخشى سلطان هرمز ـ وهو أيضاً سلطان قلهات وتابع لسلطان كرمان ـ شيئاً من سلطان كرمان أو سواه، يستقلّ سفنه، ويغادر هرمز، ويأتي إلى قلهات. ثم يمنع أي سفينة من عبور مدخل الخليج والولوج فيه، فيلحق ضرراً فادحاً بسلطان كرمان، لأن هذا الأخير يحرم من جميع الرسوم التي كان سيستوفيها من التجار القادمين من الهند أو غيرها، الذين كانوا سيمرون في اقليمه. ذلك أن أعداداً

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٧٨ ، تمتهن، الصواب تهتمن.
(٢) كتاب دوارتيه بربوسه، ج ١، ص ٦٩.
(٣) كتاب سير ماركوبولو، المجلد الثاني، الفصل ٣٩، و ٤٠، ص ٤٤٩ ـ ٤٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبيرة من السفن المحملة بالسلع تأتي إلى هرمز، وتجني هرمز منها واردات عالية جداً. ولتفادي هذه الأضرار، يضطر سلطان كرمان للرضوخ لرغبات سلطان هرمز المنسحب إلى قلهات. ولسلطان هرمز قلعة في قلهات أمنع من المدينة ذاتها، تتحكّم بالدخول إلى الميناء. وغذاء أهل قلهات التمور والأسماك المملّحة الوافرة جداً عندهم. أما النبلاء، فمآكلهم أفخر. وإذا غادر المرء مدينة قلهات وسار ٣٠٠ ميل متجهاً إلى الشمال والشمال الغربي، يصل إلى مدينة هرمز العتيقة الكبيرة والنبيلة والواقعة على سيف البحر. ويحكمها سلطان تابع لسلطان كرمان».

ثالثاً ـ مدينة جلفار

وورد ذكر جلفار في كثير من الوثائق البرتغالية، منها كتاب دوارته بربوسه، وفيه يقول: «ومتى تجاوز المرء قربة خور فكان، يصل إلى قرية جلفار، يقطن فيها قوم أثرياء، وبحارة ماهرون، وتجار جملة. وتقع قربها مصائد سمك واسعة جداً، تكثر فيها مغاصات اللؤلؤ الصغير والكبير على حد سواء. ويأتي إليها مسلمو جزيرة هرمز لشراء اللؤلؤ وحمله إلى الهند وإلى بلدان عديدة أخرى. وتدرّ تجارة جلفار واردات هائلة على سلطان هرمز الذي يجني دخلاً عظيماً منها ومن جميع المراكز البشرية الأخرى. وتتوزع قرى أخرى على طول الساحل وراء خورفكان، منها قرية رأس الخيمة التي تقع خلفها كلبا. وفي هذه الأخيرة، أشاد سلطان هرمز قلعة لحماية ممتلكاته لأن مسلمين كثراً، شبيهين بالأعراب الخاضعين لحكم اسماعيل شاه، يعيشون في أراضي ممتدة في الداخل خلف أراضيه، وينطلقون منها، فيغيرون على قراه، ويقاتلونها ويخرجون عن طاعته»[1].

وأشاد أحمد بن ماجد بكثرة ببحارة جلفار وبمهارتهم وجرأتهم، فقال في قصيدته البليغة في قياس سهيل والرامح:

رعى الله جلفار ومن قد نشا بها ... وأسقى ثراها وامقاً متتابع

بها من أسود البحر كلّ مجرّب ... وفارس بحر للشدائد بارع

يسرّك في الأوصاف إن وُصِفَتْ له ... حذور جسور في المهمات شاجع

إذا قام في شيء يُرجّى كماله ... يقوم ولم يمنعه عن ذاك مانع[2]

وأثبتت الحفريات المعاصرة أن مدينة جلفار وجزيرة قشم كانتا تموّنان هرمز

(١) كتاب دوارته بربوسه، مجلد ١، فقرة ٤٠، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) الأبيات ٤٩ ـ ٥٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجديدة بالمياه العذبة[1]. وأهم من ذلك كله أن جلفار وقلهات كانتا تعدّان قوات مسلحة للدفاع عن استقلال سلطنة هرمز وأن تلك القوات كانت تتجمع في جلفار، وتنطلق منها لمهاجمة العدو حيثما كان.

(١) انظر حسين بختياري، نظام خزن الماء في هرمز الجديدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـل الثانـي

حوزة سلطنة هرمز في الخليج العربي

تضم سلطنة هرمز ما بين تخومها أراضي واسعة، منها معظم ساحلي الخليج العربي الجنوبي، وما في مياهه البحرية من جزر كبيرة وصغيرة، قريبة من البرّ أو بعيدة عنه. ويقضي توزيعها الطبيعي استعراض ما كان منها في أقليم كرمان، ثم ما هو جزائر، وأخيراً المساحات المقتطعة من سيف جزيرة العرب.

أولاً ـ أراضي سلطنة هـرمـز في إقليم كـرمـان

أما إقليم كرمان، فبلاد قائمة بذاتها، مستقلة عن أقليم فارس غرباً وأقليمي مكران وسجستان شرقاً، وصحراء دشت لوط مع أقليم خراسان شمالاً، والخليج العربي جنوباً، عرفها الأقدمون باسم كرمانية، منهم سترابون وبطلميوس وأميان مرسلين. وكانت مساحتها تتسع قليلاً أو تتقلص جزئياً حسب أحداث الدهر. وتتنوع التضاريس على سطح هذا الاقليم، فتخترقه سلاسل جبلية عالية تتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وتحوي بقاعاً خصبة ومراعي، وأودية مليئة بالبساتين والحقول المزروعة، التي تسقيها مجاري مائية قصيرة عديدة. وأطول أنهاره نهر ميناب الذي يتكوّن في مرتفعات جمبرون، ويتلقى روافد كثيرة قبل أن يصبّ في جون الخبر في الخليج العربي، على بعد ٥٠ كم شرقي بندر عباس. وما يهمنا الآن من كل هذا الاقليم هو الأراضي المقتطعة منه الداخلة ضمن سلطنة هرمز، أي عملياً ساحل البحر وما وراءه، على عمق يتراوح في البر بين ٧٠ و ١٨٠ كم حسب المؤرخين.

وكانت كوراستان (= المكان المزروع شجر كور) منذ القرن الثالث عشر على الأقل، الموقع الأخير التابع لسلطنة هرمز على طريق لار، على مسيرة ثلاثة أيام من البنادر. وقد شاهد انطونيو تنريرو فيها سنة ١٥٢٣، بضع شجرات نخيل وآبار ماء عذب، وعلى مقربة منها مبنى كبيراً مشاداً باللبن، فيه عقود وأربع بوابات، وبجواره

صهريج كبير. ويؤكد الرحالة الأوربيون الذين مّروا فيها تباعاً في عهد الصفويين، أن السكان المقيمين فيها على الدوام، فيما عدا بعض الظروف، لا يعدّون سوى بضعة أفراد، وأن كوراستان يرتبط وجودها بخان القوافل فيها.

وعلى طريق السيرجان بعد ذلك، باتجاه الشمال الشرقي، تمثّل مشجرة النخيل في تزرج، الواقعة جنوبي فارغان، أي على بعد حوالي ٧٠ كم من البحر، آخر الأماكن التابعة لسلطنة هرمز، وتتألف من حصن ومن قرية فيها خمسون أسرة. بالتالي هذه المعلومة بعيدة عن الأرقام الواردة عند عبد الرزاق السمرقندي في القرن الخامس عشر، الذي يذكر أن عمق سلطنة هرمز في البر ٣٠ فرسخاً، أي ١٨٠ كم، وعند بيدرو تكسيره الذي يقدره بـ ٢٨ فرسخاً. ولا يصح هذا العمق على وجه التقريب إلا عبر الكتلة الجبلية الواقعة شرقي تزرج، التي سكنتها في القرن السابع عشر قبيلة الأحمدي العربية، وفي مقاطعة ولاشجرد التي افتتحها حاكم كرمان الصفوي في ثلاثينات القرن السادس عشر. ويتفق القياس المحسوب من سلم الخارطة تقريباً مع المسافة الواردة عند تكسيرة (١٦٨ كم)، مثلما يستطيع أن يخمنّها رحّالة يجتاز أرضاً وعرة. أما في الجنوب الشرقي، فتعود الحدود فتصبح أقرب من الشاطىء: فسيطرة هرمز اقتصرت على بيابان أي السهل، وهو اسم الشريط الساحلي، الذي يبلغ عرضه بضعة كم، وتسدّه تلال بلاد بشكرد من الجهة الشرقية. فهل امتدت أراضي هرمز إلى أبعد من ذلك في هذه المنطقة الوعرة التي يصعب التوغّل فيها لإعمارها؟ الاحتمال ضعيف جداً. في جميع الأحوال، في مطلع القرن السادس عشر، كان اقطاعي مستقل من هرمز، يحتل قلعة غات المنيعة الواقعة على حدود بيابان الشمالية الشرقية، ولم تعد إلى سيطرة هرمز إلا عام ١٥٤٥ بعد ٦٠ سنة من الانفصال عنها.

ويؤلف شريط الأرض المقوّس، الممتد على ساحل مضيق هرمز، ما يعرف بـ «البيرونات» التي شاعت تسميتها باسم ثابت أقدم، هو موغ اشتان، أي المكان المشجّر نخيلاً. ويبدو أن لقب نخيل أستان المرادف له يطلق على التخصيص على أفضل منطقة نخيل، وهي منطقة نخيل ميناب التي ما تزال موجودة حتى اليوم، وتعدّ أروع حقل نخيل في تلك الأرجاء. وعلى الرغم من نقص الدقة في النصوص الذي يعكس بلا ريب توسيع الاستعمال الذي يدفع إلى الاعتقاد بأن موغ أشتان تمتد من لشتان إلى جاسك، فإن هذه التسمية لا تنطبق في الحقيقة إلا على السهل الساحلي المنبسط مقابل جرون وأمام ميناب. أما بالمعنى الضيق، فلا يشتمل على مقاطعات الحوض الأعلى لرودان رود ومنوجان وولاشكرد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحسب موازنة سنة ١٥١٥، المنشورة بالترجمة البرتغالية لجاوو دي باروس، كانت الأراضي التابعة لهرمز في إقليم كرمان تضم ثلاث مقاطعات يحكمها وزراء: هي ميناب ومنوجان وولاشكرد. وتنطبق هذه التسميات على المناطق الأصلية في سلطنة هرمز القديمة[١] التي تدفع كل منها بالترتيب ٢٥٠٠، ٣٢٠٠، ١٠٠٠ أشرفي سنوياً لخزينة الدولة. ولا يذكر باروس، إضافة إلى هذه الوزارات، إلا ست قرى في موغ أشتان الغربية، تبلغ جباياتها ٤٢٠٠ أشرفي، تذهب إلى خزينة السلطان. ولا وجود لوزارات في موغ أشتان الغربية، على الأرجح، لأن الأسر الارستقراطية المحلية كانت تمتلك معظم القرى، لا السلطان.

وتتوالى على طول رملات موغ أشتان فرضات عديدة، تمثّل مكلاءات مكشوفة بسيطة وقد دوّن الجعفري وباروس قائمتين متوازيتين، الفاصل الزمني بينهما مائة عام، فكوهي مبارك، وقوهستان تؤمنان مواصلات ساحل بيابان. وكانت الطرادات التي تنتقل بين الجزيرة (جرون) وبين المنطقة الزراعية الغنية حول ميناب، مهد سلطنة هرمز، ترسو في شاخوا وفي بندر إبراهيمي، بندرموغ أشتان عند مصبّ نهر ميناب.

ويعتمد جزء من التجارة المحلية وكل تجارة المرور الدولية البرية على بنادر واقعة مقابل هرمز. وتذكر النصوص العربية والفارسية دوزر وايفان ونابند. وإذا استثنينا باروس الذي أطلع على الوثائق العربية والفارسية، فإن الرواة البرتغاليين لا يذكرون إلا نابند ومحلاً آخر يسمونه البندر (البندل). وتصعب معرفة الموقع المقصود بتسمية بندر العامة ـ إذا افترضنا أنها تعني مكاناً واحداً ـ لأن عدة نقاط إبحار كانت تقوم على ذلك القطاع الضيق من الساحل، ولا تمتلك أي منها تجهيزات مرفئية.

ويترافق اسما دوزر وبندر ايغان في أغلب الأحيان، ويعنيان رملتين تنزّل عليهما قوافل إقليم فارس حمولتها، وتنطلق منهما محملة عند إيابها بالسلع الهندية. ويرجح أن بندر إيغان أنشطهما. وقد شاعت تسميته البندر، واستخدمها البرتغاليون بصيغة بندل المبتورة. ويحدد موقع دوزر عند مصبّ رودجينو. وتبعد ايغان عنها قليلاً باتجاه الغرب، على مستوى قرية نخل ناخدا الحالية، شرقي نابند، وعلى مسافة قريبة منها. ويعلّل هذا القرب الخطأ الذي ارتكبه في شهر تشرين الأول ١٥٠٨ رئيس ربابنة البوكيركيه الذي خدعته في ضوء القمر مباني قائمة بعد موقع وجود التجمع البشري

---

(١) تسمية هرمز القديمة عند ابن بطوطة مرادفة لهرمز العتيقة أو هرمز الساحلية عند غيره.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقصود، ثم صحّح وجهته، وجارى الشاطىء حتى بلغ نابند. بالفعل كانت نابند والبندر يبعدان مسافة واحدة تقريباً عن هرمز، ويتشابهان. ففي نابند ينتصب مسجد جامع أمام رصيف الإنزال مباشرة. وتنبسط وراء المسجد فسحة تنزل فيها القوافل. ونابند مكان استعذاب للمراكب بالدرجة الأولى. وتعجّ بحركة ذهاب السقاة وإيابهم. وللبندل جامعه أيضاً، وقدّر عدد سكانه بمائة أسرة سنة ١٥١٥. وهو نقطة انطلاق القوافل التي تجتاز فارس ومكان وصولها. وإنشاءاته على الأرض بسيطة مثل تجهيزاته المرفئية. وفي عام ١٥٢٣، لم يكن البندل يحوي إلا أكواخاً من القش، يأوي إليها أناس فقراء يسكنهم فيها تجار هرمز الذين يستخدمونهم في جني التمور. وبعد مضّي ١٥ سنة، أحصى فيه ميشيل ممبريه ٧٠ ـ ٨٠ كوخاً، وأشار إلى وجود دور يقيم فيها التجار وبها مخازن أيضاً. وفي سنة ١٦١٧، لم يشاهد فيها د. غرسيا دي سيلفا أي فيغويروا شيئاً آخر.

ويصف ابن حوقل إقليم كرمان وصفاً واقعياً دقيقاً، نقتطف منه ما يلي: كرمان ناحية لها جروم (مناطق حارة) وصرود (مناطق باردة).. وليس في جرومها شيء من الصرود. وربما عرض في صرودها بعض جروم. والذي يرتفع فيها من المدن المشهورة فالسيرجان وهي قصبة كرمان وجيرفت وبم وهرمز. وهذه أعلام مدنها وكبارها، مشهورة، معروفة، وفي أضعافها دونها. ومن مشاهير جبالها المنيعة جبال القفص وجبال البارز وجبال معدن الفضة. وليس ببلاد كرمان نهر عظيم، ولا بحيرة إلا ما لها من بحر فارس وخليجه الذي يخرق منه إلى هرموز يسمى الخبر. فتدخل فيه السفن من البحر، وهو مالح الماء كماء البحر. وبين أضعاف مدن كرمان مفاوز وبراري كثيرة[1].

أمّا جبال القفص فهي جبال جنوبيها البحر، وشماليها حدود جيرفت والروذبار وقوهستان أبي غانم وشرقيها الأخواش ومفازة بين القفص ومكران، وغربيها البلوص ونواحي المنوجان ونواحي هرموز. ويقال إنها سبعة جبال، لكل جبل رئيس منهم.

وجبال البارز جبال حصينة، خصبة فيها أشجار. وهي ناحية يقع فيها الثلوج، وبلد من الصرود منيعة. وأهلها ذوو سلامة، لا يرون أذية أحد.

وفي جبال المعدن جبال فيها فضة تمتد من جيرفت على شعب يعرف بدرفارد

(١) ابن حوقل، صورة للأرض، ص ٢٦٨ وما يليها.

إلى جبل الفضة مسيرة مرحلتين. ودرفارد هذا شعب خصب عامر بالبساتين والقرى، نزه جداً.

وجروم كرمان أكثر من صرودها، ولعلّ صرودها نحو ربعها. وهي مما يلي السيرجان وحواليها إلى جهة فارس والمفازة وما يلي بم. والجروم فيها من حدّ هرموز إلى حدّ مكران وحدّ فارس وحدّ السيرجان، فيقع في أضعافها هرموز والمنوجان وجيرفت.

ثانياً ـ جزائر سلطنة هرمز في الخليج العربي

وأما الجزائر الواقعة في الخليج العربي، والداخلة ضمن حدود سلطنة هرمز أو الخاضعة لسلطتها في وقت من الأوقات، فكثيرة جداً، لأن هذه السلطنة وسّعت ممتلكاتها تدريجياً فحكمت أحياناً جميع جزر الخليج. وكانت معظم الجزر الصغيرة شبه خالية من السكان، مثل طنب الكبرى وطنب الصغرى وفرور وهندرابي ولار وشتوار... وأهمها وأكبرها جزيرة خارك وقيس وقشم وفيلكة والبحرين.

آ ـ خـــارك

فجزيرة خارك هي أراسيا عند الجغرافيين القدامى. وقد كانت محطة هامة للملاحة على طريق البصرة ـ الهند، أو البصرة ـ عُمان. وذكر ابن خرداذبه[1] أنها تبعد خمسين فرسخاً عن البصرة، وأن مساحتها فرسخ مربع، وأن بها زرعاً وكرماً ونخلاً. وقال عنها ياقوت الحموي[2] إنها جبل عال في وسط البحر، يقابلها في البرّ جنّابة ومهروبان، تنظر هذه من هذه للجيّد البصر. فأما جبال البرّ، فإنها ظاهرة جيّدًا، وبها قبر يزار وينذر له. وإذا خرجت المراكب من عبادان تريد عُمان، وطابت بها الريح، وصلت في يوم وليلة. وقد أعجب نيبيوهر بأقنيتها المائية الدفينة المنحوتة في الصخور. وبها مسجد جامع، مما يدلّ على كثرة سكانها المسلمين. وفيها مغايص لؤلؤ، أرصفتها عميقة جداً، طمعت بها شركة الهند الشرقية الهولندية (فوك)، فأحدثت فيها متجراً، واستأجرت غواصين، لكنها تخلّت عن مشروعها في وقت لاحق لنشوب خلاف بين مدرائها في أمستردام وباتافيا[3]. وقال عنها ابن حوقل[4]: وتجاه جنّابة

---

(١) المسالك والممالك، ص ٦١.

(٢) معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٣٣٧، عامود ١.

(٣) ويلم فلور، غوص اللؤلؤ في الخليج العربي سنة ١٧٥٧، لاهاي ١٩٨١.

(٤) كتاب صورة الأرض، ص ٥٢، س ١٣ ـ ١٥.

٠ ٢ ٤ كم

ش

منبسطات الطين
بين المد والجزر

محط السفن

منطقة سباخ (تغمر فصلياً)

الخليج العربي

شكل ٣ ـ شبه جزيرة بوشير (بوشهر)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكان يعرف بخارك، وبه موضع اللؤلؤ، يخرج منه الشيء اليسير، إلا أن النادر إذا وقع من هذا المكان، فاق في القيمة غيره. ويقال إن الدرّة اليتيمة وقعت من هذا المعدن.

ب ـ جزيرة قيس

وقد سيطرت جزيرة قيس على مرور المراكب في الخليج العربي فترة من الزمن بعد سيراف، ثم حلّت جزيرة جرون محلّها نهائياً. ووصفها أحمد بن ماجد في ثلاثة أبيات من أرجوزة برّ العرب في خليج فارس، فقال:

وهنـدرابـي فـوق شيـروه سـوا   وقيـس تـاوانـة وقيـت الغـوى
مغـاصهـا جـزيـرة الملـوك   محـروسـة وغيـرهـا متـروك
مـا هـي كمثـل سـايـر الجـزايـر   فيهـا الخشـب والنـاس والعمـايـر[1]

وأعطى الشريف الأدريسي تفاصيل كثيرة عنها[2]، منها: جزيرة كيش جزيرة مربّعة، طولها اثنا عشر ميلاً في عرض اثني عشر. وفيها مدينة كيش. فوليها عامل من اليمن، فحصّنها، وأحسن إلى أهلها، وعمّرها، وأنشأ بها أسطولاً. فغزا به بلاد اليمن الساحلية، فأضّر بالمسافرين والتجار. ولم يترك لأحد مالاً، وأضعف البلاد. وانقطع بذلك السفر من عُمان، وعاد إلى عدن. وصاحب جزيرة كيش يغزو بهذا الأسطول مدينة الزابج، ويصل إلى بلاد القامرون. وأهل الهند يخافونه، ويهابون شرّه، ويواسونه بالمراكب المسماة المشعّيات. وقد ذكرناها في بلاد الهند. وحكينا عمن أخبرنا بها أن هذه المشعيات يكون طول المركب منها طول الغراب الكامل من عود واحد، يجذف فيه مائتا رجل. وأخبر مخبر في وقت هذا التأليف أن عند صاحب مدينة كيش من هذه المراكب المسماة مشعيات خمسين مركبا كل واحد منها من قطعة واحدة، وعنده من سائر المراكب الملفقة جملة عديدة. وهو الآن على هذه الحال يغزو ويسبي. وعنده أموال كثيرة. وليس لأحد به طاقة. وبمدينة كيش زروع وأغنام وأبقار وكروم. وفيها مغايص اللؤلؤ الجيد. ولصاحب جزيرة كيش، على التجار الذين يعاملون الغواصين شيء معلوم، يقبض له في ديوان البيع منهم، ويبعث إليه بذلك ضريبة. وما وجد من الجوهر الغالي النفيس، أمسكه الوالي، وكتبه على نفسه باسم أمير المؤمنين. والعدل لا يفارقهم في البيع والشراء، حتى لا يضام منهم أحد، ولا يشكو ظلماً.

وحكى ابن خرداذبه أن كيش سبعة فراسخ، وهي أربعة فراسخ في أربعة، وأن

---

(١) الأبيات ٥٠، ٥١، ٥٢ من الأرجوزة المذكورة.

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٥٦ ـ ١٥٧، ٣٩٠ ـ ٣٩١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها نخلاً وزرعاً وماشية، وأن لها غوص اللؤلؤ الجيد.

ونشب صراع طويل ومرير بين قيس وسلطنة هرمز. ظفرت فيه هرمز، وقضت نهائياً على قوة قيس وألحقتها بها. وسوف يأتي تفصيل تلك الحروب في الأحداث السياسية.

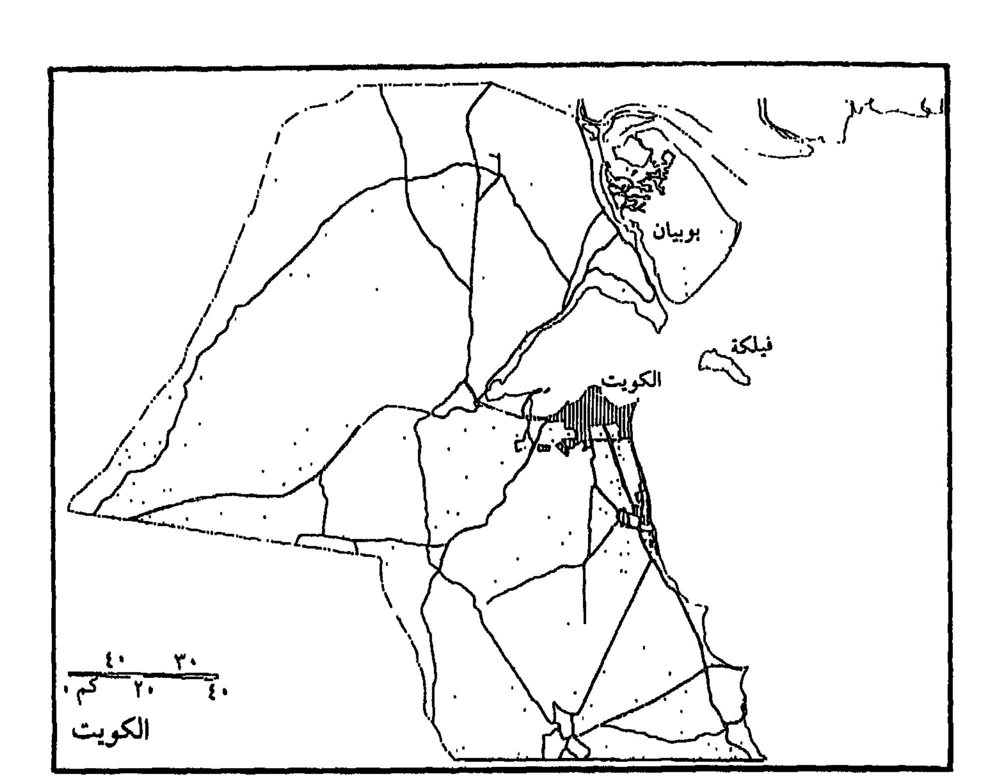
جـ ـ جزيرة القشـــم

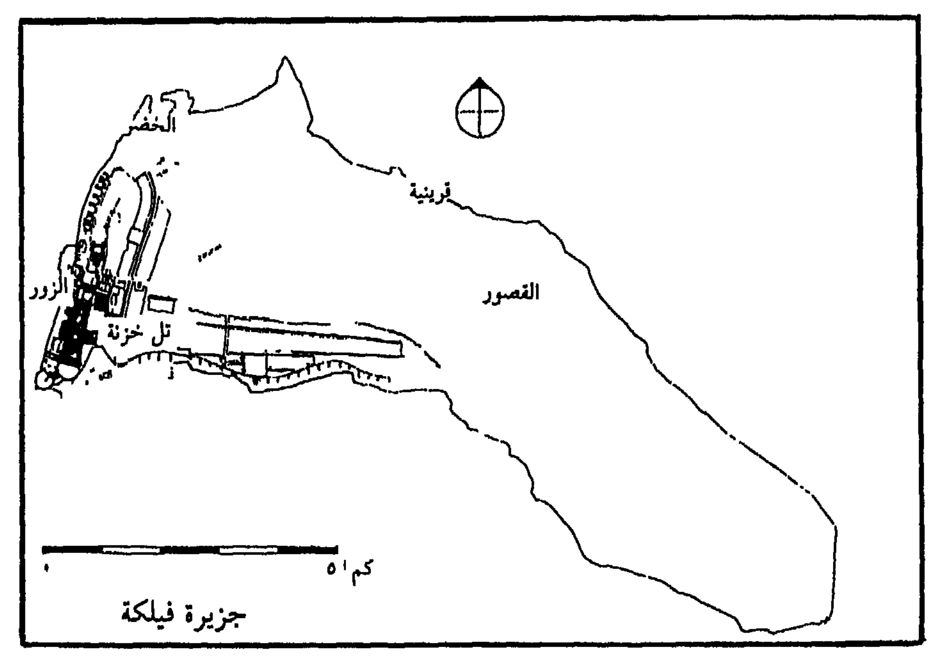
حملت هذه الجزيرة أسماء عديدة في القرون الوسطى: «الطويلة»، لافت، جزيرة ابن كاوان وجزيرة بني جاوان، وجزيرة برخت والقشم[1]. وهي واقعة مقابل ساحل لارستان وبندر عباس، ويبلغ طولها حوالي ١١٥ كم، ويفصلها عن البرّ الرئيس مضيق كلارنس الذي يتروح عرضه بين ٢ و ١٠ كم. وأراضيها صخرية، وتلالها كلسية تسمى جبال القشم. والنبات نادر فيها لكن بها مناجم كبريت وملح. وكان أهلها عرباً في زمن سلطنة هرمز. ويقال إن زلزال ١٨٨٤ دمّرها. وكان يتعاطى أهلها استخراج المرجان من البحر والغوص على اللؤلؤ، ويزوّدون هرمز الجديدة بالمياه العذبة هم وأهالي جلفار. وهي تبعد سبعة فراسخ عن جزيرة جرون. قال عنها ياقوت إنها كانت من أعمر جزائر الخليج، بها قرى وعيون وعماير. وأما في أيامه، فانه سافر في الخليج وركبه عدة نوب، فلم يسمع لها ذكراً. ويكتفي ابن حوقل بالقول عنها إنها جزيرة ابن كاوان وهي لافت، وبها مدينة وجامع آهل. إلا أن ابن ماجد يعطي تفاصيل دقيقة عنها، ويقول: «جزيرة بني جاوان، تعرف بجزيرة برخت والقشم، لأن القشم محلة في رأس الجزيرة من المشارق والشمال، مما يلي هراميز. وهي معترج سلاطين هراميز. وبرخت متوسطة في الجزيرة، محلّة فيها النخيل والزرع والدواب. وفيها قريب خمس مائة حائك يحوكون الثياب الحرير. وفي رأسها من المغارب المباني، يسكنها العرب والعجم، وفيها خلق كثير، وفيها مراكب وزروع وبلدان بجميع دورتها. وهي جزيرة معترضة على البايقان في لشاتان».

---

(١) الاصطخري، ص ١٠٧ ـ ١٣٢، ياقوت، مجلد ٥، ص ٧ ـ ٨، ابن حوقل، ص ٢٣٨، الشريف الأدريسي، ص ٤١١، فوائد ابن ماجد، ص ٢٠٩. وكل ما عدا ذلك، فأخطاء نسخ وتصحيف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





شكل ٤ ـ جزيرة ايكارس أو فيلكة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د ـ ايكـــارس أو فيلكه[1]

١ ـ ايكارس تعني فيلكة

ذكرت جزيرة ايكارس في عدد من المصادر القديمة. فاريان يروي في مناقشته خطط الاسكندر بالنسبة إلى جزيرة العرب، ان الاسكندر أُخْبِرَ بوجود «عدة جزر قريبة من ساحل جزيرة العرب، تشمل جزيرتين في البحر قرب مصبّ نهر الفرات» (أناباسيس، ٧/ ٢٠/ ٢ ـ ٧). ويستأنف أريان كلامه، ويقول:

لا تبعد الجزيرة الأولى كثيراً عن مصبّه (أي مصب الفرات)، إذ تقع على مسافة مائة وعشرين ستاديوم عن الشاطىء، وعن مصبّ النهر، وهذه الجزيرة صغرى الاثنتين، تغطّيها كلها أشجار كثيفة. وفيها مقدس أرتميس، الذي يحيي فيه القاطنون حوله أنفسهم طقوس عبادة يومية. وترعى فيها الماعز الوحشية والمها، وكلها محمية ومكرّسة لأرتميس، ولا يسمح لإنسان أن يصيدها إلا إذا رغب بتضحيتها للآلهة: بهذه الحجة فقط يستطيع أي امرىء أن يصطادها، ولهذه الغاية، لا يحظر الصيد. وقد أمر الاسكندر، على حدّ قول أرستوبولس، بأن تسمى ايكارس باسم جزيرة ايكارس في بحر إيجه. .

ويرد في شهادة أندروستينس المبكّرة أيضاً، المحفوظة عند سترابون، ان من يبحر باتجاه الجنوب مقابل ساحل جزيرة العرب، منطلقاً من مصبّ نهر الفرات، «مع إبقاء البرّ على يمينه، يشاهد مباشرة، بعد تيريدون، جزيرة ايكارس، ومعبداً مكرّساً لأبولو فيها، ومهبط وحي [أرتميس] توروبولس» (جغرافية، ١٦/ ٣/ ٢). وترد إشارة موجزة إلى ايكارس أيضاً في عمل ديونيسيوس، كاتب القرن الثاني الميلادي، تتضمن ان «مذابح الإلهة توروبولس، تفوح منها رائحة اللحم المشوي الزكية، وتنفث دخاناً حرّيفاً» (بيري أجيسيس، ٦٠٨ ـ ٦١١). في النهاية، روى افينيوس ان السبئيين يحرقون البخور في ايكارس. وعلى وجه الإجمال، يكرّر مؤلفون أغارقة ولاتينيون آخرون تحدّثوا عن ايكارس، ما جاء عنها في المصادر التي استشهدنا بها.

ومثلما أبرز عدة آثاريين، فان جزيرة ايكارس في بحر إيجه مكرّسة للآلهة أرتميس توروبولس. لذلك، اقترحوا ان اكتشاف الأغارقة مَقْدَساً لإلهة شرقية يمكن أن تشبّه بأرتميس، يجوز أن يكون قد حثّ الاسكندر على تسمية جزيرة الخليج «ايكارس»

---

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، مجلد ٢، ص ١٧٩ ـ ١٩٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من جديد. من جهة ثانية، اقترح سال، أن نيارخس نفسه اكتشف فيلكة، وسماها ايكارس. لكن استبعد آثاريون آخرون هذه الإمكانية. وبصرف النظر عن تحديد أي اغريقي اطلق اسم ايكارس على فيلكة قبل غيره، ينبغي أن نتذكّر في الظاهر، مثلما أبان ج. تكسيدور (انظر الجزء الأول، الفصل ٩)، ان وجود معبد في فيلكة، معروف في المصادر الآشورية والآرامية باسم أي ـ كارا e-kare هو الذي دفع إلى اعتبار هذا الاسم مماثلاً للاسم الاغريقي إشارا Ichara (كما يسمي كلوديوس بطلميوس الجزيرة) أو إيكارس.

وبينما ظلّت النبذ اليونانية واللاتينية عن ايكارس سنين عديدة كافية لتوحي بأن هذه الجزيرة يجب أن تقع عند رأس الخليج العربي، فإن الدقة كانت تعوزها، فلا تسمح بالتعرّف عليها بلا التباس. وأثار تحديد موضعها الصحيح جدلاً هائلاً دام مدة طويلة. ويوجز الجدول التالي الاقتراحات التي قدّمها لفيف من الآثاريين البارزين خلال القرنين الماضيين:

ب. دانفيل (١٧٦٤) B.D'anville الخرج.
و. فنسنت (١٧٩٩) W.Vincent فيلكة= ايكارس. إحدى جزر البحرين= إشارا.
ج.م. مكد كينير (١٨١٣) J.McD. Kinneir الخرج.
أ.هـ.ل هيرن (١٨٢٤) A.H.L.Heeren بوبيان.
ج.س. بوكنغهام (١٨٢٩) J.S.Buckingham أُخَر / قارو.
س. فورستر (١٨٤٤) C. Forster أبو علي.
ك. ريتر (١٨٤٦) C.Ritter فيلكة.
ك. مولر (١٨٥٣) K.Muller فيلكة.
أ. سبرنجر (١٨٧٥) A.Sprenger أبو علي.
س.ب. ميلز (١٨٧٨) S.B.Miles أبو علي.
هـ.س. رولنسن (١٨٨٠) H.C.Rawlinson بوبيان.
هـ. كيبيرت (١٨٨٠) H.Kiepert فيلكة = ايكارس. أبو علي = إشارا.
أ. كلازر (١٨٩٠) E.Glaser شرارا = اشارة.
أ. دروين (١٨٩٠) E.Drouin بوبيان = إشارا.
النقيب أ.و. ستيف (١٨٩٧) Capt. A.W.Stiffe فيلكة.
ف.هـ. وايسباخ (١٩١٤) F.H.Weissbach فيلكة.
السيد والسيدة بنت (١٩٠٠) Mr and Mrs Bent فيلكة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج. تشاك (١٩١٤) J.Tkac كارو / قارو.
ف. ستارك (١٩٣٧) F.Stark فيلكة.
م. ن. تود (١٩٤٣) M.N.Tod فيلكة.
ج. ول. روبرت (١٩٤٤) J. and L. Robert فيلكة.
أ. البرختتسن (١٩٥٨) E.Albrechtsen فيلكة.
س. بيكار (١٩٥٨) C. Picard الخرج.
ر. غيرشمان (١٩٥٩) R.Ghirshman الخرج.

ويستحق العديد من هذه الاقتراحات تعليقاً موجزاً. فدانفيل اعتقد أن جزيرة الخرج احتفظت بكثير من الصفات المميّزة التي خصّ بها المؤرخون القدامى ايكارس. وسلّم بأنه جعل الخرج ايكارس على خارطاته، لكنه لم يتردد في التعبير عن شكّه في صحّة منحاه، لأن أرستوبولس روى أن ايكارس شائع أنها على يمين البحر جنوباً من شط العرب، وشوّشه بحق وقوع الخرج بوضوح على اليسار. وأفاد فأشار إلى وجود جزيرة صغيرة في شمالي الخليج تسمّى بيلوشه Peliche، أي فيلكة، إلا أنه استنتج أنها بعيدة جداً عن مصبّ الفرات، فلا يجوز أن تكون ايكارس القديمة. أما ج.س. بوكنغهام، فناقش مسألة ايكارس بعمق بالغ، واقترب أيضاً كثيراً من التعرف على الوجه الصحيح. وميّز الجزر الشمالية القصوى الثلاث الواقعة مقابل ساحل الكويت، وأبرز احتمال كون إحداها ايكارس: وهي موشن أي مسكن الحديثة، وبيلوشه أي فيلكة، وأُخَر أي قارو الحديثة. إلا أن التشابه الظاهر في لفظ أُخَر وايكارس مُضَلِّل. إضافة إلى ذلك قدم ج. تكاش مستقلاً طرحاً مماثلاً سنة ١٩١٤، واعتقد أن أمر الاسكندر بأن تسمى الجزيرة ايكارس مثّل محاولة استبدال الاسم المحلي الساميّ بلفظ إغريقي مجانس له.

وجعل ش. فورستر فيلكة في دراسته جغرافية جزيرة العرب التاريخية سنة ١٨٤٤، ابفانا، وهي جزيرة وصفها كلوديوس بطلميوس ووضعها عند رأس الخليج العربي. وبعد مضيّ ثلاثين عاماً، أتى سبرنجر، ففاته أن هـ.س. رولنسون ابان سنة١٨٥٧ أن ابفانا يمكن اعتبارها عبادان، حسب صيغة «أبّادان» الواردة عند الجغرافي القديم المتأخر مركيانس الهرقلي. ثم إن فورستر وسبرنجر وكيبيرت في وقت لاحق، اعتبروا كلهم ايكارس واشارا جزيرتين مختلفتين، بينما اعتبر معظم الآثاريين المعاصرين أنهما صيغتان إملائيتان لاسم واحد. وإذا أصاب ج. تكسيدور باشتقاقه اشارا من اي ـ كارا، عندئذٍ قد يجوز تأويل ايكارس صيغة معدّلة عن الأصل «المُؤغّرَق».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكن اختتام تذييل تاريخ محاولات التعريف بايكارس القديمة بإبراز اعتقاد فنسنت فيلكة ايكارس القديمة سنة ١٧٩٩، الذي لقي تأييداً لا لبس فيه سنة ١٩٦٠، عندما اكتشفت الحملة الدانماركية نقشاً مؤلفاً من ٤٤ سطراً موجهاً إلى أهالي ايكارس. ومنذ ذلك الوقت، توقّف النقاش الفكري، ولم يعد اعتبار ايكارس فيلكة الحديثة مشكوكاً فيه البتة من جديد.

٢ ـ نقوش فيلكة

(١) ـ نقش سوتيلس

ننتقل الآن إلى اللقى الأبيغرافية التي عثر عليها في فيلكة حتى هذا التاريخ، لأنها تتضمّن مفاتيح هامة لفهم طبيعة الاستيطان ووظيفته. وقطعاً تقريباً، يعتبر ما أطلق عليه اسم «نقش سوتيلس» أقدم اللقيتين الرئيستين، المكتشفتين سنة ١٩٣٧، وقد عرض هذا النقش في أعقاب ظهوره الأول، على فرايا ستارك، فصوّرته، وبعثت بنسخة منه إلى ب. اشمول. ووصلت الصورة في أواخر عام ١٩٣٨ إلى م.ن. تود، فنشر نبذة عنها بعد مضيّ خمسة أعوام. وكتبت ستارك في رسالتها إلى تود، وقالت: «كشف الحجر في أثناء حراثة الأرض، وأخذ من موقعه الأثري، الذي أُرِيْتُهُ، وبدا لي وكأنه يحتمل اكتشاف المزيد من اللقى فيه، إذا أُجْرِيَتْ حفريات فيه. وفي حدود معرفتي، يعدّ الوصف الوارد في كتابي الإحالة المنشورة الوحيدة إليه». إلا أن «الإحالة المنشورة» في كتاب ستارك، الموسوم «مخططات بغداد الإجمالية»، تتعلق «بنقش اكتشف منذ سنوات خلت، ونقلته البحرية الملكية إلى موقعي الدفن الأثريين سعد وسعيد»، اللذين يعتبران تلّي دفن رئيسين في فيلكة.

وفي سنة ١٩٤٧، حفظ هذا النقش في الوكالة السياسية في الكويت، ووصف ل. لوكهارت اكتشافه وصفاًمختلفاً نوعاً ما وقال: «في سنة ١٩٣٧، عثر على حجر، عليه نقش إغريقي، في جدار أحد المباني الصغيرة المشيدة بحجارة مشذّبة، قائم على بعد ٧٠٠ يردة جنوبي شرقي قرية الزور، الواقعة على ساحل فيلكة الشمالي الغربي، في أثناء هدم ذلك المبنى». من ناحية ثانية، أشار س. بيكار سنة ١٩٦١ إلى أن النقش عثر عليه قرب «التحصين الشمالي»، ويتفق هذا الوصف مع المعلومات التي أعطيت إلى الآثاريين الدانماركيين في بدء حملتهم. وقال ج.ف. سال بأن الحجر عثر عليه في تل خزنة.

وفيما يلي نص أحدث ترجمة لنقش سوتيلس، أجراها س.رويغي وس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شروين ـ هوايت: «سوتيلس/ نجل اثينييوس [أو سوتيلس ا اثينييوس «أو سوتيلس ا الأثيني»]/ او الجنود ا إلى زفس سوترا بوسيدون ا أرتميس ا سوتيرا». واعتقد تود أن مُكَرِّسَ هذا النقش، سوتيلس، كان أثينياً، تعذّر مع ذلك اعتباره أيّاً من الأشخاص الذين حملوا هذا الاسم في المصادر الابيغرافية أو الأدبية. ثم أعاد ج. مرسييه ـ جوبير فحص الحجر، فأثار مسألة ما إذا كان لفظ «أثينييوس» يعتبر أثينياً، كما افترض تود، أم اسماً يدل على النسب. ورفض رويشه وشروين ـ هوايت الأخذ بأي من الخيارين، وأضافا إمكانية ثالثة، هي وجوب فهم سوتيلس وأثينييس بأنهما مكرسان اثنان. ومهما كان الوضع، يتضح أن النقش تقديم شكر مثلما يبين من النعتين «مخلّص» Soter و«مخلّصة» Soteira، الموصوف بهما زفس وأرتميس. وكان المسافرون يسعون في الغالب لحماية الإله زفس، بينما كانت الإلهة أرتميس حامية الملاحة، ومعبودة في ايكارس، كما جاء عند أريان (أنابسيس ٧/ ٢٠/ ٣ ـ ٤). وحثّ ذكر بوسيدون (إله البحر) والعثور على النقش في جزيرة واقعة في الخليج العربي، تود على الاقتراح بأن النقش كان تعبيراً عن الشكر «على النجاة من أحد أخطار البحر، ربما من غرق حقيقي». واقترح م. لوني في وقت لاحق احتمال كون سوتيلس ضابطاً يقود فرقة جنود صغيرة، قدّم الحجر المنقوش إلى الإلهة التي سماها. مع ذلك، وفي وقت أحدث، ألحّ ف. بيبجكو، مع اعترافه بأن الإلهة أرتميس سوتيرا حامية الجنود، «على استحالة القول ما إذا كانوا يعبّرون عن تقوى مألوفة وعن مودّة خالصة بينهم، وافين شاكرين نذراً نذروه في أثناء رحلتهم الطويلة الخطرة، أم يحييون ذكرى نجاحهم في معركة في مهنة السلاح».

ويصعب تحديد تاريخ هذا النقش بطريقة دراسة الكتابات القديمة، ولو اعتبر القرن الرابع أو القرن الثالث الباكر أجدر بالقبول. فما دام هذا هو الوضع، يمكن تفسير نطاق النقش بعدد من التخمينات: فإذا أعيد تاريخ النقش إلى القرن الرابع الباكر ق.م أو إلى منتصفه، أمكن أن نعتبر أن جندياً مرتزقاً إغريقياً في خدمة أحد الأباطرة الأخمينيين، قد قام بتكريسه. وهنالك خيار آخر، إذ يحتمل إرجاع تاريخه إلى عهد الاسكندر نفسه. فقد اقترح تود أن ملاحاً، ضحية حادث غرق كتب النقش في أثناء إيابه من الهند في أسطول نيارخس أو أن النقش كتب من أجله. وأبرز تود وبيكار أن أريان قال في انابسيس ٦/١٩/٥ إن الاسكندر ضحّى لبوسيدون من أجل سلامة نيارخس وأسطوله بينما قال في ٨/٣٦/٣/٣ أنه ضحّى لزفس المخلص، وهرقليس، وأبولو، وبوسيدون، وجميع آلهة البحر. وقيل إن نيارخس ضحّى لزفس في أعقاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اجتماعه القصير بالاسكندر في كرمانية (٨/٣٦/٦). لكن لسنا متأكدين من أهمية التضحيتين لبوسيدون وزفس المخلص في نقش سوتيلس ورواية أريان عن رحلة نيارخس البحرية. ويحتمل أنهما كانا خيارين منطقيين لا ينبغي أن يرى الباحث بالضرورة أي صلة مباشرة بينهما في الحالتين.

والخيار الثالث، الذي تبناه لوكهارت، وهو أن البحارة الغرقى بقيادة سوتيلس اشتركوا في إحدى الحملات الثلاث التي بعث بها الاسكندر إلى الخليج العربي. أخيراً، اقترح ا. ألبرختسن احتمال كون ايكارس موقع المدينة التي أسسها الاسكندر في جزيرة العرب (انابسيس ٧/ ٣١/ ٧، كوينته كورتس، تاريخ الاسكندر، ١٠/ ٤/ ٣). في هذه الحالة، يحتمل أن يكون سوتيلس وجنوده بعض أفراد جيش الاسكندر الذين لم يعودوا قادرين على الخدمة في القوات المسلحة، «لطعنهم في السنّ أو لإصابتهم بجراح»، فاختاروا الانضمام إلى المستوطنة الجديدة. فإذا صحّ هذا الافتراض، سهل فهم تقديمهم نقشاً نذرياً لـ «مخلّصهم» و«مخلّصتهم». وبدا روشيه وشروين ـ هوايت حذرين في تحليلهما الإمكانيات السابقة، فأرّخا التكريس في فترة سبقت ملك أنطيوخس الثالث، لكنهما اعتقدا أنه قد ينشأ عن أي من الحملات التي أرسلها الاسكندر الكبير لاستكشاف جزيرة العرب، أو عن أي نشاط من أنشطة الاستيطان في عهد السلوقيين. واختتما كلامهما بالقول: «لعلّ أفضل تأويل احتمالاً. . . هو صدور النقش عن حامية سلوقية موضوعة في ايكارس في المرحلة الأولى من الاحتلال السلوقي».

(٢) ـ الترجمات الأولى لرسالة ايكاديون

وقد يكون نقش فيلكة الرئيس الثاني أحدث، في جوهره، من نقش سوتيلس. وهو نص يوناني مؤلف من أربعة وأربعين سطراً نُقِشَ على بلاطة (مسلّة) من حجر الكلس، طولها ١,١٦ م، يتراوح عرضها بين ٦١,٣ و ٦٢ سم وسماكتها ١٦ سم، عثر عليها، جنوبي المعبد مباشرة. وكانت حالة حفظها سيئة نوعاً ما عندما اكتشفت، أضيف إليها ما أصابها من تلف تدريجي خلال العقود الثلاثة الأخيرة، فأثارت قراءة نقشها جدلاً هائلاً. مع ذلك، ينبغي، قبل استعراض هذا النقاش، أن نبدأ بالحديث عن طبعته الأولى التي نشرها ك. جبّيسن سنة ١٩٦٠، لأن مطالعة النقش تمّت آنذاك في وقت كان وضعه فيه أفضل مما هو عليه الآن:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«من أناكسارخس إلى أهالي [ايكارس] سلام. فيما يلي [نقلنا لكم] نسخة من الرسالة [التي بعث بها] ايكاديون إلينا. وعندما [تصلكم] الرسالة، (٥)، انقشوها [على مسلّة]، وضعوا النقش في المَقْدَس. [السنة ٧٣]، اليوم ٧[٢] من ارثميسيوس. وداعاً».

«من ايكاديون إلى اناكسارخس. سلام. يهتمّ الملك بجزيرة ايكارس، [١٠] لأن أجداده وضعوا نصب أعينهم أن يكرّسوا... ويوافقوا على (المخططات الخاصة) بمَقْدَس الإلهة المخلّصة. وقد كتبوا إلى الضباط يطلبون (منهم) تنفيذها [؟]. إلا أن الضباط لم يفعلوا [؟]، إما لأنه لم يسمح لهم بذلك، [١٥]، أو لسبب (آخر). إلا أن الملك كتب لنا [فبادرنا] إلى العمل [؟]، وحدّدنا... القيام بألعاب رياضية، و[عيّنا عشرة كهنة]، متخذين إجراءات [٢٠] تتفق مع رغبات الملك وأجداده، وتناسب حرّاس المعبد (المقيمين) في الجزيرة، وسائر (الأهالي). [وسوف نقدم ضحا]يا على... المخلّص. و... الجزيرة وسوف [٢٥] يستوطنون [حول فناء] الأخير. لا يجوز لأحد على الإطلاق أن يتقدم إلى الأمام [؟]... لكن... سوف يهتم بأن السكان... ويحصل على إصلاح الأمر، عندما يسيؤون...، ولم يقصوا [٣٠] [؟]، [إذ ربما] أراد بعضهم أن [يستثمر] أرضاً في الجزيرة بحرث قطع بساتين وزرعها [لأنفسهم]، وهي مؤجرة وراثياً. سوف [تعطى ضمانة ضد الاستيلاء على الأملاك و] يمنح إعفاء من الضريبة بالنسبة ذاتها التي منحها [٣٥] أجداد الملك [لأي شخص] يذهب إلى الجزيرة والى [الجزء المقابل لها] من جزيرة العرب. لا تسمح، ولا [تتساهل] [بأي إعفاءات] أخرى، إذا [٤٠]... [يعطى الناس] ممن ركبوا السفينة [؟]... [احتكا] راً [؟]، لتحاشي [ارتكابهم ما ذكرنا] من إساءات. [سوف يتلقون] الرسالة [بالطريق المباشرة؟] وينقشونها [على مسلّة] في المقدس. السنة ٧٣، اليوم ١٧ من شهر أرتميسيوس. وداعاً».

في الأصل قرأ جبّيسن سنة تاريخ النقش ٧٣ حسب التقويم السلوقي، أي العام ٢٣٩ ق.م حسب تقويمنا، الذي يقع مدوّراً في وسط ملك سلوقس الثاني كلّينكس (٢٤٦ـ٢٢٦ ق.م). واقترح أن ايكاديون، المسمّى في النصّ، كان ايكاديوناً في أنطاكية، «نبيلاً من النبلاء أصحاب النفوذ... الذي أيّد دعوى الأميرة لاوديكي ونجلها سلوقس الثاني ضد برنيكي، زوجة أنطيوخس الثاني الثانية»، ويحتمل، في رأيه، أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ايكاديون منح مرزبانة خوزستان في أعوامه الأخيرة، مكافأة له على إخلاصه، وبالتالي قد يكون كتب رسالة إلى اناكسارخس بصفته مرزبانا، متجاوزاً تعليمات الملك. إذن ينطوي هذا التأويل على أن ايكارس دخلت ضمن حدود مرزبانة خوزستان.

- الطبعة الثانية للرسالة

وفحص د. فلير، ور. ستيهل نقش المسلّة ودقّقاه مجدداً سنة ١٩٦٤، فنشر ف. ألْتايم ور. ستيهل طبعة جديدة لنصّه، اقترحا فيها إعادة تاريخه إلى العام ١٤٥ حسب التقويم السلوقي، أي ١٦٧-١٦٦ ق.م. مع ذلك تعرّض إرجاعهما تاريخ النصّ إلى الملك انطيوخس الرابع، وعملياً، طبعتهم بأجمعها إلى هجوم قويّ بعد مرور عامين عليها، قام به ج.ول. روبرت، ولم ينظر إليها أبداً بجدّيّة.

- الطبعة الثالثة للرسالة

ومجدّداً عرض س. رويشه وس. شروين - هوايت قراءة تاريخ النص ١٠٩، حسب التقويم السلوقي، أي ٢٠٣ ق.م، وهذا يعني أن الملك المذكور في النص هو انطيوخس الثالث، مما يقتضي إهمال اعتبار جبّيسن ايكاديون نبيلاً أيّد سلوقس الثاني، ويرجع تاريخ النص إلى عهد حاكم تعرف جيداً حملته في رأس الخليج وأنشطته في بلاد بابل الجنوبية، على الأخص فيما يتعلّق «بمرزبانة البحر الأرثري». في هذه الحالة، قد تكون ايكارس قد شكّلت قسماً إدارياً في مرزبانة البحر الأرثري. فيقترح رويشه وشروين - هوايت أن ايكاديون يتولى منصب الرئاسة فيه، بينما كان اناكسارخس حاكمه (epistates) في ايكارس. واحتجّ رويشه وشروين - هوايت أن انطيوخس الثالث حاول إنجاز افتتاح جزيرة العرب الشرقية والتحكّم بالطرق التجارية إلى الهند وسبأ التي فاتت الاسكندر الكبير السيطرة عليها، واعتبرا أن تدخّله في شؤون ايكارس تمّ بعد مرور عامين على زيارته الجرعاء على ضوء هذه الأهداف.

ويقول الفقيد ج. مرسييه - جوبير أنه عندما قارن النصّ سنة ١٩٨٤، كان اسم الشهر وحده ما يزال مقروءاً في نقش ايكاديون. مع ذلك درس ف. بييجكو حديثاً النص، وأكّد أن الحرفين ما يزالان متميزين تماماً»، وأنه بالتالي لا يمكن أن يحدّد بلا شك معقول أن الحرفين الدالّين على التاريخ هما ΘΞ أي السنة ٦٩ حسب التقويم السلوقي، أي ٢٤٣ ق.م. واحتفظ بييجكو باعتبار جبّيسن الأصلي أن ايكاديون هو الشخص التاريخي المعروف أنه آزر سلوقس الثاني، إلا أنه فضّل أن يعدّه حاكم مرزبانة البحر الأرثري، خلافاً لاقتراح جبّيسن الذي افترض أن ايكاديون خدم مرزباناً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لخوزستان. وفي الأصل لخّص جبّيسن تأويله على الوجه التالي:

أراد أسلاف الملك تكريس مَقْدَس للإلهة المخلّصة، فكتبوا إلى ضبّاطهم بهذا الشأن، لكن لم يتم شيء، إما لأن الضبّاط «لم يكونوا مخوّلين» أو «لأي سبب آخر». مع ذلك، في أعقاب استلام ايكاديون رسالة الملك، بادر إلى العمل، وحدّد الألعاب الرياضية، وعيّن الكهنة (؟) لترتيبهم حسب رغبات الملك وأسلافه. ويفترض أن الألعاب المقصودة مرتبطة بتقديم الأضاحي والطقوس الأخرى التي تسبق تأسيس معبد المخلّصة. ويتناول السطر ٢٣ من الورقة بإيجاز ما يحتمل أن يكون جوانب خاصة من هذه الاحتفالات، ثم يليه السطر ٢٥ المتضمن مجموعة أوامر تتعلّق بحقوق «الناس»، يظنّ أنها صدرت خصّيصاً من أجل المشتركين بالأعياد الدينية. فيحمي بند السطر ٣٠ من الورقة واضعي اليد على الجزيرة من الورثة، من نزع يدهم (يمكن التقدير بأن الجزيرة كانت داخلة في «الأراضي الملكية» ΧΩΡΑ ΒΑΣΙΛΙΚΗ، وبأن أهالي ايكارس كانوا يكرهون واضعي اليد المقصودين، لأنهم كانوا يؤدون الريوع إلى الملك). وتتحدد امتيازات الزوّار الغرباء بألفاظ موجزة (سطر ٣٣ في الورقة)، وتدوّن بعض القيود (لحماية الاحتكار الملكي؟).

ونشر ج. ول روبرت تعليقاً موجزاً بعد مضي عام واحد اتفقا فيه على النقاط الرئيسة في تأويل جبّيسن، بينما أبرزا الصعوبات الهائلة التي يثيرها هذا النصّ. وبعد مرور عدة أعوام، عرضا هما بعض التعديلات، ورويا، اعتماداً على رسائل (معلومات) شخصية من جبّيسن، أن الكلمة المحفوظة في آخر السطر ينبغي أن تقرأ مقدس ἄσυλον. وهذا ما أيّده حديثاً ج. مرسييه ـ جوبير الذي اقترح «أن الجزيرة كرّست أرض مقدس».

وعلى الرغم من النقد القاسي الموجّه إلى طبعة أُلتايم ـ ستيهل للنقش، فإن ج.م. كوهين استعملها أساساً لنقاشه النص سنة ١٩٧٨، ولخّص آراءه على الوجه التالي:

قرّر الملك (لم يعطِ اسمه) نقل مقدس أرتميس المخلّصة (الإلهة المكرسة الجزيرة لها). بهذا الشأن، حذا حذو أسلافه الذين توخوا أيضاً تحويل الجزيرة إلى مقدس. وأرسل أسلافه تعليمات خطية إلى السلطات المعنية لنقل المقدس، لكن لم تعمل شيئاً البتة. يقول ايكاديون بأنه تلقّى أمراً مماثلاً من الملك، فنقل المقدس. علاوة على ذلك، تدبّر تنظيم صراع ἀγών ؟ رياضي، وسيّر عشرة كهنة، تلبية لرغبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملك وأسلافه πρόγονοι. ورتّب أيضاً تقديم أضاحي أمام مذبح ؟ زفس المخلّص من أجل حراس المعبد وسائر أهالي الجزيرة νεωκόροι. أخيراً، نظّم إعادة استيطان سكان الجزيرة في أراضي المعبد τέμενοσ. وحرص ايكاديون على وجوب المحافظة على رفاه الإيكاريين، ثم وعد في مقطع جزئي بضرورة منح بعض الأشخاص أرضاً لزراعتها ووضع اليد عليها وراثةً. إضافة إلى ذلك، وتنفيذاً لأمنية أسلاف الملك، وعد ايكاديون أن يعفي من الضرائب ἀτέλεια أولئك (الكهنة) الذين جاؤوا إلى الجزيرة. مع ذلك، أضاف بأنه سوف يصادرها إذا عادوا إلى البر الرئيس. وتختتم الوثيقة بتحذير الكهنة (؟) من إساءة استعمال سلطتهم. وفي النهاية أعطيت التعليمات لوضع الحجر (المسلّة) في الجزيرة.

(٣) ـ الترجمات الجديدة لرسالة ايكاديون

وأعيد فحص رسالة ايكاديون، فأصبح الآن لها عدة قراءات جديدة، عرضها رويشه وشروين ـ هوايت، وبييجكو. وعلى وجه الإجمال، تختلف جميع الترجمات الجديدة إلى حدّ كبير جداً عن الترجمات السابقة، حتى ليبدو ضرورياً استعراضها كلها كاملة هنا. ونبدأ بالنصّ الذي قوّمه رويشه وشروين هوايت.

ـ ترجمة رويشه وشروين ـ هوايت

(من) اناكسارخس [الى] أهالي ايكارس. كتبنا [لكم] نسخة من الرسالة [التي حرّرها] ايكاديون لنا. فمتى [تلقيتم] الرسالة، انقشو[ها على مسلّة و] ضعو[ها] في المعبد. [سنة ١٠٩]. شهر ارتميسيون ٧[٢]. وداعاً.

من ايكاديون إلى اناكسارخس، تحيات. يهتم الملك بجزيرة ايكارس لأن أسلافه πρόγονοι أيضاً كرّسوا الأرض وقرّروا نقل معبد الإلهة المخلّصة. وكتبوا إلى الموظفين الرسميين المكلفين بالإدارة [وأعطوهم تعليمات] لنقله. لكنهم [على الأرجح] لم ينقلوه، إما لأنهم منعوا أو في الواقع لسبب [آخر].. إلا أننا نقلنا[ه بسرعة] عندما كتب لنا الملك. وأقمنا [...]صراعاً، رياضياً و[ثقافياً]. راغبين تنفيذ سياسة الملك وأسلافه. أما فيما يتعلق بالناس المقيمين بالجزيرة ـ حراس المعبد νεωκόροι وسواهم ـ [...]؟ حوالي [...] الإله المخلّص، [؟] وأولئك [...؟ عندما] [؟ كانت ...] الجزيرة كانوا مضمومين إلى المستوطنة [...؟]، وينبغي عليهم ألا يتعدوا على هذا [...] بأي طريقة، بل يجب عليهم أن يتركوا وحدهم (...) لذلك، اهتموا [ليضمنوا] حصول الناس على حقوقهم وعدم إلحاق الأذى بهم [من قبل أي

إنسان] أو تهجيرهم. [وإذا رغب] بعضهم (بكسب ملكية) في الجزيرة، عيّنوا الأرض (التي سوف يمتلكونها) بوضع اليد وراثة، عندما يكونون قد حرثوها وزرعو[ها]. واجعلو[هم أيضاً] يتمتعون بالإعفاء من الضريبة تماماً مثلما منحهم [؟] إياه أسلاف [الملك] [من أجل أي من الأصناف] التي يصدرونها إلى الجزيرة. لكن لا تسمحوا [لأيّ كان] بتصدير الذرة الصفراء (و) أيّ شيء آخر [الى منطقة جزيرة العر]ب. إذا [من...] ما هو متوجّب [؟...] المبيعات، لكي لا يقعوا [في رخاء زائف... مُرُو](هم) إذن أن ينقشوا [هذه] الرسالة، ويضعوها في المعبد. (السنة) ١٠٩، شهر ارتميسيوس ١٧. وداعاً.

- ترجمة بييجكو

نصل الآن إلى أجدّ ترجمة لرسالة ايكاديون، قام بها بييجكو، واعتمد في أدائها على الصور، وعلى صورة طبق الأصل أجراها جبّيسن. قرأ بييجكو الرسالة على النحو التالي:

من اناكسارخس إلى أهالي ايكارس، تحيات. ربطاً، نرسل لكم نسخة عن الرسالة التي أعطانا إياها ايكاديون. فعندما تصلكم هذه الرسالة، انقشوها على مسلّة واعرضوها في المقدس. السنة ٦٩، اليوم ٢٧ من شهر ارتميسيوس. وداعاً.

من ايكاديون إلى اناكسارخس، تحيات. يهتم الملك بأرض جزيرة ايكارس لأن أسلافه درجوا على تكريس مقدس فيها، وأرادوا نقل معبد المخلِّصة، وكتبوا [فعلاً] إلى الموظفين الرسميين القائمين على العمل أن ينقلوه. لكن لم يفعلوا إما لأن المهمة تتجاوز قدرتهم (مهارتهم) على تنفيذها، أو لأيّ سبب آخر. (والآن)، ما دام الملك قد كتب لنا، فقد بادرنا بسرعة لإجراء النقل، ورصدنا مالاً لإقامة مباراة رياضية، وأرسلنا الأوامر لتنفيذ كل شيء حسب رغبات الملك وأسلافه.

(وكتب الملك لنا أيضاً) بشأن حراس المعبد الذين ما زالوا مقيمين فيه، وبخصوص الآخرين الذين يجب إعادة توطينهم (لأن الجزيرة جيدة) فاهتموا أنتم بهذه الأمور. فلا يجوز أن يلحق أي أذى بأي منهم بأي طريقة، لكن ينبغي أن ينتبه الذين يوقّعون عقود جمع ضرائب ألا يحاولوا اللجوء إلى طرق ملتوية لتأمين مصلحتهم الشخصية، ويجب أن يتمتع الناس بحقوقهم، وألا يزعجهم أحد، ولا يمكن تهجيرهم. وإذا رغب أحد منهم أن يحرث أرضاً في الجزيرة، عيّنوا لهم حقولاً شغلوها وزرعوها ليتمكنوا من وضع اليد عليها على أساس وراثي. وليتمتّعوا أيضاً بإعفاء من الضريبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(تماماً) مثلما منحه لهم أسلاف الملك ولمن يصدر إلى الجزيرة. ولا تسمحوا لأحد أن يجمع ضريبة على التصدير إلى البر الرئيس المجاور من شبه جزيرة العرب، ولا شيء آخر، إذ إنهم معفون من جميع الضرائب على جميع محاصيلهم الخاصة، خشية أن يتعرّض من لا يطيع إلى فرض رسوم عليه. إذن وجّهوهم ليضعوا هذه الرسالة في المعبد منقوشة على مسلّة وتأكدوا من منحهم الإعفاء من الضريبة. السنة ٦٩. اليوم ١٧ من شهر ارتميسيوس. وداعاً.

(٤) ـ تحليل رسالة ايكاديون

وقد يفيد في مقاربة مضامين هذه الرسالة، أن نحللها مقطعاً مقطعاً:

ـ الأسطر ١ ـ ٦: يخاطب أناكسارخس الايكارسيين، ويرسل لهم نسخة عن رسالة ايكاديون، ويأمر بنقش صيغة لها ووضعها في المعبد متى وصلتهم.

ـ الأسطر ٧ ـ ١٩: يشرح ايكاديون لاناكسارخس أسباب كتابته له: فقد فعل لأن الملك عبّر عن اهتمامه بمعبد الإلهة المخلّصة. وقد أمر أسلاف الملك πρόγονοι موظفي المعبد الرسميين بنقل المَقْدس، إلا أن النقل لم يتمّ أبداً لسبب ما. مع ذلك، نقل ايكاديون الآن المعبد بأمر من الملك القائم، وأضاف إقامة ألعاب أو تأمين أموال لها، فلبّى رغبات الملك وأسلافه.

ـ الأسطر ٢٠ ـ ٤١: يعطي ايكاديون مجموعة تعليمات تتعلق برفاه الايكارسيين. فحراس المعبد (νεωκόροι) لا يجوز لهم إيذاء القدامى (؟). وينبغي احترام حقوق الناس، ولا يجوز لا إيذاؤهم ولا تهجيرهم. ومن يرغب منهم بالحصول على أرض، يجب أن تعطى له قطعة، إذا زرعت جاز لهم امتلاكها بحق الوراثة. وكما كانت الحال في زمن أسلاف الملك، ينبغي منح الايكارسيين اعفاءات من الضرائب لكن لا يجوز لهؤلاء إساءة استعمالها.

ـ الأسطر ٤١ ـ ٤٤: على اناكسارخس أن يصدر أمراً بنقش الرسالة على مسلّة ووضعه في المعبد. التاريخ والتحيات.

وقد اهتمت أبكر أبحاث هذا النص، التي قام بها جبّيسن وألثايم وستيهل وكوهين، اهتماماً خاصاً بالقضايا الدينية الواردة في بداية الرسالة. وجاءت فيها إحالات إلى «الإلهة المخلّصة» و«الإله المخلّص»، على ضوء نقش سوتيلس وأضاحي الاسكندر ونيارخس المناقشة من قبل. وعبّر الملك عن اهتمامه الأول بنقل مقدس

الإلهة المخلّصة الذي صدر أمر بتنفيذه في وقت ما في الماضي، لكنه لم يتم أبداً. وينساق الباحث مباشرة إلى التساؤل عما اقتضى تبديل موضع مقدس الإلهة المخلّصة؟ بهذا الشأن يصعب عليه أن يتحاشى التفكير بالمقدس ب ٦ الواقع على طرف ساحل فيلكة الجنوبي، المناقش من قبل. فقد استعيد هناك مذبح مقدّم نذراً مع النقش الإغريقي: «لإنقاذ ثيوكودرس. . . ـ ولارتميس». وأثار المنقبون أرجحية وقوع خط الشاطىء أبعد من ذلك في العصور القديمة، لكن لا يمكن بالتأكيد أن يقال بأن قرب المقدس الخطر من الماء قضى بنقله إلى موضع آخر آمن.

وتذكّر الإحالة المشوّشة في رسالة ايكاديون إلى السكان المقيمين حول فناء (؟) الإله المخلّص (= زفس المخلّص)، بالمنازل المكتظة حول معبدين واقعين ضمن القلعة ف ٥. وقد اختفى ذكر موظفي المعبد المذكورين في قراءات جبّيسن وألثايم وستيهل. وقام ج. مرسييه ـ جوبير حديثاً بمقارنة نص النقش، فتساءل عن قراءة الـ «عشرة كهنة» التي اقترحها جبّيسن، وعرض بالأحرى أن المقطع المقصود يتعلق بعشرة حيوانات معدّة للتضحية. مع ذلك تجاهل رويشه وشروين ـ هوايت أي قراءة من هذا النوع في الأسطر ١٧ ـ ١٩، مثلما فعل بييجكو.

إلا أن النصف الثاني من الرسالة أدْعى إلى الحيرة من وجوه عديدة، مهما كانت صعوبته. فالإجراءات المتخذة لحماية حقوق السكان، ليتسنى لهم زراعة الأرض واكتساب سندات تمليك وراثية، ولإعفائهم من أداء الضرائب على بعض السلع المصدرة. تمثّل جوانب من السياسة السلوقية لتشجيع الاستيطان الاستعماري ولحماية ضعف اقتصاديات المستعمرات. مع ذلك ألحّ شروين ـ هوايت على أن هذا الاستيطان الشرقي الإغريقي لم يشكل مدينة πόλισ مكتملة التكوين.

وهنالك تلميح أخير في النص يستحق أيضاً تعليقاً موجزاً: نعني الإحالة إلى شبه جزيرة العرب. وتوحي بيّنة العملة والفخار التي عرضناها من قبل بوجود صلات بين فيلكة وبين بر العرب الرئيس. وفي بر الكويت الرئيس ذاته، لم تحدد حتى الآن استكشافات أثرية أخرى مواقع أثرية معاصرة للاستيطان الهلنستي في ايكارس. إلا أن نبذة حفظها ج.ج. لوريمر توحي بأنها كانت موجودة قديماً. ففي مطلع القرن، سجّل لوريمر وجود قبور دفن مبطّنة بالجص على بر الكويت الرئيس، تشبه كثيراً، حسب وصفه، قبور العصر الهلنستي في جانوسان في البحرين وفي ثاج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥) ـ نصوص إضافية قصيرة

وعثر في فيلكة أيضاً على عدة نقوش قصيرة أو جزئية إضافية. وقد ظنّ جبّيسن أن كسرة من حجر منقوش وضّحها بلا تعليق، آتية من مذبح أقامه بعض الجنود أو البحارة. واكتنف بعض التشويش تحديد بلد منشأ المكرّسين الذي حققه جبّيسن أنه «من الهند». واعتبر ألتايم وستيهل هذا التحقيق غير أكيد. وعبّر كوهين عن تحفظات مماثلة، وأبرز أنه «حتى لو كانت القراءة واضحة، ما نزال غير واثقين من أننا نتعامل مع محاربين قدماء من حملة الاسكندر الهندية أو (حملة) أنطيوخس الثالث». مع ذلك، لم يتردد واقترح أن هذا النص القصير، شأنه شأن نقش سوتيلس، ينبغي أن يعاد تاريخه إلى ما قبل نص ايكاديون، وأن الجماعتين المذكورتين فيهما يحتمل أن تكونا وحدتين من الجيش الذي ضمّ جزءاً من المستعمرة الأصلية في فيلكة أو كلها.

وفي وقت لاحق أحدث، اقترح مرسيليه ـ جوبير تقويماً مختلفاً أيضاً. فعوضاً عن الهند، قرأ «من ايكارس». وعلى هذا الأساس يحتمل أن يصبح البحارة أو الجنود الذين كرّسوا المذبح ببساطة أغارقة عائشين على الجزيرة. وقدّم رويشه وشروين ـ هوايت الاقتراح ذاته أيضاً، وعرضا الترجمة التالية ودمجا التقويم: «الى الالهة أهالي ايكارس كرّسوا المذبح». ووصل بييجكو إلى تقويم مماثل لاسم ايكارس كمنشأ المكرّسين. إلا أنهما اختلفا عن كوهين الذي يحتمل أن يرجع تاريخ تكريس المذبح إلى عهد سلوقس الثاني، فيجعله إما معاصراً أو واقعاً بضع سنوات بعد رسالة ايكاديون.

في النهاية، أضافت التنقيبات الفرنسية الحديثة عدة نقوش جدارية إلى مجموعة نقوش ايكارس، تتضمن ثلاث كسر منقوشة، تحوي اثنتان منها أجزاءاً من بعض أسماء العلم. وتحمل كسرة مأخوذة من تل خزنة نقشاً يحيي ذكرى أضحية قدّمها عدد من الناس يضمّون موظفاً (ἡγεμών) ينتهي اسمه بـ «تلس» والأرجح ألا يكون سوتلس ولو كان التاريخ المعروض على أساس الكتابة القديمة في القرن الثالث المتأخر أو القرن الثاني ق.م، صحيحاً.

٣ ـ آثار نقوش عربية جنوبية عن فيلكة

ويحتمل أن تجد الإحالة عند افيينوس إلى السبئيين الذين يحرقون البخور في ايكارس، انعكاساً لها في شظيتي حجرين منقوشين اكتشفتا حديثاً. ومع أن إحدى الشظيتين لا تحمل سوى جزء مما يبدو كأنه أَلِفٌ عربية جنوبية، وتحوي الشظية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخرى ثلاث إشارات قيمتها غير أكيدة، إلا أن هذين الاكتشافين هامّان في نطاق انتشار الأبجدية العربية الجنوبية في جزيرة العرب الشرقية خلال القرنين الثالث والثاني ق.م. وعندما نتذكّر أن نقوشاً أحسائية عديدة مكتوبة بأحرف عربية جنوبية، عرفت في المنطقة الشرقية من العربية السعودية، وحتى في أرك (الوركاء)، عندئذ يجب ألا نفاجأ بالعثور على الأبجدية ذاتها، إن لم يكن بالضرورة على لغة محلية بالذات مستعملة بين بعض الأهالي من سكان فيلكة غير الأغارقة.

* * *

موقع ايكارس ملائم في رأس الخليج العربي؛ فالسفن المتنقّلة بين سوسه وسلوقية دجلة، أو أنطاكية خاركس، والمناطق الدنيا من الخليج وحتى الهند، تستطيع أن تمرّ بها بسهولة. وهذا الوضع واضح جداً من العملات والخزفيات التي عثر عليها في الجزيرة، التي تعكس وجود صلات بخوزستان وبلاد بابل والبحرين وجزيرة العرب الشرقية، والساحل الجنوبي من الخليج. وعندما اكتشف الأغارقة ايكارس، كان فيها سكان محليون، يتكلمون اللغة الآرامية، وعندما وضعت فيها حامية سلوقية صغيرة، ربّما في القرن الثالث الباكر ق.م بدا أن العنصرين البشريين تعايشا جنباً إلى جنب مثلما يبين من الخليط الكامل للفخاريات المنتجة محلياً والمستوردة، مع التراكوتات الشرقية والإغريقية.

وقد اعتقد أو. موركهولم الراحل «أن الاستيطان السلوقي في فيلكة كان على الأرجح مركزاً بحرياً». وهذا طرح أحياه حديثاً ج.ف. سال، الذي اقترح أن تأسيس الاستيطان وزواله المفترض ارتبطا ارتباطاً مباشراً بإنشاء البحرية السلوقية في الخليج وزوالها فيما يظن. مع ذلك ألحّ طلاب التحصينات الهلنستية على ضعف طبيعة قلعة فيلكة، واقترحوا أن وظيفتها الأولى يحتمل أن تكون مسورة المعابد بداخلها، لا الدفاع.

وبينما لا يستحيل أن تكون فيلكة قد لعبت دوراً في تموين السفن السلوقية، يبدو أن دور الاستيطان الهلنستي كان أكثر من تأمين مستودع تخزين، مثلما يثبت من تعليمات رسالة ايكاديون بشأن زراعة الأرض ووراثتها ومنح الإعفاءات من الضريبة. مع ذلك يحتمل جداً أن يكون الاستيطان الأوليّ قد أصيب بانحطاط التفوّق السلوقي في المشرق. في هذه الحالة، قد تعكس فترة الإعمار الثانية أو ضعف ظهورها، مع فخارها ب ١ استعمالاً فرثياً و/ أو خاراسينياً للقلعة أقل كثافة بكثير. ومع مرور الزمن،

يحتمل أن يكون العنصر الاثني الإغريقي في الجزيرة، قد تزاوج إلى حد كبير مع السكان المحليين، حتى لم يعد بالإمكان تمييزه عنهم. من جهة ثانية، تثبت النقوش الإغريقية العائدة إلى القرون الأولى ق.م وبعده، التي عثر عليها في سوسه طول استعمال اللغة اليونانية والمؤسسات اليونانية في فيلكة بعد استلام الفرثيين السلطة.

هـ ـ البحـــريـــن

البحرين أرخبيل يحمل أيضاً اسم أوال. ويهمنا الآن أوضاعه في القرون الوسطى فقط. وأوال أكبر جزر هذا الأرخبيل. وفيها قرى كثيرة، وعيون جارية طعم مائها مالح قليلاً، لكنه يساعد على نمو نخيل يعطي تموراً متنوعة. وفيها رمان ودراق وليمون حامض وتين وبقول. وتربى فيها الخيول والإبل والأبقار والأغنام. وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير. وسكان مدينة البحرين عرب، ولها المظهر المألوف للتجمعات البشرية المدينية في المنطقة العربية، أي دور شاهقة، لها أجهزة تهوية، وسقوفها مسطحة، ونوافذها موشّعة بالحديد. وفيها قصر ملكي، كبير وفخم، يذكّر بقصر هرمز الجديدة. ولا تعطي المصادر البرتغالية تفاصيل دقيقة عن طبوغرافية هذه المدينة وما يجاورها. وجزيرة أوال منخفضة ورطبة، ومناخها وبيء، خاصة من آخر شهر أيلول إلى شهر شباط، عل حدّ قول باروس. ويذهب الأثرياء في هذه الفترة من السنة إلى القطيف وإلى واحات الاحساء ويقيمون فيها.

والمصنفّون الذين يتحدّثون عن البحرين كثر. منهم الشريف الأدريسي وأحمد بن ماجد، فالشريف الأدرسي[1] يعدد مدن البحرين ويقول إنها هجر وحمص والقطيف والاحساء وبيشة والزارة والخطّ التي تنسب إليها الرماح الخطية (ويشبه تعداده تعداد ياقوت الحموي[2]). وهي ستة أميال طولاً وستة أميال عرضاً. ومنها إلى البصرة خمسماية ميل وأربعون ميلاً ومن جزيرة أوال إلى جزيرة خارك مائتان وأربعون ميلاً. وجزيرة خارك ثلاثة أميال في ثلاثة أميال، وبها زروع وأرز كثير وكروم ونخل، وهي جزيرة حسنة كثيرة الأعشاب خصيبة.

وجزيرة أوال جزيرة حسنة، بها مدينة كبيرة تسمى البحرين، وهي عامرة حسنة خصيبة كثيرة الزروع والنخل، وفيها عيون ماء كثيرة. ومياهها عذبة، منها عين تسمى عين بو زيدان، ومنها عين مريغلة، ومنها عين غذار. وكلها وسط البلد. وفي هذه

---

(١) نزهة المشتاق، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) معجم البلدان، مجلد ١، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العيون مياه كثيرة، نابعة مترعة دفاعة، تطحن عليها الأرحاء، فالعين المساة عين غذار فيها عجب لمبصرها، وذلك أنها عين كبيرة قدراً، مستديرة الفم في عرض ستين شبراً. والماء يخرج منها، وعمقها يشف على خمسين قامة. وقد وزن المهندسون وحذّاق العلماء علو فمها، فوجدوه مساوياً لسطح البحر. وعامة أهل البلاد التي في هذه الجهة يزعمون أنها متصلة بالبحر. ولا اختلاف بينهم في ذلك وهذا غلط ومحال، لا يشكّ فيه لأن العين ماؤها حلو عذب لذيذ شهيّ بارد وماء البحر حارّ زعاق. ولو كانت كما زعموا لكان ماؤها ملحاً كماء البحر. وفي هذه الجزيرة رؤساء الغواصين في البحر ساكنون في هذه المدينة. والتجار يقصدون إليها بأسوام أجر معلومة.

وفي هذه الجزيرة أمير قائم بنفسه. وقد رضيه أهل الساحلين لعدله ومتانة دينه. ولا يلي مكانه إذا مات، إلا من هو مثله في العدل والقيام بالحق.

هذه خلاصة ما قاله الأدريسي. أما معلومات أحمد بن ماجد، فأدقّ وأوفى. حيث يقول «جزيرتان وخيمتان، أحداهما بأقصى الجنوب، وهي هذه الجزيرة (يقصد زنجبار) والأخرى بأقصى الشمال وهي البحرين المسماة بأوال، خصوصاً عند نزول الشمس برج الميزان. يبتدىء فيها الحمى والوعك عند إصفرار الترنج... وفيها ثلاث مائة وستون قرية. وفيها الماء الحالي من جملة نواحيها. وأعجب ما فيها مكان يقال له القصاصير. يغوص الإنسان في البحر المالح (بالقربة)، ويملؤها من الماء الحالي، وهو غرقان في الماء المالح. قوله تعالى: ﴿هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج﴾، لأنه مختلط، المالح من فوق والحالي من تحت. وهو على ثلاث قامات رجال طوال أو ثلاثة أبواع المالح، والحالي من تحت. وحولها معادن اللؤلؤ، تأوى إليها مراكب كبيرة نحو ألف مركب.

وفيها جملة قبائل من العرب، وجملة تجار. وفيها كثير من النخيل المثمرات، اللواتي تضرب بها الأوصاف والأمثال. وفيها الخيل والإبل والبقر والأغنام. وفيها عيون جارية. وفيها رمان وتين وزيتون وترنج وليم. وهي غاية في العمارة. وهي في تاريخ الكتاب، لأجود بن زامل بن حسين العامري، أعطاه إياها هي والقطيف السلطان سغلر بن توران شاه على أن يقوم بنصرته على إخوته، ويملكه جزيرة هرموز المتقدم ذكرها. وكتب بها عليه حجة، واستثنى بعض بساتينها. ففعل له ذلك، وقام بنصره، وملكه هرموز، وأخذ القطيف والبحرين في عام ثمانين وثمانماية (= ١٤٧٥م). وقد أخذ ولده، سيف بن زامل، عُمان من نبهان بالسيف على سليمان بن سليمان بن نبهان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في عام ٨٩٣هـ، وولّى عليها إماماً من الإباضية، يدفع له محاصيلها. وقد نصره أهلها، وقاموا بنصره، فهدم حصونها، وأمّر عليهم عمر بن الخطاب الإباضي»[١].

و ـ الجزر الصغيرة قرب ساحل الخليج الشرقي بين بوشهر وقيس

وتتوالى جزر خارك وقيس والبحرين والقشم من أقصى شمالي الخليج العربي إلى مشارف جزيرة جرون، مركز سلطنة هرمز الرئيس. وقد ورد صراحة في كتاب دوارته بربوسه أن سلطنة هرمز تمتلكها، وتمتلك عدداً كبيراً من الجزيرات الصغيرة الأخرى، المأهولة أو الخالية من السكان. ولم يفت ابن ماجد أن يستعرضها جميعاً، الكبيرة منها والصغيرة، العامرة منها أو الغامرة، البعيدة أو القريبة منها. إلا أن ابن ماجد أدق من بربوسه، والأسماء عنده أصحّ، بينما يكتنف شيء من الغموض والتشويش والتشويه معطيات بربوسه.

وبهذا الشأن، جاء حرفياً في الجزء الأول من كتاب بربوسه[٢]: «تقع الجزيرة الحالية التي تقوم عليها مدينة هرمز الجديدة بين ساحلي جزيرة العرب وكرمان، عند مدخل الخليج العربي الذي تتوزع فيه جزر كثيرة يمتلكها سلطان هرمز ويحكمها. وهي التالية: أولاً القشم، الجزيرة الكبيرة الخصبة التي تصدّر إلى هرمز الجديدة الكثير من الفواكه الطازجة والخضار، وفيها قرى كبيرة. ثم تأتي جزيرة اسمها هندرابي وبوشير، تليهما لارك وطنب وفرور. وتجيء بعد فرور جزيرة كبيرة تسمى البحرين، يقيم فيها كثير من التجار والأثرياء. وموقع هذه الجزيرة ممتاز في وسط الخليج العربي، فتقصدها مراكب عديدة محمّلة بشتى السلع. وتقع حولها مغاصات لؤلؤ جيد كبير وصغير. ويتولى تجار البحرين أنفسهم صيد لآلئهم، ويجنون أرباحاً طائلة. ويحصل سلطان هرمز على موارد كبيرة ورسوم من هذا النشاط البحري. ويذهب تجار هرمز الجديدة إلى البحرين ويشترون تلك اللآلىء، ويصدرونها إلى الهند، ويجنون أرباحاً ضخمة».

مهما يكن، تشاهد مجموعتان من الجزر الصغيرة نسبياً مقابل ساحل فارس بين بوشهر وجزيرة قيس:

١ ـ المجموعة الأولى جزيرة نخيلوه وجزيرتا أم الكرم. فجزيرة نخيلوه متطاولة

---

(١) كتاب الفوائد، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

(٢) ص ٧٩ ومايليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(حوالي ١٠ كم × ١ كم). وأم الكرم جزيرتان، إحداهما جنوبي نخيلوه والأخرى شرقيها. وتبعد نخيلوه ١٠ كم عن الساحل تقريباً.

٢ ـ المجموعة الثانية جزر لار وشتوار وهندرابي. وجزيرة لار متطاولة أيضاً (١٣ ميلاً × ٥,٢ ميل)، ودورها اثنا عشر فرسخاً حسب معجم البلدان، فيها غير قرية، وفيها مغاص لؤلؤ. ويبعد طرفها الجنوبي ١١ كم عن الساحل، و ١٥١ كم عن بندر نخيلوه الواقع في الجهة الشرقية على الشاطىء، و ٢٤ كم عن جزيرة هندرابي. وشتوار جزيرة صغيرة جداً قريبة كثيراً من جزيرة لار.

وقد مرّ نيارخس، أمير بحر اسكندر المقدوني، بجزيرة لار دون أن يسميها. ودعاها بطلميوس سوبسذا (Σωφδα). وعرفت عند الساميين باسم جزيرة الاشنيات. وسماها ابن خرداذبه جزيرة ألار. ودعاها البرتغاليون لاذاو، نسبة إلى قرية لاذ، الواقعة على طرفها الشرقي. وتبعد جزيرة هندرابي ٥ كم عن بندر جيرو على البر، و ٢٨ كم عن جزيرة قيس.

ويشيد ابن ماجد بهذه المجموعة من الجزر ويقول عنها:

لار وشتـــــوار وهنـــــدرابـــــي   وقيــس مــع فــرور يــا أصحــابــي
هـــم جـــزر بقـــرب بـــرّ العجـــم   مقـــدار فـــرسخيـــن يـــا معلـــم
وكـــل هـــذه الجـــزر فيهـــا النـــاس   والمـــاء والبنـــدر والاينـــاس
ولار بـــرّ العجـــم مقـــابلـــه   بنـــدر نخيلـــوه لهـــا مـــواصلـــه

ز ـ الجزر الموزعة في اليم بين شبه جزيرة قطر ومدخل الخليج العربي

وهنالك جزر كثيرة موزعة في أرجاء الخليج العربي بين درجة طول ٥١ شرقية (شبه جزيرة قطر) وبين درجة طول ٥٦ شرقية (مدخل الخليج). وهي متباعدة نسبياً أحياناً ومتقاربة أحياناً أخرى، تؤلف نتوآت صخرية متجمعة فيما يشبه الأرخبيلات ـ تجاوزاً ـ الخالية من السكان، أهمها وأشهرها: جزيرتا فرور الكبرى والصغرى، وجزيرة صرّي، وجزيرة أبو موسى، وجزيرتا طنب الكبرى والصغرى، وجزيرة هنجام، وجزيرة لارك (لار الصغرى)، وجزيرة سلامة وجزيرة الغنم.

وبعض هذه الجزر مسكون، مثل فرور الكبرى والصغرى، وبعضها غير مسكون وتقع أربعة منها في الباحة، والباقية قريبة من البر أو من جزيرة القشم. ففرور الكبرى تبعد عن البر ٢٩ كم، وجزيرة هنجام ملاصقة تقريباً لجنوبي جزيرة القشم. وجزيرتا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغنم وسلامة قريبتان من رأس مسندم. وجزيرة لارك قريبة من جرون (١٨ كم) ومن رأس قشم الشرقي (١٥ كم).

وتعطى أهمية كبرى لجزيرتي طنب الكبرى والصغرى وجزيرة أبو موسى. وهذه الجزر، كغيرها من الجزر الصغار الخليجية، لها أهمية استراتيجية اقليمية ودولية، وأهمية محلية ـ نحن في القرون الوسطى ـ باعتبارها مطارح ترسو فيها السفن عند تنقلها بين هذه الجزر، أو بين الساحلين الغربي والشرقي، وباعتبارها مراعي كانت القطعان العربية تستفيد منها، وهذا جانب واحد من قيمتها الاقتصادية التي لا بدّ من إبراز قيمها الأخرى، نقصد صيد السمك واللؤلؤ قديماً والنفط حديثاً. وما نوّد تسليط الأنوار عليه هو حق العرب التاريخي الثابت بهذه الجزر وبغيرها أيضاً. وسلطنة هرمز حجة تاريخية لا تدحض، لأنها واقع دام ستة قرون.

ونذكر فيما يتعلق بموقع هذه الجزر:

١ ـ أن جزيرة هنجام تبعد ٩٥ كم عن رأس الخيمة، و ٥٤ كم عن طنب الكبرى.

٢ ـ وأن جزيرة طنب الكبرى تبعد ٢٩ كم عن طرف قشم الغربي، و ٧٢ كم عن رأس الخيمة، و ٤٤ كم عن جزيرة أبو موسى.

٣ ـ وأن جزيرة صرّي تبعد ١١٠ كم عن الشارقة.

ثالثاً ـ أراضي سلطنة هرمز على الساحل الغربي في الخليج العربي

وقد دخل كل الساحل العربي في الخليج ضمن سلطنة هرمز، من الأحساء شمالاً إلى رأس مسندم جنوباً. إلا أن بعض الساحل العربي، لا عمارة فيه أي ليس فيه حصن أو مدينة، بل اخصاص لقوم من العرب المتنقلين. في النهاية، أصبح لسلطنة هرمز على الساحل العربي مقاطعتان حضريتان هامتان بالنسبة إلى هذه الدولة، هما مقاطعة القطيف وما يجاورها، ومقاطعة جلفار وما يتبعها.

آ ـ القطيف وما يجاورها

فالقطيف ميناء يقع على منتصف ساحل الخليج العربي الغربي، على جون يحمل اسمه. ينفتح شرقاً انفتاحاً سعته أربعة أميال، وينغلق شمالاً بلسان أرضي ضيّق، تدعى نهايته رأس التنّورة، وعليه حصن دارم، ويبرز في جنوبه لسان أرضي آخر يسمى الظهران، وعليه تحصينات الدمام.

وتقع جزيرة تاروت مقابل مدخل جون القطيف، ويبلغ طولها مسيرة أربع

ساعات من شمالها إلى جنوبها، وهي مروية جيداً، ومزروعة نخيل. ويواجه بندر القطيف جزيرة تاروت من موقعه على البر الرئيس. وأفضل طريق بحرية للوصول إليه منها وآمنها، الممر الشمالي العميق، المحصور بين تاروت ورأس التنّورة. أما الطريق الجنوبية، فضحلة وصعبة. وعمق البحر ضعيف جداً في جميع أنحاء جون القطيف تقريباً، فلا تغمره المياه بكامله إلا في أثناء المدّ العالي. وعندما يحصل الجزر، تظهر حبال رملية عديدة وجزيرات صغيرة وأرقاق ونباتات بحرية، تنساب بينها أقنية ضيقة متعرجة. وينبسط شاطىء البر حول الجون انبساطاً كبيراً يجعل مستواه على مستوى ماء البحر، باستثناء بعض الأماكن النادرة.

ويصف أبو الفداء (متوفى سنة ١٣٣١م) المدّ والجزر عند جزيرة تاروت، فيقول: ومن البلاد القريبة من القطيف تاروت، وهي بليدة في شرقها، إذا مدّ البحر أحاط بها وبأراضيها، فتصير جزيرة. وإذا جزر البحر، انكشف بعض الأرض التي بينها وبين القطيف، فيصل إليها الناس في البر. وهي عن القطيف على نصف مرحلة. ولتاروت الكروم الكثيرة والعنب المفضّل.

أما المسعودي (المتوفى سنة ٩٥٦م)، فيقدّر أن ميلاً واحداً يفصل القطيف عن تاروت. إلا أن تاروت جزيرة في الوقت الحاضر، فلا بدّ أن البحر قد غمر بعض البر في هذا الموضع.

أما من جهة البرّ، أي من داخل اليابسة، فيحيط بالقطيف شريط عريض من المزارع. والبساتين المزروعة حولها أفضل بكثير من البساتين المزروعة في سائر المناطق الداخلية، المروية جيداً، كالهفوف مثلاً. وتزدهر زراعة النخيل في تربة الحقول المروية جيداً أحياناً بماء البحر الذي يصل إلى مسافة بعيدة وأحياناً بمياه ينابيع الجبال العذبة، النازلة من الجبال المجاورة. وتزرع بأراضيها الحبوب من قمح وشعير وأرز، والبقول بأنواعها، وأشجار التين والمشمش والمانغا والرمان والكرمة والليمون الحامض.

وتغطي أشجار النخيل مساحات شاسعة متصلة تمتد على مسيرة عدة ساعات طولاً وعرضاً. وتتعرج بينها تفرعات شبكة أقنية مياه تعود إلى أيام القرامطة، وتزوّد القطيف بأفضل ماء يمكن الحصول عليه من أرباضها المباشرة. ويبلغ طول تلك الشبكة خمسة أميال، وهي متداعية الآن. وتحيط بالقطيف أسوار تتخللها الأبراج. ويشاهد عقد رائع في أعلى بابها الغربي، وتلتصق به أبراج وجدران منهارة، وتقوم مقابر أمامه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعرض القطيف نصف ميل تقريباً. وهي رطبة وقذرة، وتعدّ ٦٠٠٠ نسمة مع ضواحيها. أما عمالتها فتضمّ تسع قرى مسوّرة، وسبعاً غير مسوّرة، عدد سكانها الإجمالي ٢٥٠٠٠ نسمة مع القطيف. ولها سوق تجلب إليها محاصيل البلاد. وفيها حصن يقال إن أبا سعيد الجنّابي أشاده، واستخدمه البرتغاليون في أيامهم.

ومناخ القطيف وبيء جداً، حتى إن ساحلها اشتهر بالحمى وأمراض أخرى. وكانت المراكب الكبيرة تستطيع الدخول إلى مينائها موسوقة. إلا أنه ردم جزئياً، ولا تستطيع الآن إلا السفن الصغيرة أن تدخله وفي وقت المدّ العالي فقط. وتتوزع حبال الرمل على جوانبه، وتجعل دخوله خطراً، مع أنه محمي من جهة الغرب والجنوب باللسان الأرضي وبجزيرة تاروت والسويق. ويلائم موقعها الاتجار مع البحرين وبوشهر وسائر موانىء الخليج. ويعمل أهالي القطيف في غوص اللؤلؤ وفي التجارة.

ويذكر الأدريسي أن مدينة القطيف مجاورة للبحر[١]. وهي في حـدّ ذاتها كبيرة. وبين القطيف والأحساء مرحلتان. ومن القطيف إلى حمص يومان وهي على البحر. ومن مدينة القطيف إلى بيشة مرحلة كبيرة.

ويوجز أبو الفداء وضع القطيف على الوجه التالي[٢]: والقطيف بلدة بناحية الأحساء. وهي على شطّ البحر. ولها مغاص. وهي في شرقي الأحساء بشمال على نحو مرحلتين. ولها نخيل دون نخيل الأحساء. وللقطيف سور وخندق. ولها أربعة أبواب. والبحر إذا مدّ، يصل إلى سور القطيف. وإذا جزر، ينكشف بعض الأرض. وللقطيف خور من البحر يدخل فيه المراكب الكبار الموسقة في حالة المدّ والجزر. وبين القطيف والأحساء مسيرة يومين. وبينها وبين البصرة مسيرة ستة أيام. وبينها وبين كاظمة أربعة أيام.

ب ـ جلفار وما إليها

تمثل إمارة رأس الخيمة الإمارة الشمالية في دولة الإمارات العربية المتحدة. ويحكمها صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي، الذي أولى تاريخ إمارته والكشف عن معالمها الأثرية عنايته الكريمة المثلى، فأمر بإجراء مسح أثري، وطلب، منذ عام ١٩٦٨، بذل جهود حثيثة في دراسة الآثار، لا سيما في موقع جلفار، الواقعة

---

(١) نزهة المشتاق، ص ٣٨٦.

(٢) تقويم البلدان، ص ٩٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مباشرة شمالي مدينة رأس الخيمة الحالية.

ولمدينة جلفار أهمية بالغة في تاريخ إمارتها، وفي تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة والخليج العربي عامة، لأنها كانت إحدى ثلاث دعائم (هي وهرمز وقلهات) ارتكزت عليها سلطنة هرمز طيلة ثلاثة قرون ونيفٌ في الحد الأدنى، حسب الوثائق التاريخية، في سيطرتها على تجارة المرور الدولية والاقليمية والمحلية، علماً أنَّ تأثيرها في التيارات التجارية الدولية بدأ منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وجعلها محوراً أساسياً في العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية (تبادل السفارات) قبل انهيار الخلافة العباسية بكثير، كما يتضح بجلاء على ضوء الوثائق المكتوبة ونتائج الحفريات الأثرية.

١ ـ الوثائق المكتوبة

والوثائق المكتوبة في متناول أيدي جميع الباحثين. وقد رجع إليها ج.س. ويلكنسون، ونشر نتيجة دراسته لها في مقال عنوانه «الجغرافية التاريخية لعُمان المتصالحة حتى مطلع القرن السادس عشر»[١]. واعتمد على ما ورد باللغة العربية عند الجغرافيين والمؤرخين وفي مصنفات الحوليات، وعلى بعض المصادر البرتغالية.

(١) الوثائق العربية

وعاد إلى أخبار المصنفين العرب الأوائل عن هجرات القبائل العربية إلى عُمان في زمن الإرشاقيين، فتبيّن له أنهم يشيرون بإيجاز إلى طرق تلك الهجرات وإلى المدن الهامة التي مرّت بها، ومنها بندر جلفار القديمة شمالي رأس الخيمة.

وذكر الأدريسي جلفار في سياق حديثه عن نهر الفلج في أرض نزوة ومدينة منح الصغيرة وجبل شرم «حيث منبعث نهر الفلج، وهو نهر كبير عليه قرى وعمارات متصلة إلى أن يصبّ في البحر بمقربة قرية جلفارة»[٢]. وكذلك في وصفه الطريق الساحلية من عُمان إلى البصرة، إذ يقول: «ومن عُمان الطريق على الساحل إلى بلاد البحرين، وذلك من صحار ودبا إلى مسقط إلى الخيل إلى جلفار، وهاتان قريتان بهما مغايص اللؤلؤ... ومن جلفار وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى السبخه...»[٣]. ووردت

---

(١) ج.س.ويلكنسون، موجز الجغرافية التاريخية لعُمان المتصالحة حتى مطلع القرن السادس عشر، المجلة الجغرافية، ١٠٣/٣، ١٩٦٤، ص ٣٣٧ ـ ٣٤٩.

(٢) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الايطالية، ص ١٥٨.

(٣) المرجع ذاته، ص ١٦٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جلّفار (بضم الجيم، وتشديد اللام المفتوحة، وفتح الفاء) عند المقدسي البشاري، في قائمة مدن عُمان: «وأما عُمان، فقصبتها صحار، ومدنها نزوة، والسرّ، وضنك، وحفيت، ودبا، وسلوت، وجُلّفار...»، وفي شرح تلك المدن: «... ودبا وجُلَّفار، وهما من نحو هجر، وقريبتان من البحر»[1].

وجاء في أنساب العرب لسلامة بن مسلم العتبي، وفي تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان، لعبد الله بن حُمِيّد بن سلوم السالمي، أنَّ عثمان بن أبي العاص، ذهب مع أنصاره من جلفار إلى جزيرة القشم.

وقال ياقوت الحموي عن جلفار إنها: «بلد بعُمان عامر، كثير الغنم والجبن والسمن، يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان»[2]. وهذا يعني ازدهار تربية الحيوان في أيامه.

وقيل إن الزعيمين العُمانيين، سعيد وسليمان بن عباد، استخدما جلفار حوالي سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م في القتال بينهما وبين جيش الخليفة. وفي عهد الخليفة العباسي أبي العباس السفاح (١٣٣هـ/ ٧٥٠م ـ ١٣٧هـ/ ٧٥٤م)، هوجمت جلفار ذاتها، وقتل فيها الزعيم الاباضي، جلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي الازدي. وأعقبت ذلك فترة حرب أهلية دامت حتى استنجدت قبيلة بني سامة بمحمد بن نورة، حاكم البحرين من قبل الخليفة، لينجدها ضد الإمام الاباضي، فاحتلت جلفار سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م.

ويرجّح ان جلفار أسهمت في ازدهار تجارة الخليج في القرن التاسع الميلادي، عندما كانت سيراف المستودع الرئيس للسلع القادمة من الهند والصين. ويشير الأدريسي إلى أن جلفار كانت متجراً ومركزاً هاماً لغوص اللؤلؤ، وكان لديها أسطول غوص مؤلف من خمسين طرادة، على حد قول بيدرو تكسيرا.

(٢) الوثائق البرتغالية

وبقيت مغايص اللؤلؤ نشيطة في جلفار بعد وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي في أواخر القرن الخامس عشر. وكانت جلفار إحدى الركائز الأساسية في سلطنة هرمز: فعندما حاصر البوكيركيه هرمز الجديدة، أرسلت جلفار لنجدتها، فرقة من رماتها الماهرين المشهورين، وأسطولاً حربياً بكامل جنده، وعدّته وعدده.

---

(١) المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفية الأقاليم، ص ٧٠ ـ ٧١، وص ٩٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٥٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتسترعي الانتباه معلومات دوارته بربوسه القيّمة عن وضع جلفار الاقتصادي. فهو يقول عنها: «ومتى تجاوز قرية خورفكان، يصل إلى قرية تدعى جلفار، يقطن فيها قوم أثرياء، وبحارة ماهرون، وتجار جملة. وقربها تقع مصايد سمك واسعة جداً، تكثر فيها مغاصات اللؤلؤ الصغير والكبير على حد سواء. ويأتي إليها مسلمو جزيرة هرمز لشراء اللؤلؤ، وحمله إلى الهند وإلى بلدان عديدة أخرى. وتدرّ تجارة جلفار وارادات هائلة على سلطان هرمز»[1].

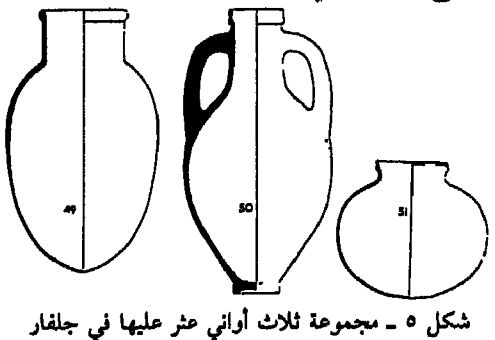
٢ ـ الأعمال الأثرية

يقع بندر جلفار القديم على حبل طويل من الرمل، يفصله عن مدينة رأس الخيمة خور رأس الخيمة ذاته، وعن البر الرئيس أرض وطيئة غالباً ما تغمرها مياه البحر.

ويظن محلياً ان جلفار تأسست في زمن العباسيين، إلا أن الوثائق المكتوبة أثبتت ان وجود بندرها يعود إلى النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ويجوز أن يرجع إلى ما قبل هذا التاريخ.

وقد غادرها سكانها إثر قصف سنة ١٨١٩، وذهبوا، فيما يظنّ، إلى رأس الخيمة ومعريد. ولم تبق مباني قائمة في جلفار، لكن شوهدت فيها آثار أبنية آجرّ، يتضمّن كتلاً حجرية ضخمة، قرب معالي، وصهريجاً مبطناً بالحجارة تمّ تنظيفه لتخزين المياه بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٥، وقيل انه يلاصق برج لم يبق منه أي أثر.

وتنتشر كسر الفخار على مساحة طولها ميل ونصف ميل تمتد من معريد إلى معالي، وتشمل خزفاً صينياً يعود تاريخه إلى سلالة منغ، وثلاث أواني مكشوفة جزئياً في الرمل. لكن لم تكتمل دراسات جلفار الأثرية بعد. وفيما يلي بعض المخلّفات الأثرية وأرقام بعض المواقع الأثرية في إمارة رأس الخيمة.

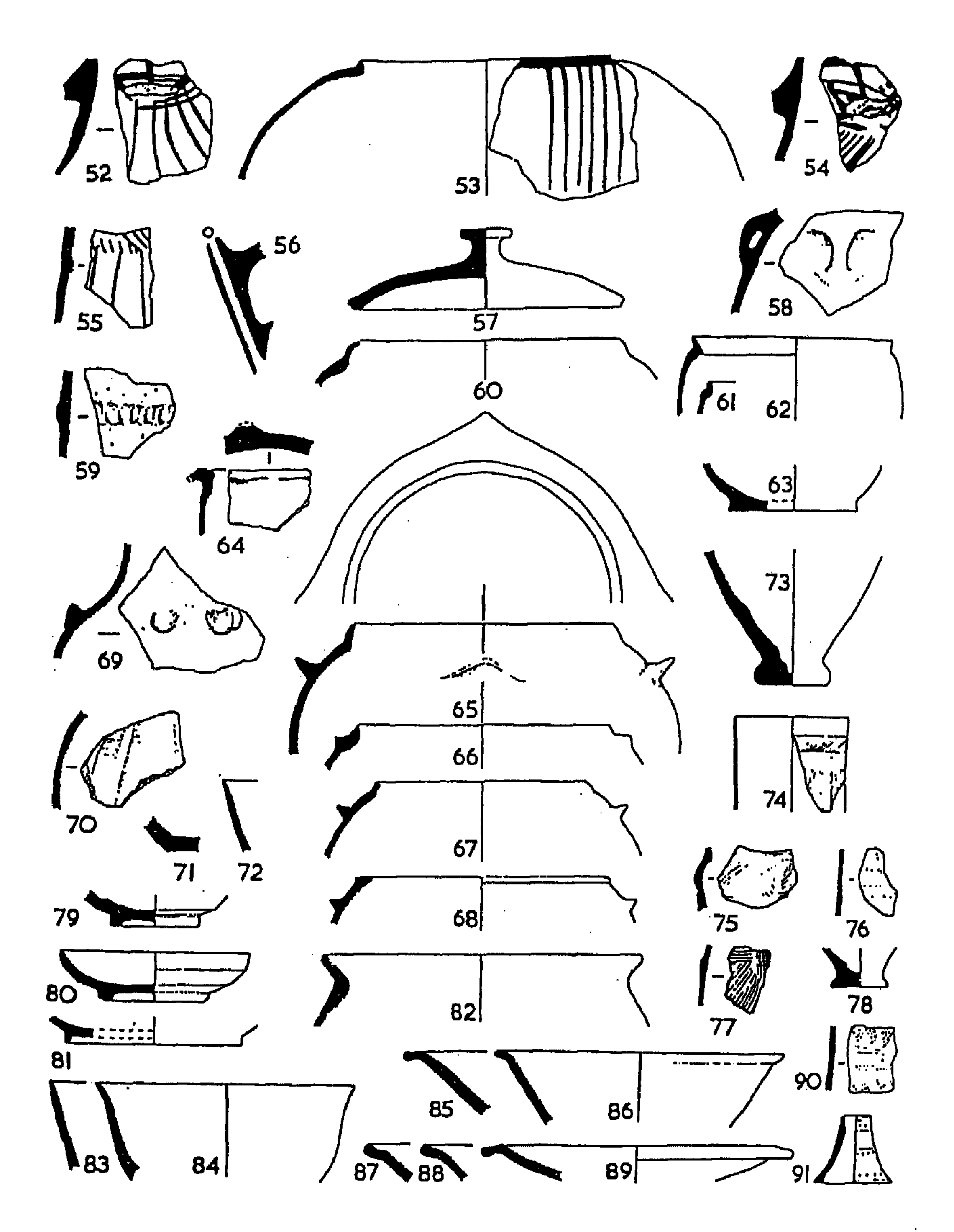


شكل ٥ ـ مجموعة ثلاث أواني عثر عليها في جلفار

---

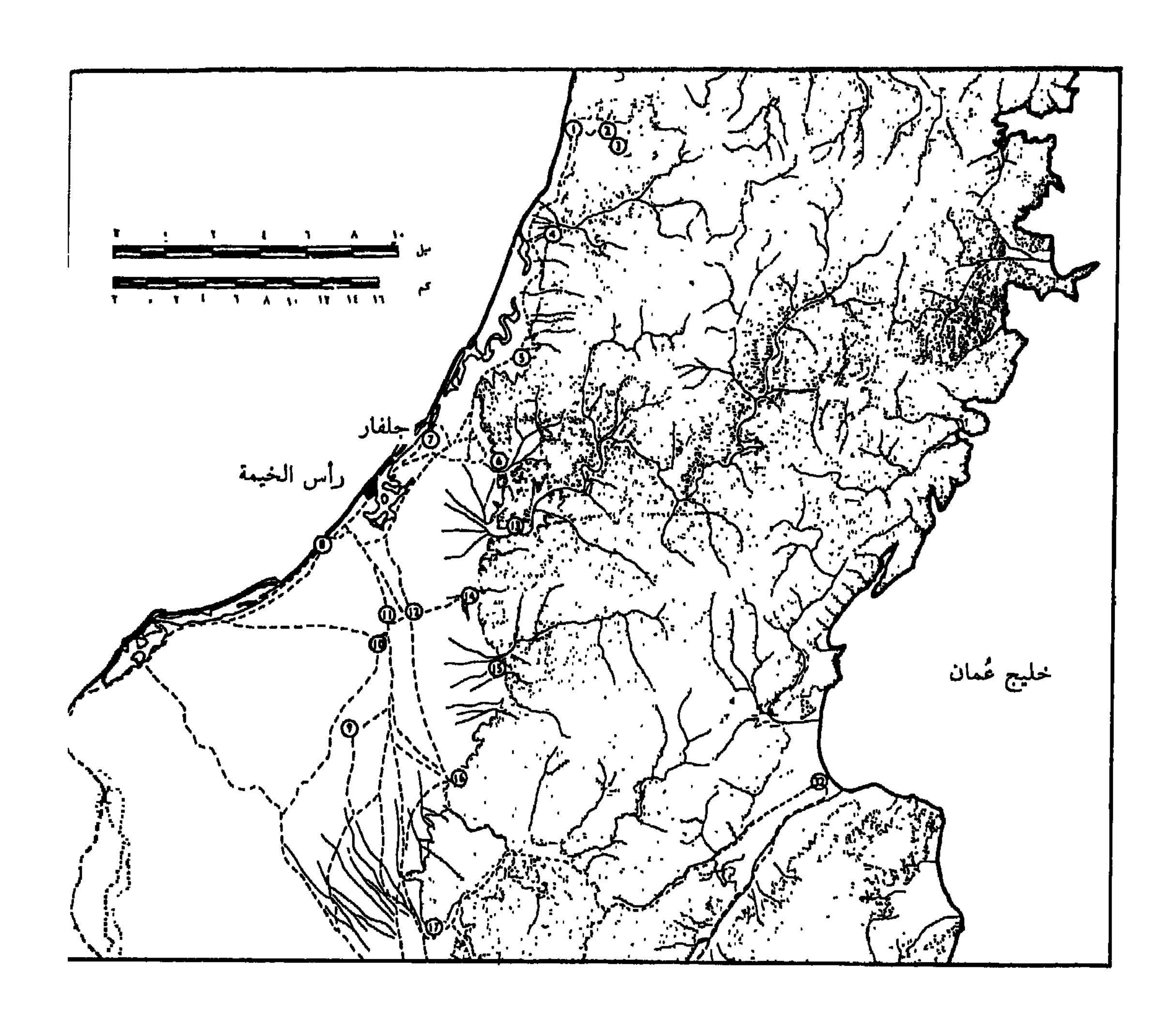
(١) دوارته بربوسه، كتاب دوارته بربوسه، ج١، ص ٧٣ وما يليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



شكل ٦ ـ خزف شرق أقصى أخضر باهت، وأدوات حجرية، وخزف عثر عليه في جلفار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



شكل ٧ ـ رأس الخيمة وجلفار وجوارهما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

حوزة سلطنة هرمز في خليج عُمان

تعدّد المصادر العربية والبرتغالية والفارسية المدن والقرى والأراضي التابعة لسلطنة هرمز في عُمان وتُجْمِع على أن هرمز تمتلك ساحل عُمان بتمامه من رأس مسندم إلى رأس الحدّ. ويخضع ساحل جعلان لنفوذها أيضاً. مع ذلك ليست مدن عُمان الساحلية مرافىء أمامية بسيطة، تقيمها جزيرة جرون على طريق الهند وافريقية الشرقية والبحر الأحمر. فلها وظيفة اقتصادية محلية خاصة بها. لأنها منافذ بلاد داخلية، لا وصاية لسلطنة هرمز عليها. من ناحية أخرى، أهمية الساحل الشمالي في خليج عُمان ضئيلة جداً، إذا ما قورنت بأهمية عُمان البحرية وعمُان الداخلية التي تسيطر عليها قبيلة بني جابر.

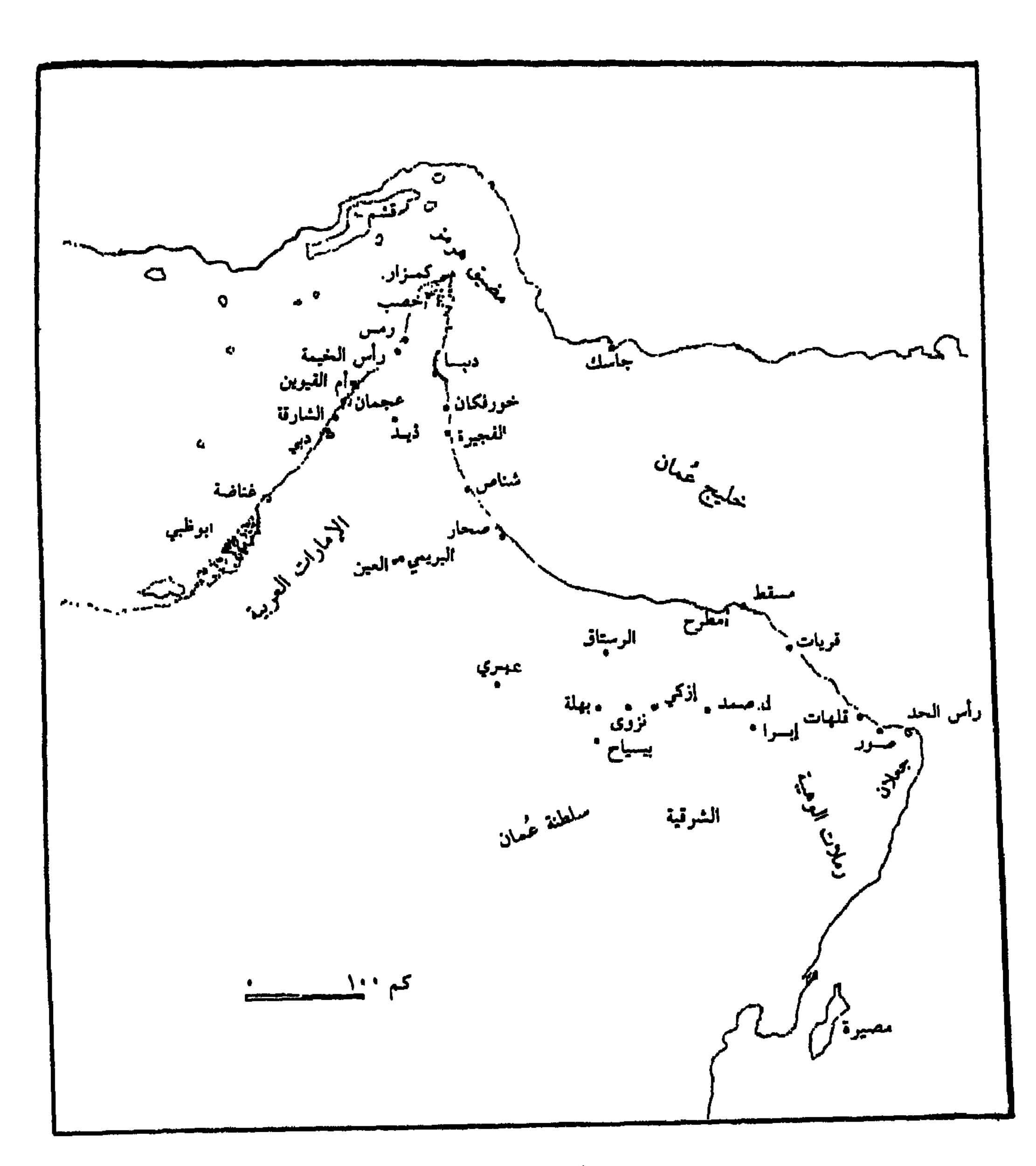
والعودة إلى رحلة ابن بطوطة مثلاً تثبت بأن «من مدن عُمان مدينة أزكي... وهي مدينة عظيمة. ومنها القريات وشبا وكلبا وخورفكان وصحار». وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل. وأكثر هذه البلاد من عمالة هرمز[1]. ويقول أيضاً: «إن مدينة قلهات على الساحل، حسنة الأسواق.. وإنها تحت طاعة السلطان قطب الدين تهمتن، سلطان هرمز، وهو من أهل السنة»[2]. ويقول أيضاً: «ثم ركبت البحر، فوصلت إلى مسقط، وهي بلدة صغيرة... ثم سافرنا إلى مرسى القريات... ثم سافرنا إلى مرسى «شبا»... ثم إلى مرسى كلبا... ثم إلى قلهات، وقد تقدم ذكرها. وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز[3]. ويعطي دوارته بربوسه تفاصيل أوفى عن ممتلكات سلطنة هرمز على ساحل عُمان، ويذكر قلهات وطيبي والقريات ومسقط وصحار وخورفكان

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٨٠.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢٧٨.

(٣) المرجع ذاته، ص ٦٦١.



شكل ٨ ـ ساحل عُمان ومدنه في سلطنة هرمز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغيرها[1].

وفيما يلي نبذة موجزة عن ممتلكات هرمز على ساحل عُمان وعلاقاتها بالتجارة الدولية والتجارة المحلية مع عُمان الداخلية، حسب مختلف المصادر.

أولاً ـ واجهة عُمان البحرية التابعة لسلطنة هـرمـز

آ ـ السهل العُماني الساحلي بين رأس مسندم ورأس الحد

ونبدأ بواجهة عُمان البحرية، التابعة لسلطنة هرمز. ونلقى نظرة عامة إليها، ثم نستعرض بعض المراكز البشرية الرئيسة فيها، منها صور وقلهات وطيبي وقريات ومسقط وصحار وخور فكان.

فواجهة عُمان البحرية سهل طويل، يمتد من صور جنوباً إلى رأس مسندم شمالاً. وهو ضيّق في جنوبه وشماله على وجه الإجمال، ويعرض نسبياً في وسطه في سهل الباطنة. وتشرف عليه من جهة الغرب سلسلة جبلية عالية، تنحدر تدريجياً نحو داخل عُمان شبه الصحراوي والصحراوي.

ب ـ المدن العُمانية الساحلية

وجميع المراكز البشرية المذكورة آنفاً وغيرها، إن هي إلا بنادر ومراسي ومطارح سفن، تتفاوت أهميتها حسب اتصالها بالهند في ما وراء البحار، وحسب وجود ممرات جبلية خلفها، تصلها بالمدن والقرى الداخلية.

١ ـ صـــور

وصور قرية صيد سمك صغيرة. مرّ بها البوكيركيه وأغرق فيها جميع سفنها. وكان يتوقع لصور أن تصبح البندر الكبير لعُمان الجنوبية، لوقوعها في داخل جون ممتاز، لكنها بقيت قرية صيد أسماك، قريبة جداً من قلهات، لا تستطيع أن تحلّ محلها ولا أن تزاحمها قبل انتهاء احتضارها البطيء.

٢ ـ قلهـــات

وتوجه البوكيركيه من صور إلى قلهات. وقلهات مقرّ وزير هرمزي يدير شؤونها نيابة عن سلطان هرمز. وقد رسا فيها أسطول البوكيركيه، وأنزل على الشاطىء ضابطين

---

(١) كتاب دوارته بربوسه، ج ١، ص ٦٨ ـ ٧٣.

من ضباطه وترجماناً. فقوبلوا بلباقة، واعلموا أن سلطان هرمز يملك المدينة. وقيل لهم أيضاً إن أي شيء يحتاجه أسطولهم سوف يؤمّن لهم بطيبة خاطر. وفي اليوم الثالث استمرت المفاوضات بين وزير هرمز، حاكم قلهات وبين البوكيركيه الذي طلب استسلام قلهات بلا قيد أو شرط، وإعلان تبعيتها لملك البرتغال. وكان وزير قلهات غير مستعد لأي مقاومة، فقرر كسب الوقت وشجب الأعمال العدائية وأبدى رغبته بتحاشي تدمير مدينته، ورجا البوكيركيه أن يذهب إلى هرمز ويتفق مع سلطانها، ووعده ألا يتخلى البتة عن الخضوع لملك البرتغال. وقبل البوكيركيه موقفه لحاجته إلى المؤن، وأعطى الوزير صكّ أمان يحميه من احتمال تعدّي البرتغاليين عليه.

وتبرز هذه المحادثات ومجرياتها أهمية قلهات. فقد كانت «أسكلة جميع بنادر الهند» وملجأ الطامعين بعرش سلطنة هرمز» من المعارضين الذين يقطعون طرق المواصلات مع جرون.

واعتبرت «دار الفتح» أيضاً، عاصمة ثانية لسلطنة هرمز. ثم طرأ على وضعها تحوّل في غضون سني العقد الأول من القرن الخامس عشر (١٤٠٠م)، ففقدت تفوّقها الذي دام ثلاثة قرون لصالح مسقط، وتمّ انحطاطها تدريجياً. وسرّعه زلزال أرضي، لم يكن العامل الحاسم لا في تقهقرها ولا في تأخّر سيراف قبلها في غابر الزمن. ولا ريب أن الهزة حصلت في الربع الأخير من القرن الخامس عشر. ولعلّها ارتبطت بالزلازل التي شعرت بها هرمز في شتاء ١٤٨٢ ـ ١٤٨٣. وتوضح شهادات سابقة للسمرقندي ونيكيتين الأهمية التي اتخذتها مسقط من قبل. ويحسن تقصّي ما إذا كان تطوّر حمولة المراكب سببها أو أحد أسبابها. فالسفن الصغيرة وحدها كانت تستطيع البقاء في قلهات في أثناء الموسميات. أما المراكب الكبيرة، فلم تَكن تجد مكلاءاً أميناً لها إلا في جون مسقط الذي يشبه حدوة الحصان.

وشاهد البرتغاليون قلهات النبيلة، بأسوارها، وأبراجها، ودورها، وسطوحها، ونوافذها الأندلسية الطراز. فهي مدينة جميلة في نظر دوارته بربوسه، رغم مبانيها المنهارة، وأكواخها القصبية، وأزقتها الضيقة. ويشرف جامعها الكبير على الشاطىء. ويعود بناؤه إلى القرن الرابع عشر. وقد أُعجب به ابن بطوطة[1]، فقال: «ومدينة قلهات على الساحل، وهي حسنة الأسواق، ولها مسجد من أحسن المساجد، حيطانه بالقاشاني، وهو شبه الزليج، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى». وله سبعة

---

(١) ابن بطوطة، ص ٢٧٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجنحة أمامها إيوان. وقلهات مثل سنتارم بالكبر. لكن قلّ سكانها، لأن بعضهم يعيش خارج المدينة القديمة. وتعدّ قلهات ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ نسمة. والبساتين قليلة حولها. وفي مطلع القرن السادس عشر، كانت قلهات بندراً تتردد عليه المراكب بكثرة. ويقيم فيها العديد من التجار. وكان سلطان هرمز سنة ١٥١٤م يستوفي منها رسوماً تساوي ضعف ما يستوفيه من مسقط تقريباً: قلهات ١١٠٠٠ أشرفي، مسقط: ٥٠٠٠ أشرفي. ويعزى هذا الفرق ظاهرياً إلى بقاء خراج مسقط كما كان عليه قبل أن يحالفها الحظ من جديد. أما داخل قلهات فمحدود الخيرات، ينتج قليلاً من الحبوب على حد قول كورسالي سنة ١٥١٧. ويعتمد غذاء أثريائه على ما يستورد من أرز وحبوب. ويتغذى سائر الناس بالتمور التي تحلّ محل الخبز. إلا أن لديهم حليباً وسمناً من انتاج مواشيهم الكثيرة.

٣ ـ طيــوى

وفي ٢٢ آب ١٥٠٧م، غادر البوكيركيه قلهات قاصداً طيوى، التي كان يعتقد أن بندرها كبير، لكنه فوجىء بصغره، وتبيّن له أنه مركز استعذاب مشهور عند البحارة، تختفي بساتينه ونخيله على بعد ثلاثة فراسخ عن قلهات في خانق كثير العيون. وتنقل الفواكه والخضار من طيوى إلى قلهات. ويسميها ابن بطوطة طيبي ويقول عنها: «وبمقربة من قلهات قرية طيبي، واسمها نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه. وهي من أجمل القرى، وأبدعها حسناً، ذات أنهار جارية، وأشجار ناضرة، وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات. وبها الموز المعروف بالمرواري، والمروار بالفارسية الجوهر. وهو كثير بها يجلب إلى هرمز وسواها. وبها أيضاً التنبول».

٤ ـ القـريـــات

وقاومت القريات البوكيركيه يوم الاثنين ٢٣ آب ١٥٠٧م، بقطعتي مدفعية، تركّز القتال في مكانهما. وطالت المعركة واشتد القتال، فاضطر القرياتيون إلى الهرب، فتبعهم البرتغاليون وذبحوا الرجال والنساء والأطفال، وجدعوا أنوف البعض، وقطعوا آذان البعض الآخر. واستبيحت القريات وأحرقت. وغنموا ٢٥ بندقية ورماحاً وأقواساً ونبالاً، وأضرموا النار في ٣٨ سفينة راسية في البندر. ونهبوا منها خلال ثلاثة أيام كمية كبيرة من الدقيق والقمح والأرز واللحوم والسمك المجفف، وجرار العسل، والسمن المذوّب والتمور. وللقريات نخيل يقع على بعد ثمانية فراسخ إلى الجهة الشمالية. ويبلغ سكانها ٥٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ نسمة، موزعين على بضع دساكر في الجهات الداخلية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى ساحل البحر. والقريات نفسها مدينة صغيرة تجارية مزدهرة، فيها مسجد جميل وبضع دور جحرية منتصبة بين الأخصاص وتموينها جيد.

٥ ـ مسقط

ومسقط مدينة كبيرة، مزدحمة بالسكان، تحفّ بها الجبال العالية من جنوبها وشمالها، وتصل إلى الشاطىء تقريباً. أما وراءها باتجاه الداخل، فينبسط سهل عرضه عرض ميدان لشبونة، وهو مليء بأحواض تبخير الماء المالح، لا لأن مد البحر يصل إليه، بل لأن به عيوناً مالحة، بقربها برك يستفيد السكان من مائها العذب للشرب. وفيه بساتين فاكهة وخضار ونخيل تسقى بمياه الآبار.

ولمسقط بندر صغير، له شكل حدوة فرس، محمي من جميع الرياح، وهو مستودع رئيس لسلطنة هرمز، تمرّ به جميع المراكب المبحرة في نواحيه لتحاشي سلوك اضحال الساحل المقابل الخطرة. وتصدّر منه الخيول والتمور منذ زمن بعيد.

ومدينة مسقط رائعة، كثيرة المباني الجميلة، يجلب لها من الداخل كميات كبيرة من القمح والذرة والشعير والتمور لتوسيق السفن القادمة إليها. وهي جزء من سلطنة هرمز، يدير شؤونها حاكم تعيّنه السلطنة. أما الداخل خلفها، فتابع لشيخ بني جابر. ويتفق ابن ماجد والوثائق البرتغالية على وضع بندر مسقط رغم صغره في طليعة بنادر عُمان. ويقول عنه ابن ماجد «انه بندر عُمان من العام إلى العام»، ويقول أيضاً: «مَسْكَتُ بندر لم يكن في الدنيا مثله». وجاء عنه في كتاب التعليقات: «هو أول بندر على هذا الساحل (أي ساحل عُمان)»، و«هو الأسكلة الرئيسة في سلطنة هرمز». وفي سنة ١٥٠٧، عندما كادت مؤن البوكيركيه تنفذ، اتجه إلى مسقط لا إلى قلهات. وتتميّز مسقط عن جميع بنادر ساحل عُمان، بإمتلاكها أفضل إمكانيات تموين المراكب وتوسيقها. ويشير ابن ماجد إلى أن المراكب تشحن من بندرها البسر والتمر والخيل، وتبيع فيها البزّ والسليط والرقيق والغلات. ويروي كتاب التعليقات بأنها «تتلقى من الداخل كميات كبيرة من القمح والشعير والتمور، تكفي لتحميل كثير من المراكب. وفي سنة ١٥٠٧، كان مخزون مسقط من الأرز والسكر المستوردين من الهند هائلاً. ودام نهب مسقط على يد رجال البوكيركيه ثمانية أيام. وعندما أضرموا النار فيها، زاد مخزون الزيت ودبس الشوندر الموجودين في الدور سعير الحريق. وليست سوقها ومواردها بالأغذية الدليلين الوحيدين على تفوّقها على سائر بنادر عُمان، فهي تدعم هذا التفوق ببقائها مموّن المراكب الوحيد بألياف جوز الهند والقلوس والحبال، وبالماء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي يجني الشيوخ من بيعه أرباحاً وافرة.

وقدّر عدد سكان مسقط بـ ٧٠٠٠ نسمة. وتحيط بها البساتين والحدائق والنخيل. وكلها تسقى من آبار تسحب مياهها بملافيف تحرّكها الأبقار. وكانت تؤلف تجمعاً بشرياً كبيراً أحياؤه متراصّة. وكانت الرماح الطويلة تزعج الجنود البرتغاليين في شهر أيلول سنة ١٥٠٧، وتعيق سيرهم في أزقتها الضيقة وكان فيها عدة مساجد، يمثل أكبرها مبنى ضخماً، شيد بعضه بالخشب المنقوش، وسقفه مسطّح، يرتكز على دعائم خشبية. وكانت دور الحجر المؤلفة من عدة طوابق تكثر فيها وتدلّ على عظمتها وغناها.

٦ ـ صحـــار وخـورفـكان

وتعدّ صحار أيضاً تجمعاً بشرياً كبيراً وجميلاً، دوره فخمة. وفيها مقرّ حاكم عام من قبل هرمز يدير شؤونها. وشوارعها جميلة والمنازل رائعة في خورفكان أيضاً. وتتكرر الأوصاف ذاتها في نصوص مصنفي الحوليات البرتغاليين، الذين أخذت معظم أخبارهم مما رآه أسطول البوكيركيه سنة ١٥٠٧، سواء أثارت الإعجاب بالمدن العُمانية أم بالمزروعات التي شوهدت عند مجاراة سهل الباطنة الخصب. فصحار تمتلك أراضي زراعية واسعة جداً كلها حقول قمح وذرة وشعير، ويربى فيها الكثير من المواشي والخيل. ويصدر بندرها كميات كبيرة من التمور والحبوب حسبما ورد في كتاب التعليقات.

ويتحوّل الساحل، عند الصعود شمالاً باتجاه رأس مسندم، إلى حقول نخيل ومطارح سفن. وتتوالى الأملاك على طوله، وتتوزع في ريف خورفكان أراضي فيها دور جميلة تحيط بها مزارع أشجار مثمرة معتنى بها جيداً، وتقع خورفكان عند قاعدة جبل شاهق، يجعلها منيعة جداً من جهة البر. وهي مدينة كبيرة تابعة لسلطنة هرمز، يكثر فيها التجار. ومناخها معتدل وصحي، ويزرع في حقولها حبوب وحمضيات. وبندرها جيد، تحميه جزيرتان صغيرتان من الرياح. وتصدر الخيول منه إلى الهند. ويمتلك ابن جابر الداخل وراءه.

جـ ـ اقتصاد الساحل العُماني

وهكذا تبدو عُمان الساحلية في نظر الايبيرين بلاداً زراعية غنية، تصدّر الحبوب، وتربي قطعان الحيوانات. ويدرك سكانها أفضل مما يدرك سكان جزيرة جرون، الارتباط الوثيق بين المرافق الاقتصادية الأربعة التي ترتكز عليها الحياة في المنطقة

العربية، أي تجارة البحر وصيد الأسماك والزراعة المروية والتربية المتنقلة.

وتصدر عُمان أسماكاً مجففة وخيولاً، إضافة إلى التمور والحبوب. وتتجمع أساطيل صيد سمك الطون في رأس الحد. وفي شهر آب ١٥٠٧، أحرق البوكيركيه عنده قرب صور ٣٠ إلى ٤٠ سفينة صيد. وفي الأسابيع اللاحقة، أضرم النار في بعض السنابيق في جون صور ذاته وفي سفن القريات ومسقط، وأخيراً في العديد من الزوارق في خورفكان وفي شباك الصيد. وتسهم مجفّات مسقط، التي تعادل مساحتها مساحة روسيّو لشبونة، بأعظم انتاج من السمك المجفّف.

وتصدّر مئات الخيول العربية المرباة في عُمان إلى بنادر الهند، على مراكب مجهزة بمفارش خيزران طيّب الرائحة، تباع رزماً في الهند باسم «عشب مسقط». ولم يكن إنزال الخيل إلى المراكب سهلاً، إلا في مياه هادئة مثل مياه جوني قلهات ومسقط. أما القريات، فلم تكن الخيول تشحن منها لأن أمواج البحر تتكسّر على أرصفتها الصخرية، على حدّ قول براس دي البوكيركيه، إلا أنها تربي كثيراً منها. وخلافاً لقول براس، تتحدث نصوص برتغالية أخرى عن نشاط تربية الخيول في القريات. كذلك يصف براس رقوق الماء التي تحظّر الاقتراب من صحار. ويعدّد قطعان حيوانات الداخل وراءها، ولا يذكر الخيول في عداد صادراتها. أما سوق الخيل الكبرى في شمالي عُمان، فمحصورة في خورفكان، بمرساها المحمي من الرياح. وقد أعدّت فيها إسطبلات واسعة ومتابن كبيرة للحيوانات المراد تصديرها إلى الهند عبر بحر العرب. وفي الجنوب خلفت مسقط قلهات في هذا الدور. ويربي البدو الخيول، كما هي الحال في كل العالم العربي، ويرسلون ما هو مخصص منها للتصدير من سهل الباطنة، ومن داخل عُمان، ومن أماكن أبعد منهما أيضاً. ويقول باروس إن قلهات تتلقى «جميع الخيول، ليس فقط من جهات لحف السلسلة الجبلية، بل أيضاً من مدينة الحسا القريبة من القطيف»، بندر الخليج العربي مقابل البحرين. وهي أفضل خيول جزيرة العرب. وتتوافد هذه الخيول على ساحل عُمان المجاور، الذي تتجمع فيه جميع السلع، كما يحصل في المعارض: سلع التصدير من جزيرة العرب وسلع الاستيراد على حد سواء. ويذهب معظمها إلى قلهات، حيث يتمّ شحنها إلى الهند. وكان يجوز الظن بأن هذا القول مبالغ فيه، لولا توفّر استشهادات في الأدب العربي تتحدث عن أمثلة على تجارة الخيل عبر شبه جزيرة العرب.

ويستنتج من معطيات المؤلفين البرتغاليين، التي تؤيدها المصادر العربية، أن

الحياة الاقتصادية في عُمان ترتبط على نطاق واسع، بإنفتاحها على بحر الهند. وتستفيد مدنها الساحلية من التجارة البحرية، هي والسكان الهامشيون الذين تجتذبهم تجارة المفرق (التجزئة) في أماكن رسوّ السفن. وهم بدو يأتون إليها ليبيعوا فيها الفراريج والجدايا والتمور، ونساء يجئن من قرى الداخل لتعاطي البغاء مع البحارة.

ويصعب تمييز تنظيم شبكات التوزيع الداخلية، لكن تفيد عُمان الداخلية بأجمعها من نشاط البازارات التي تتقايض فيها منتجات الداخل بالسلع الواصلة إليها من بحر الهند. وكان ماركوبولو قد سمع في آخر القرن الثالث عشر، أن حمولات المراكب تباع بربح أفضل في مدينة قلهات، لأن السلع والتوابل تحمل من هذه المدينة إلى العديد من المدن والقرى في الداخل. ويجب أن نشير هنا إلى أن عمان تستورد الأرز الهندي رغم فائض إنتاجها من الحبوب. وقد لاحظ ذلك ابن بطوطة أثناء مروره بقلهات. وفي مطلع القرن السابع عشر، لاحظ د. غرسيا دي سلفا أي فوغويروا، أن الأرز يمثل الحمولة العادية للمراكب القادمة من الهند، وأن البدو يأتون إلى مسقط لشرائه.

ومنذ زمن واغل في القدم، تُبَادَلُ منتجاتُ مالكي الأراضي بالأقمشة والتوابل والأرز أو الرقيق القادم من وراء بحر الهند، وذلك في جميع مدن واجهة بحر عُمان. مع ذلك تتعرض هذه المدن إلى شتى المخاطر. ففي سنة ١٥٠٧، وضع سياج من قطع الخشب والزوارق الغارقة المغطاة بالتراب، لحماية رملة مسقط على جميع طولها، وأبقي فيه ممران يوصلان إلى الشاطىء. كذلك أقيم سياج خشبي قرب رصيفي القريات. ويحتمل أن تكون هذه المنشآت الدفاعية قد أقيمت في أمكنتها توقعاً لمجيء البرتغاليين. ويؤكد باروس أن خندق القريات حفر في أثناء توقف البرتغاليين في قلهات، وأن حاجز مسقط رمّم ترميماً جديداً مقصوداً. وقطعاً، لم يعرف بحر الهند آنذاك النزاعات البحرية الكبيرة، ولم تتعرض سلطنة هرمز حتى قدوم البوكيركيه إلى هجوم بحري إلا في حالات الحروب الأهلية بين الطامعين بعرشها. بالمقابل، يمثل القراصنة، المتحركون والجريؤون، خطراً كبيراً جداً يضطر سلطان هرمز أن يحتفظ على ساحل عُمان وجلفار بأساطيل مراكب حراسة ساحلية. ويحتمل أن تكون الإنشاءات الدفاعية ترمي إلى حماية المراكب الراسية من حصول سطو مفاجىء عليها، إذ لم تكن البنادر مجهزة لغاية تتعدى استقبال السفن.

وكان الخوف من الخطر الآتي من البر أشدّ من الخوف من الخطر القادم من البحر، على حد ما جاء في كتاب التعليقات. فشيوخ العرب في الجبل كانوا يطمعون بالثروات المخزونة في الدور الحجرية العالية التي يملكها التجار. لذلك كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجمعات البشرية تحيط نفسها بالدفاعات. فمن قمة الصخور التي تطلّ على قلهات حتى الشاطىء، كان سور علوّه طول الرمح يحيط بهذه المدينة. ويعترض سور قوي جداً، له برج يراقب مدخله الوحيد، المضيق الذي يصل خورفكان بالداخل وراءها. وتحمي قلعة لها ثمانية أبراج واحة صحار من أطماع الأمراء المجاورين لها، وتتسع لآلاف المحاربين. ويشار إلى وجود حصون أو أسوار حول قرى متواضعة. ويبدو أن القريات لم تجهّز بأي سور من جهة البر، إما لأن تفرّق دور السكن يجعل الأمر عسيراً، أو لأن السلام سائد بين اقطاعيي الجبل وبين أهالي تلك التجمعات البشرية التي تمر سلعها في بنادرها، على حدّ قول كوريا. وشيدت نقاط محصنة حول مسقط لكنها ليست دفاعات متصلة. ويحسن التذكير بأن دور الأثرياء تضمّ غرفة سرية توضع أموالهم فيها، وتسدّ عند الغارة عليها.

ثانياً ـ عُمان الداخلية وبنو جابر

وعُمان عمانان منذ أقدم الأزمنة حتى القرن الخامس عشر. وأدرك باروس هذا الواقع لديها بحسّه السليم المألوف في الجغرافية البشرية، فقال: «تمتد سلسلة جبلية على طول الساحل العُماني وتبدو وكأنها تريد منع أهل ساحل البحر من الاتصال بأهل الداخل، إلا عبر بعض الفجاج التي تخترق بعض الأماكن فيها، وتستخدم كما تستخدم أودية جبال الألب في أوربة. فتظهر قوافل الإبل المحملة حبوباًورعال الخيل في أرباض البنادر، خارجة من أحد الأودية العميقة الخصبة، التي سماها المؤلفون البرتغاليون آنذاك «بلاد بني جابر». فوراء عُمان الساحلية الخاضعة لسلطنة هرمز، تقع عُمان أخرى، هي عُمان قبائل البدو، الرعاة المتنقلين، والإمارات الإباضية أو النبهانية، المهيمنة في المدن الداخلية.

آ ـ مدن عُمان الداخلية

ويصف باروس بدقة الحالة السياسية على عمق أربعين فرسخاً من هذه الأرض، التي تعدّ أكثف تلك الجهات سكاناً في جزيرة العرب. ويذكر مدنها الرئيسة، أي مناح ونزوى وبهلا التي يحيط بها جدار لبن قويّ جداً، وتسيطر على أراضي، إعمارها كثيف جداً حتى إن أهل القرى يستطيعون أن يتنادوا من إحداهن إلى الأخرى. ويبلغ عدد سكان بعض البلدان ١٠٠٠٠ أسرة مثل أزكي. وكان لكل من تلك المدن الثلاث ملك، على ما جاء في المصادر العربية. ثم ثار الشعب ضد استبداد ملوكه، وأصبح كبار السن يحكمونه حكماً شبيهاً بالحكم الجمهوري. مع ذلك ينشب خلاف دائم بينها حول أي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منها ينبغي أن تعتبر حاضرة عُمان الداخلية، وتثيره بهلا على وجه التخصيص، لرغبتها بالتحكم بالمدينتين الأخريين، لأن الإمام يقيم فيها، وهو أحد أهم رجال الدين في طائفتهم، وتعود إليه صلاحية الفصل في الدعاوى والخصومات في سائر عُمان الداخلية. ويدفعون للإمام عشر ما يرزقهم الله بما فيه عشر الحلى التي يقدمها الزوج لزوجته سنوياً، وعشر ما تكسبه النساء.

ولا ينفرد باروس وحده بنقل الانطباع الجيد عن المستوى الروحي للطوائف الاباضية. ففي الأعوام ذاتها التي حرّر فيها كتابه الموسوم «آسية»، اثنى ب. برز، المتأثر بأوهام تبشيرية ساذجة جداً، على أهل عُمان الداخلية، التي تقوم فيها أربع مدن مكتظة جداً بالسكان وقديمة جداً، وقال: «هم بسطاء، وميالون إلى عمل الخير، يسيطر عليهم سيد فاضل». فالاباضية عاشت هادئة منذ القرن الثاني عشر تحت نير الأمراء النبهانيين، ثم نهضت حوالي أواخر القرن الخامس عشر. أما ما أشار إليه باروس من «خلع الملوك»، فهو واقعة مستجدة، جرت في ظروف تتطلب تقصيات أعمق، شأنها شأن كل ما له صلة بتاريخ عُمان في القرون الوسطى.

وفي سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، إذا قبلنا المعطيات المتأخرة الواردة في الحوليات الوحيدة المتوفرة حالياً (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة)، نجد أن الأمير النبهاني سليمان بن سليمان، تحدّى المدعو عمر بن الخطاب، الذي انتخب في السنة السابقة إمام الاباضية. إلا أن هذا الأخير اتخذ قراراً في جمادى الأخيرة سنة ٨٨٦هـ/آب ١٤٨٢م، وزّع بموجبه الأملاك التي استولى عليها بنو نبهان خلافاً للقانون، على ضحايا تسلطهم أو على ذريتهم. وتجاوزت التعويضات المطلوبة ما يملكه بنو نبهان الذين ألزموا جميعاً بالأراضي والدور والأسلحة وأشياء أخرى. وقطعاً لم يطبّق الإجراء على النطاق الواسع المذكور في الحولية. ولم ينفذ إلا في المقاطعات الخاضعة لسلطة الإمام، وربما حوالي نزوى فقط، وبقي سليمان بن سليمان، المقيم في بهلا قوياً فيما يبدو. وخلّف هذا الأمير الأخير (سليمان بن سليمان) ديواناً شعرياً تقليدياً، مليئاً بمواضيع الشعر العربي القديم وطرق تعبيره، يستخلص منه أن سلوكه يعطي عنه صورة إنسان غارق في الملذات، وغاو النساء وهاو الخمر ورحلات الصيد، مهّد الطريق على الأرجح لتجديد الاباضية السياسية لدى الأهالي الخاضعين لنزواته. وقد وجه اندفاع بني جابر نحو عُمان ضربة جديدة إلى وضعها المزعزع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ بنو جابر

وقد ظهر بنو جابر في البدء، حيث غازى زامل بن حصين العامري العقيلي الجابري النجدي، واحة الخرج في خمسينات القرن الخامس عشر (١٤٥٠م). ولا ريب أن نجله سيف استولى في القرن الخامس عشر (١٤٦٠م) على واحة الحسا، وانتزعها من بني جروان، الذين كانوا ملوكاً فيها منذ القرن الثالث عشر. وفي سبعينات القرن الخامس عشر (١٤٧٠م)، رَأَسَ بني جابر شقيق سيف، أجود بن زامل، الذي ولد في شهر رمضان سنة ٨٢١هـ/ تشرين الأول ١٤١٨م، وطعن في السن، وجعل بني جابر أعظم قوة في جزيرة العرب الشرقية. وحوالى عام ١٤٧٥/ ٨٨٠هـ، لجأ إليه أي إلى أجود السلطان سلغر، المطالب بعرش هرمز، الذي لم يساعده حموه سليمان بن سليمان النبهاني، إما احتراساً أو عجزاً. وقد دعمه أجود، ونال مقابل ذلك تنازل سلغر له عن البحرين والقطيف، باستثناء بعض بساتينها. إلا أن سلغر شاه بعد أن اعتلى العرش، ندم على تنازله عن أراضي تابعة له، تدرّ على خزينته أكبر مبلغ من الواردات. وتنظمت عدة حملات لاسترجاع البحرين والقطيف، تزعمها الرئيس نور الدين الفالي وسلغر شاه شخصياً ونجله توران شاه الذي يظنُّ انه استعاد البحرين سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م. وانتهى الخلاف بتوقيع اتفاق أبقى لأمير الحسا التمتع بالمنطقتين على أن يدفع ضريبة سنوية عنهما لسلطان هرمز. واحترم هذا الاتفاق سنين طويلة. وكان ما يزال معمولاً به سنة ٩٨٣هـ/ ١٥٠٧م.

وفي عام ٨٦٣هـ/١٤٨٨م، اجتاح أحد أبناء أجود، سيف بن زامل، أراضي سليمان بن سليمان النبهاني. وعاصر ابن ماجد الحدث (غير المذكور في الحولية العمانية)، وروى أن سيف بن زامل أبقى عمر بن الخطاب في السلطة. وبعد وفاة هذا الأخير سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م، انتقم سليمان بن سليمان من الاباضيين. وتذكر الحولية مجابهات جديدة مع الأئمة أصحاب السلطة المؤقتة، المتنازع عليها. واضطر سليمان بن سليمان النبهاني في النهاية أن يلجأ إلى هرمز، وأن يستنجد من هناك بحكام فارس بلا جدوى. عندئذٍ رجع إلى عُمان، وتوفي سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م. وكان أجود ما يزال حياً حوالى سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م. وتذكر المصادر العربية المتأخرة أنه عاش ما بعد هذا التاريخ. لكن يجوز أن تكون شجرة نسب غير صحيحة قد شوّشت الأخبار التقليدية.

ولم يمثل سليمان بن سليمان النبهاني جاراً خطراً على سلطنة هرمز بسبب

انغماسه بالملذات والنزاع الديني الذي قوّض سلطته. ولم يشترك حتى في ثورة صهره سلغرشاه. وبعد وفاته زال نفوذ بني نبهان لمدة طويلة، وانقسمت المدن الاباضية على نفسها بسبب خصومات النفوذ الذي تحدث عنه باروس ولم تعد التجمعات السياسية التقليدية في عُمان الداخلية تهدد الساحل الهرمزي بالخطر. وكان الأمر يختلف مع بني جابر. ويقول باروس: «إن ما يدفع هذه المدن (بهلا ونزوى ومناح) إلى البقاء في حالة سلم أحياناً، هو أنها تتعرض إلى هجمات قبائل البدو المنتسبة إلى الفئة المسماة بني جابر، التي تعدّ إحدى أقوى قبائل جميع جزيرة العرب، لأنها تهيمن على أرض يقرب قطرها من ٣٠٠٠ فرسخ. وفي موسم جني التمر والمواد الغذائية الأخرى، تأتي تلك القبائل وتقلقها. ولتحاشي مثل هذه المضايقات، يقضي الاتفاق بأن يدفع إمام تلك المدن من عشره إلى بني جابر مبلغاً معيناً من المال في كل عام. ويعتبر سيد بني جابر سيد داخل عُمان بأجمعه تقريباً من البحرين إلى ظفار. ويغزو البدو بلا هوداة واحات نجد، ويعيشون جزئيّـاً من الأتاوة التي فرضوها على الحضر وجزئياً من السلب.

وكانت قوة بني جابر مصدر قلق لسلطنة هرمز. ولم يكد خواجا عطا يتسلم السلطة حتى فكر في قمعهم. وفي شهر أيلول سنة ١٥٠٧، أذاع علناً في هرمز بوجوب أسر البرتغاليين أحياءاً، تحت طائلة عقوبة الموت. وكان قصده أن يحارب بني جابر بهؤلاء الأسرى. وفي سنة ٩١٧هـ/١٥١١م، ترأس حملة استرجاع البحرين التي جاءت نتيجتها موقتة. ولا يقل خطورة عن ذلك شغب أمراء بني جابر الذي يثار بسرعة ويهدد البنادر العُمانية. وفي عام ١٥٠٧، بادر شيخ من بني جابر إلى نجدة مسقط التي احتلها البوكيركيه. وكانت صحار تجابه ضغط البدو. وفي سنة ١٥٢٢، انتهز أمير عظيم من بني جابر، هو الشيخ حسين بن سعيد، فرصة الثورة في هرمز، ورأس ٣٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة وتحالف مع البرتغاليين واحتل صحار.

ووردت في كتاب التعليقات لبراس دي البوكركيه، معطيات تنطبق مبدئياً على حالة أعوام ١٥٠٧ ـ ١٥١٥، تتضمن أن شيخ بني جابر الراحل، أخضع جميع جزيرة العرب الشرقية. وكان له ثلاثة أنجال، يحمل أكبرهم اسم والده، ويحكم عُمان وفرتك وظفار برضى شقيقيه واعترافهما، وهما يقيمان في الخليج العربي. ويملك أحدهما البحرين والقطيف بعد انتزاعهما من سلطنة هرمز. ولم تثبت صحة هذا الخبر إلا فيما يتعلق بالأمير مقرن، الذي ذهب أسطول برتغالي هرمزي لإقصائه عن البحرين سنة ١٥٢١م، وهي المناسبة التي فقد فيها حياته.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـل الرابـع

سلطنة هـرمـز البشـرية

سلطنة هرمز عربية بأكثرية سكانها الساحقة، على الرغم منْ وجود أقلية غريبة ضئيلة العدد في بعض أرضها، وبلغتها العربية المحكية على المستوى الشعبي، والمستعملة في العلاقات الدبلوماسية، وإن كانت الفارسية تستخدم أحياناً إلى جانبها في بعض العلاقات الدولية، وبسلاطينها المتمسكين بأصلهم العربي وانتمائهم إلى النبي هود وإلى القبائل العدنانية، وبجيشها العربي الذي يُجْمَعُ في الحروب من ساحل عُمان (قلهات) وساحل جلفار والأحساء، وينطلق إلى ميادين المعركة، حيثما كانت، بسفن عربية تبحر من جلفار والقطيف حصراً.

ويحسن بنا أن نلقي نظرة إجمالية إلى أوضاع هذه السلطنة البشرية، ثم ننتقل إلى نظام الحكم فيها، ونستعرض بعده أحوال السكان في المدن.

أولاً ـ نظرة إجمالية إلى سلطنة هـرمـز البشرية

اتخذ التباين بين جماعة بشرية وجماعة أخرى، مهما كان ضئيلاً، سواء في الوسط الطبيعي أو في العادات أو في غيرها من الوجوه، شكلاً حاداً، عدّ شرخاً أصاب مجتمعات القرون الوسطى عامة، ومجتمع هرمز خاصة، وقطعاً، كان التعايش الثقافي في جزيرة جرون متقدماً جداً، يتجلّى في كثير من خصائص الحضارة المادية: كهندسة المباني المتعددة الطوابق، التي تتميز بها مدن جزيرة العرب، ولبس الجلباب الطويل الأبيض المألوف في الزي العربي، الذي يختلف عن لباس سكان إقليم فارس، وكاستخدام اللغتين العربية على نطاق واسع والفارسية على نطاق محدود في سلطنة هرمز. على أن الاختلاط الاتني قديم جداً في منطقة الخليج. وكانت سلطنة هرمز عربية منذ العصور القديمة، واستقر فيها السكان العرب منذ أزمنة واغلة في القدم على ضفة الخليج الشمالية، وانتشروا على سواحله الشرقية والغربية. ولم تخل بعض أماكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سكنهم من بعض الفرس.

لكن كانت تبرز مجابهات عرقية بين العرب والفرس في الأزمات الاقتصادية أو السياسية. وهذا ما جرى في العقد الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، عند حدوث صراع على السلطة بين جزيرة قيس وسلطنة هرمز. فقد أسرت جماعة من قيس، غدراً، السلطان كردان شاه وأعلن أهالي «بندر هرمز» أنهم لن يخضعوا، ما داموا أحياءاً، إلى الناطقين باللغة العربية، ورفضوا حكم العرب المستبدين وسلطانهم، وأرادوا انتصار الفرس.

وكان جاوو دي باروس مشبعاً بفكرة وجوب معاقبة جزيرة العرب لأن محمداً ولد فيها، وفكرة وجوب الاقتصاص من فارس لاعتناقها الإسلام. فرفض التأويل الذي يفرط في تسليط الأضواء على التوتر الطارىء بين الفئات الاتنية في الخليج العربي. مع ذلك لا ينازع أحد في أن الازدواج العرقي الذي رضي به المراقبون البرتغاليون وردّدوه، أدى إلى حصول توتر حاد يتجاوز مستوى الحقد العابر، فكانت الخلافات بين الشيوخ العرب والأمراء الفرس، تمدّ جذوراً عميقة تصل إلى بنية سلطنة هرمز.

على هذا الأساس، يمكن التوصل إلى إدراك قيمة ملاحظة تنريرو عن وظيفة سلطان هرمز، الذي يعتبر رمز ممارستها المزدوجة. وإذا كانت سلطنة هرمز مرتبطة بكرمان سياسياً واقتصادياً، فأصل سلالتها الحاكمة عربي. ويقول فرانسوا غسبار داكروز في مختصر الحولية المحلية التي ألّفها توران شاه الأول إن سلاطين هرمز يفخرون جداً بانتسابهم إلى عرق قديم قدم عرق سلاطين عُمان، ويقولون إنهم ينتسبون إلى سيد عاش في جزيرة العرب يسمى قحطان. ويعبّر لقب أرفخشد شاه الغريب، الذي اختاره السلطان شهاب الدين، عن تمسك سلاطين هرمز بأصلهم العربي الجنوبي. فأرفخشد جدّ قحطان الأسطوري، وجدّ النبي هود، الذي ينتسب إليه السلطان عز الدين كردان شاه، معيد السلالة إلى الحكم في مطلع القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. ويسمي نمديهي السلطان سلغرشاه الأول سليل هود أعظم وأمجد أجداد بني قحطان.

ويلحّ سلاطين هرمز على إبراز أصلهم العربي، مما يدلّ على أن الحكم يحرص على التفريق بينه وبين بطانته غير العربية، وعلى إرضاء العنصر العربي، الذي يؤثر في شؤون السلطنة، وإن كان وضعه أضعف من وضع العنصر الفارسي لأسباب شتى.

ولا تعوّض الانقلابات، التي يحاول العرب إبراز ثقلهم السياسي فيها، عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضعف سيطرتهم على الاقتصاد الهرمزي. فالطريق الوحيدة، الواقعة من جهة الجانب العربي، التي كان أمنها أساسياً لنشاط سلطنة هرمز، هي الطريق التي تسلكها المراكب، لضرورات الملاحة، وتجاري فيها شواطىء عُمان. لذلك مالت تلقائياً كل سلالة سيطرت على الخليج العربي حتى ذلك التاريخ، إلى احتلال الواجهة البحرية العُمانية. وفي حقبة سيادة سلطنة هرمز، لم يقم حكم في عُمان يستطيع أن يزاحم سلاطين جرون على حيازة الساحل واحتكار التجارة. على صعيد آخر، توخّت هرمز الاحتفاظ بسيطرتها كاملة، فحظّرت على الشيوخ العُمانيين الحصول على أي منفذ حرّ على البحر. وكانت تقمع بسرعة كل محاولة منهم لشق طريق إلى الساحل. وكان شيوخ الداخل يعتمدون على الساحل في مشترياتهم ومبيعاتهم، ولا يسعهم أن يفعلوا شيئاً إن لم يكن إجراء مناوشات بين الفينة والأخرى. وتنفتح عُمان الداخلية على صحارى جزيرة العرب، ولا يخترقها أي شريان مواصلات هام، فلا تستطيع، خلافاً لأمراء إقليم فارس، أن تهدّد هرمز بإغلاق الحدود معها.

بالفعل يعدّ تاريخ سلطنة هرمز أيضاً تاريخ طرق القوافل التي تنتقل بين الخانات وواحات النخيل. فتبدأ من شيراز أو كرمان أو يزد، وتمرّ بالهضاب القاحلة والمحاصب التي حرقتها الشمس في الجرمشيرات (المناطق الحارة)، وتتجه إلى رملات موغ أشتان أو أجوان ساحل اقليم فارس أحيانا.

ففي سبيل إبقاء المواصلات حرّة على طرق القوافل، ظلّت سلطنة هرمز تؤدي إلى جاراتها، بصرف النظر عن حجم القوافل وعن حركتها، «مقررية» ضئيلة جداً. وعرّف دييغو دو كوتو هذه «المقررية» بأنها مبلغ من المال يدفعه سلاطين هرمز إلى ملوك آخرين، لتأمين حرية مرور السلع في أراضيهم. وما دام للطرفين مصلحة بحريّة مرور القوافل، كان بوسع سلطنة هرمز أن تعرض على الطرف الآخر مقررية رمزية، لأن إيقاف حركة المرور يلحق الضرر أيضاً بالجهة التي تتحمل مسؤولية منعها، لأن واردات جماركها تنخفض بسرعة، وتقلّ الصفقات التجارية عندها. وتندر المواد المستوردة إلى أسواق مدنها الكبرى عن طريق جرون. وكانت حالة الحرب بين سلطنة هرمز وبين ملوك فارس تنتهي دوماً باتفاقات لصالح سلطنة هرمز التي كان سلاطينها يدركون مناعة عاصمتهم في جزيرة جرون وحماية المناخ الرهيب في الجرمشيرات لهم في أثناء الحملات العسكرية الطويلة، ويحتقرون إنذارات ملوك شيراز أو هراة أو تبريز باسم السيادة المبدئية على سلطنة هرمز. ففي أثناء القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الملادي، اعترف سلاطين هرمز على التوالي بالتيموريين والخروف الأسود (قره

قويونلو) والخروف الأبيض (أق قويونلو)، ثم بشاه اسماعيل في مطلع القرن السابع عشر، دون أن يؤثر هذا الاعتراف في استقلالهم الفعلي.

أما طبيعة علاقات سلاطين هرمز بالاقطاعيين على السواحل، فأكثر تعقيداً. ولتحاشي الوقوع في الخطأ، لا يجوز تعيين حدود خطية لتأثير هرمز السياسي، لأنه كان يصل إلى الواحات الداخلية المزدحمة بالسكان، وإلى طرق البرازين (البغال) والدروب الجبلية، بعيداً جداً عن المقاطعات التابعة لبلاط جرون. وكانت جرون تحتكر المبادلات مع الهند، وتدخل الخليج في شبكة من المصالح والضغوط، تفوق قوتها قوة التبعيات السياسية والمؤامرات التي تُحْبَكُ بلا انقطاع وتنحلُّ وتزول.

وعند وصول البرتغاليين، كانت سيطرة سلطنة هرمز على الساحل الكرماني أضيق مما كانت عليه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ففي شمالي الخليج، كانت إمارة ريشهر غنية بزراعتها ويدعمها شاه اسماعيل، فصارت عميلة الطموحات الصفوية باتجاه جزيرة العرب. وكانت انطلاقة ملوك اللار نحو البحر أخطر وأقدم. وقد نشأت قوتها عن ازدهار سلطنة هرمز. فنجحت طريق جديدة بين هرمز وشيراز، عبر اللار، في مزاحمة دروب العصور الوسطى العليا، وتحولت اللار (دار المعدلة) إلى مدينة ـ مرحلة. ولم يستوف ملك اللار رسوماً على السلع المارة في أراضيه، حسب جيرولامو دا سانتو ستيفانو في عام ١٤٩٨، بل كانت الحركة التجارية كافية لإنعاش المدينة التي كان سكانها يتعاطون التجارة البحرية منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وعشية وصول البرتغاليين، كانت عملة اللار الفضية أي اللاري، متداولة على جميع سواحل بحر الهند. وكان اشتراك التجار والمرتزقة اللاريين في شؤون الدكن كاملاً. وكان ملوك اللار أسياداً على احتياطيات بشرية بلا عمل، على أراضي الجرمشيرات القاحلة. ففكروا أن يوحدوا تحت سلطتهم الإمارتين المتوسطتين العائشتين من التجارة مع الهند. ونجحوا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في بسط سلطتهم على المقاطعات الواقعة مباشرة وراء السلسلة الساحلية، وتقدّموا أحياناً حتى بنادر الساحل الصغيرة. وضغط أتباعهم أمراء أيلود، أقوى زعماء لارستان الجنوبية الشرقية، على مقاطعة لشتان التي استولى أحدهم عليها في النهاية سنة ١٥٤٦.

وحافظت سلطنة هرمز على هيمنتها بإخضاعها ساحل كرمان في الخليج العربي إلى رقابة لا تقلّ شدّتها عن الرقابة التي خضع لها ساحل عُمان. وفرضت حظراً شديداً

على المواد التي نسميها ستراتيجية، كالخشب، والمجاديف، وخيوط جوز الهند، والحديد، والفولاذ، والأقمشة. وبذا أعيق بناء سفن الأساطيل المحلية الصغيرة. فإذا نشبت حرب، أو هدّدت بالنشوب فقط، تتوقّف حركة المراكب التجارية، لأن تفتيشها في أحد الموانىء، يحتمل أن يتيح للعدو التجهّز بالقوة البحرية. فبفضل هذه الاجراءات الدقيقة، لم يتمكن أبداً، لا ملوك اللار، ولا حكام فارس من تجميع طرّادات بعدد كاف لإنزال قواتهم البرية في جزيرة جرون. أما تجمّع السفن العاملة في خدمة سلطنة هرمز، فقد كان يتم على الساحل العربي في جلفار والبحرين. وهذا ما يعلل انعدام وجود تكتلات سياسية في هذا الجانب من الخليج، يراودها القيام بمغامرات بحرية.

وسمحت هذه الاحتياطات لسلطنة هرمز بأن تعتمد على الأقليمية المحلية دون مجازفات وإذا استثنينا قلاع موغ أشتان، التي يتولاها قباطنة لهم مرتبات، فإن الفرضات الهرمزية في أراضي كرمان تخضع لسلطة أسياد صغار محليين. فهذا كان وضع جاسك وججين على ساحل مكران، اللتين كانتا تضعان رجالهما في خدمة سلاطين هرمز، أو وضع شيلاو، المدينة الصغيرة المزدهرة التي يؤمن بندرها مواصلات مقاطعة فال ومواصلات مقاطعات اقليم فارس الجنوبي غير الخاضعة لنظام وصاية ملوك اللار. وللفاليين الذين يؤثّرون في جزيرة جرون، في دوائرها المدنية أو في قياداتها العسكرية، تأثيراً واسعاً، مصالح اقتصادية في البحرين، التي يستعمر فيها الفرس السكان العرب الذين يسوءهم هذا الوضع، ويفضّلون اختيار حكامهم من الارستقراطية الأهلية.

وفي عُمان، اتصفت العلاقات بين مدن الساحل وبين البدو بإنعدام الثقة، فأصبح الوجود الهرمزي احتلالاً أقل مرونة من الاحتلال القائم في برّ كرمان. لذلك تراس العرب ثورات القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، ضدّ الاستبداد السلطاني، لكنهم استفادوا أقل من الفرس من التخفيف الذي فرضته الحروب الأهلية على نظام الحكم.

بالفعل، يتفوق الفرس كثيراً في حاشية السلطان وفي الإدارة. وتدلّ أسماء أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة (شبانكاري، إيجي، طارمي، فالي، خنجي) أن أصلهم من أقليم فارس حصراً تقريباً. ويستخدم الديوان السلطاني اللغتين العربية والفارسية في مراسلاته وفي أعماله الرسمية. لكن تثبت هذه الوثائق ذاتها أن اللغة الفارسية مصقولة أي متقنة أكثر من اللغة العربية. أما الثقافة الإسلامية فصفتها فارسية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في سلطنة هرمز. ولا تستطيع البحرين ولا عُمان مضاهاة المراكز الصغيرة للثقافة العربية الفارسية السائدة في فارس الجنوبية، مثل أيج وخنج وفال، التي تختار سلطنة هرمز منها موظفيها المؤهلين. ولا يتضح توزع المسؤوليات في عُمان بين الشخصيات المحلية وبين خصيان السلاطين أو الوجهاء الفرس، وهم وزراء معاونون لشيوخ المدن الساحلية أو الرؤساء العسكريين. مع ذلك تبيّن بجلاء أن بعض هؤلاء يتململون من سيطرة هرمز، وأنهم سوف يستفيدون من نظام الحماية البرتغالية، لمحاولة استبدال التأثير الفارسي بالتأثير العُماني في جرون، مقابل مساعدة البرتغاليين. وفي وقت قريب، سوف تسهّل الخصومة بين الوزراء المسقطيين والوزراء الفاليين سيطرة البرتغاليين على سلطنة هرمز.

ثانيـاً ـ نظام الحكم في سلطنة هـرمـز

تصوّر البرتغاليون النظام السائد في سلطنة هرمز تصوّراً مشوهاً وناقصاً.

فكوريا يؤكد أن حكام سلطنة هرمز درجوا على تنصيب الأطفال سلاطين، وأنهم كانوا أقوياء في كل شيء. وعندما يكبر السلطان الصغير، ويبدأ بالاهتمام بسلطنته، يُعْمَى، وينصّبون نجله سلطاناً محله، إن كان له ولد، وإلا وريثاً آخر مباشراً حدثاً أيضاً. وبذا كان الحكام دوماً هم أصحاب السلطة الفعلية.

كذلك كتب تنريرو يقول: كان سلاطين هرمز يقيمون باستمرار في هرمز ذاتها، ولديهم حاكم يسمونه وزيراً، يدير شؤون السلطنة، لأن السلاطين لا يهتمون بها، ويُسْتَخْدَمُون صورة فقط لتسهيل إدارة البلاد بسلام. وإذا أراد السلاطين التدخل في الحكم أو الاستقلال به مثل سائر سلاطين العالم، تُعْمَى عيونهم، ويعالون من واردات السلطنة، وينصّب نجلهم سلطاناً، إن كان لهم ابن صغير، أو أقرب أنسبائهم، الذي تعمى عيناه إذا أراد أن يتدخّل في حكم البلاد.

ويدوّن كستنهيدا الذي يعتمد على تنريرو، الملاحظات ذاتها، ركيكة، ويضيف بعض التفاصيل ويقول: يقيم سلاطين هرمز دوماً في هذه المدينة. ولهم وزراء يحكمون المدن الأخرى. وكان لهم في مدينة هرمز ذاتها وزير يسيّر القسم الأعظم من شؤون السلطنة، لأن السلاطين لا يفهمون شيئاً في إدارتها، ولا يستخدمون إلا صورياً، ليحكمها الوزراء بسلام. وإذا أراد السلاطين التدخل في الحكم أو الانفراد به مثل سائر السلاطين، فإن وزير هرمز الجديدة ـ وهذا اسم حاكم هرمز الفعلي ـ يأخذهم ويعميهم، وينقلهم هو ووجهاء السلطنة إلى دار مخصصة لهذه الغاية يُعَالون فيها من

واردات السلطنة، ثم ينصّبون سلطاناً جديداً، هو نجل السلطان المُعَمَّى، إذا كان له ابن، أو أقرب الأشخاص إليه نسباً، الذي يعامل المعاملة ذاتها إذا أراد أن يحكم. وعلى هذا النحو، كانت تلك الدار تحوي سلاطين سابقين عميان على الدوام. وكان السلطان الجالس على العرش يعيش دوماً في رهبة الخوف من هذا المصير.

وصحيح أن الأوليغارشية الوزارية في القرن السادس عشر، كانت تتنازع على حكم السلطنة باسم سلاطين دمى. إلا أن المؤلفين البرتغاليين اعتبروا ما كان نهاية جديدة وحديثة، قاعدة أساسية. فحديثة كانت ممارسة الإعماء. وهي إحدى الطرق الباقية التي لجأ إليها الشرق، لعدم وجود مبدأ وراثة متعارف عليه، ونشرها المظفريون في اقليم كرمان في القرن الرابع عشر. ولا يوجد دليل يثبت أنها طبّقت منهجياً في هرمز قبل النصف الثاني من القرن الخامس عشر. أما تنصيب أطفال السلاطين، فلم يظهر إلا في مطلع القرن السادس عشر، عند عدم وجود أي راشد قادر على تسيير الحكم. وتركز المصادر التاريخية الفارسية على الأحداث السياسية في عهد السلاطين وعلى سلوكهم. وتسلّط المصادر التاريخية البرتغالية الأضواء على شخص الوزير البالغ الأهمية، فلا تعطي لا هذه ولا تلك صورة أمينة عن القوى الاجتماعية التي يرتكز تحركها على التوازن السياسي في سلطنة هرمز. ولجاوو دي باروس وحده الفضل النادر باعتباره مؤرخاً إنسانياً، بالاهتمام بماضي الشعوب الشرقية. وقد جمع من أجل العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر، أخباراً تتمّم أخبار المؤرخ الهندي الهرمزي نمديهي، وتكشف حالياً جانبا من الخلفية الأجنبية لمصائب السلالة الحاكمة.

ولم يتخاصم التجار وأرباب المهن ورجال الدين أبداً في سلطنة هرمز، لا في أزمات القرن الخامس عشر، ولا لاحقاً في المعارك ضد البرتغاليين. وتذكر المصادر التاريخية المتوفرة لدينا أن النزاع ينشب بين السياسيين والعسكريين. ولا يعزى هذاالحصر إلى النمط الشائع في حقبة تدوين الأحداث التاريخية عند الهرامزة والبرتغاليين، بل إلى الصفات التي يتميز بها مجتمع سلطنة هرمز.

فالتجـــار طبقة اجتماعية، لم تحاول في أي مكان في الشرق في القرون الوسطى أن تستولي على الحكم، ولم تتصور نظام حكم إلا النظام الفردي على الطريقة الشرقية. وهم يعتبرون الوظيفة الاقتصادية مختلفة عن الوظيفة السياسية. ويتميزون بالورع في الغالب، ويؤيدون تحفظات الوسط التقي بشأن الالتزام بالتسويات الدنيوية التي تقتضيها المهام السياسية. ولا تؤدي طبيعة النشاط الاقتصادي الذي تدين له هرمز

بوجودها، كما هي الحال أيضاً في سائر البنادر التي تشكّل دولاً في بحر الهند أو على سواحله، إلى إحداث تبدل سيكولوجي اجتماعي، يؤول إلى جعل النظام السياسي يختلف عن النظام السائد في العالم الإسلامي أو في العالم الهندي. فليست جزيرة جرون جماعة مدينية تديرها هيئة قنصلية، ولا تعطي صورة مجموعة تجارية شبيهة بالصورة التي تعطيها المدن الاوروبية. بل يبرز فيها انفصال ما هو اقتصادي عما هو سياسي انفصالاً أوضح حسياً مما هو عليه في الهند المسلمة التي كانت فيها التجارة في الغالب مرقاة إلى المناصب العامة العليا. مثال ذلك يمكن أخذه من منطقة استعمارية، صلتها وثيقة بأنشطة سلطنة هرمز، نعني الدكن البهمني: ويتمثّل في مصير وزيرين شهيرين من القرن الخامس عشر، هما تاجر الخيل خلف الأحسائي، ورجل الأعمال محمود جافان. مع ذلك لا بدّ أن نشير إلى أن ترقية ممثلي المصالح الاقتصادية الكبرى إلى وظيفة رئيس ديوان، وتعيينهم بعد ذلك مجموعة من الموظفين في ملاكه، لا يقتضيان إعادة النظر في الطبقات الاجتماعية المؤيدة لمبدأ الحكم الفردي. ويحدث ذلك أيضاً في دول النموذج الاستعماري مثل المملكة البهمنية، المؤسسة حديثاً جداً من طبقة عليا لا جذور لها. وأما هرمز فعلى نقيضها، فهي إمارة قديمة حافظ تطورها الهامشي، على الأقل جزئياً، على بعض البنيات القديمة. وتختلف سلطنة هرمز عن بلدان هضبة إقليم فارس التي حطّم توالي الاجتياحات التركية الأطر الاجتماعية فيها، وقضى على الارستقراطيات المحلية. فهي إحدى السلطنات الواقعة على الأطراف التي حافظت على توازن ثابت تستحق دراسته إثارة بعض الفضول على هذا الأساس.

أما السلطة في سلطنة هرمز، فموزّعة بين السلطان وبين طبقة حاكمة، ترتبط في أغلب الأحيان بتحالفات أسرية، وتتألف من أعضاء في الديوان، ومن ضباط في الجيش، ومن كبار رجال الدين، وهم وجهاء من أهل البلاد أو غرباء مقيمون في هرمز أو عبيد سلاطين محررون بالنسبة إلى الفئتين الأوليين.

ومهما عدنا إلى الوراء في تاريخ سلطنة هرمز، يمثّل الجيش فيها، جماعة ضغط، على استعداد في معظم الأحيان لأن تتدخل في شؤون الحياة العامة. ويظهر تدخلها عند شغور العرش على وجه التخصيص. ويتوقف تنصيب السلطان دوماً على الاتفاق بين قوّاد الجيش، أو بينهم وبين الوزير الذي يدير الدولة. لأن السلطان يتنازل له على العموم عن مهمة تسييرها. ويكتب البريد الرسمي الذي تتلقاه حكومة سلطنة هرمز على نسختين، تعنون إحداهما باسم السلطان والأخرى باسم الوزير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما حالة رئيس حرفة تجار السمك، الذي نصّب وزيراً في عهد محمد شاه الأول (حول ١٣٧٠ ـ ١٤٠٠م)، فحالة فريدة، يعلّلها بلا ريب الحرص على إيقاف تجاوزات الأوليغارشية. وقد تعاقبت ثلاث أسر على الوزارة في القرن الخامس عشر: هي آل البغدادي، وآل إيجي، وآل فالي. وتدلّ تسمية آل البغدادي على أصل هذه الأسرة العراقي. لكن نجهل الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها. وأسياد آل إيجي من شبانكارة. وقد تخرجوا من مدارس شيراز، المنفتحة جداً على الاتصالات بالشرق العربي.

وتوّسط آل إيجي في الحرب بين هرمز والتيموريين بين عامي ١٤٣٧ و ١٤٣٩، فبان أنهم يشتركون في تسيير شؤون الخليج. ويتمتعون بالتالي بداهة بثقة جزيرة جرون التي تتلقى نخبة مفكريها وثقافتها من مدارس شيراز. فالفقهاء والأدباء الهرامزة مطلعون على خفايا قضايا الديوان، وعلاقاتهم مربحة بأوساط الأعمال. وهم حائزون على ثقة السلاطين، ويتوسطون لإنهاء النزاعات والمحافظة على المواثيق. مع ذلك، كان كبار رجال الدين أساتذة روحيين محترمين، تحيط بهم هالة من القداسة وأصحاب نفوذ عن طريق تلامذتهم أو يشغلون على مستوى أدنى وظائف قضاء أو يعملون مدرسين، ويندر أن ينشطوا في السياسة لمصلحة السلطة، ما عدا قيامهم ببعثات سرية أو ببعثات دبلوماسية استثنائية. فلا عجب إذا استلم نور الدين إيجي الوزارة في سلطنة هرمز في فترة حرب أهلية ولمدة قصيرة وتعيسة.

ووصل آل فالي إلى الصدارة في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، وبرزت منهم أسرة توارثت الوزارة أباً عن جدّ من سنة ١٤٧٥ حتى انهيار سلطنة هرمز سنة ١٦٢٢. ومثّلت أفضل فئة بين طبقة مالكي الأرض، وكانت المفاوض الرئيس باسم السلطنة ودرعها الحصين. مع ذلك كانت مخلصة لرمز السلالة الحاكمة لا لسلطان معين، وميالة إلى خداعه وإلى فرض دعم جماعة عليه وخلق تلك الجماعة، إذا ساعدت الظروف. وتستمرُّ هذه الطبقة وتراقب الدروب. وعلى الرغم من دخولها في المجالس وقيامها بالمهام العامة ومن اشتراكها في المفاوضات التجارية، فقد بقيت متأثرة بطابع الذهنية الاقطاعية، أي روح الاقليمية المفاخرة والمحاربة.

وكانت جماعة آل فالي متفككة، تمزّقها (حتى ضمن أسرة الوزراء الفاليين) الطموحات أو الخيارات السياسية المتناقضة، وتلتقي مع نفسها ومع الأمراء العُمانيين في معاداة الكتلة التي يشكلها سلاطين هرمز لمقاومتها، أي تكتل غلمان من عبيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخصيان، فيؤلفون إلى جانب القوات الإقطاعية جيش السلطان الخاص أو ضباطه، ويشغلون وظائف الإدارة إلى جانب أعضاء الأسر الكبيرة أو يعدّون موالين لها. وليس لغلمان السلطان المحررين صلات اجتماعية، وهم ميالون بطبيعتهم إلى خدمة السلطنة المطلقة (إذا لم يتجابهوا كفئات اتنية). وقد تقلص دورهم في سلطنة هرمز بعد ثورة ١٤٣٦ التي نتجت عن سياسة سيف الدين المركزية والمفرطة في البذخ وبعد ثورة ١٤٧٥ التي أشعلها «استبداد» شاه أويس ومستشاره خواجا عطا. في النهاية، لم يضمنوا استقرار السلالة الحاكمة، وأوشكوا أن يوجّهوا لها الضربة القاضية، وأن ينجرفوا في تيار تخريبها. وسحق حكم الخواجا عطا (١٥٠٥ ـ ١٥١٣)، بدعم الخوارزميين، ثورة الحرس الحبشي، وأوصل حكمه قوة غلمان السلطان إلى أوجها. وبعد وفاة خواجا عطا استرجعت الارستقراطية التقليدية السلطة التي صار ضباط ملك البرتغال ينازعونهم عليها.

وتتعاطى الطبقة الحاكمة، بما فيها العائلة المالكة، التجارة. وفي مطلع القرن السادس عشر إن لم يكن قبله، تولّى الوزير نور الدين الفالي إلى جانب رئاسة الحكومة وظيفة مدير الجمارك، التي لا يتقاضي راتباً عنها، بل يكافأ من العمولات المستوفاة على الصفقات التجارية التي يشرف عليها رسمياً. ففي سنة ١٥١٥ عندما أراد البوكيركيه أن يبيع التوابل التي جلبها من الهند، وزعت بضاعته على تجار هرمز الرئيسين بعناية الوزير. وقال العميل البرتغالي سنة ١٥٢٨ ما يلي: تمثل الجمارك المصدر الرئيس لواردات سلطان هرمز، التي تعيله طيلة السنة، هو وضباطه وأمراؤه، لأنه ليس لديه موارد أخرى أو واردات، نظراً لجدب البلاد. ويجني السلطان عملياً من أملاكه واردات قليلة بالمقارنة بما يحصل عليه من الجمارك. في النهاية، القصر قوي بجماركه.

وفي هذه الظروف، لا يشكّل التجار المحترفون جماعة مُبَنْيَنَة قانونياً. لكن هذا لا يمنعهم من تعديل خط سياسي تكيّفه ضروراتهم في معظم الأحيان. ومع أن الأمراء يتقدمون على التجار في بلاط جرون، فإنهم يشتركون بطريقة تسيير الأعمال الإدارية، وبالمساومات الحكومية على نطاق واسع، خلافاً لما يجري في أكثر القصور الأخرى. وليس أكيداً أن المقيمين الأجانب (الذين تخضع أموالهم إلى حق الوراثة الطارىء) يتمتعون بثقة تقلّ عن الثقة بالتجار الهرامزة. بالفعل تفكّر الطبقة الحاكمة تفكيراً ينسجم مع العلاقات الدولية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويندرج مجتمع سلطنة هرمز، بصرف النظر عن المسائل المحلية، في نظام اجتماعي واقتصاد صلاته معقدة جداً، تحترم فيها مبادىء الاستقامة والتضامن التي فوجىء البرتغاليون باكتشاف قوتها ومزيتها. وتبين لماهوان الصيني أن الموظفين المدنيين والضباط العسكريين في سلطنة هرمز أرقى بكثير من سواهم في الأماكن الأخرى على سواحل بحر الهند. وأشار تنريرو، بعد مضيّ قرن، إلى أن العدالة مطبّقة بدقة على الجميع. وكل من يخالف تحديد الأسعار أو يغش في وزن السلع، يلقى عقاباً شديداً. وهذه الظاهرة مزيّة صغيرة، لكنها ليست وحيدة في الأمانة التجارية في سلطنة هرمز.

وعلى وجه الإجمال، يسود في هرمز قانون الأعراف الذي يتحكّم في المجتمعات التجارية على ساحل بحر الهند. ويظل أقوى من السلطان ومن الأمراء. ومدينة هرمز الجديدة منيعة في جزيرتها وتسمى «دار الأمان» أو بندر الأمان.

ثالثاً ـ أحوال السكان في المدن في سلطنة هـرمـز

قطعاً، بلغ عدد سكان مدينة هرمز الجديدة ٥٠٠٠٠ نسمة في مطلع القرن السادس عشر. ويقضي هذا الرقم بوضع تجمعها البشري في طليعة تجمعات جميع بلدان الخليج العربي، بل إنها تتقدم كثيراً عليها كافة. وفي عام ١٥٥٤، قدر عدد بيوتها بـ ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ بيت، أي أنها تضم ٥٠٠٠٠ نسمة في أضعف الاحتمالات. ويذكر الأخباري كوتو الرقم ذاته لآخر القرن ذاته. مع ذلك، في عام ١٥٤٠، ظن سفير البندقية ميشيل ممبريه، الذي عاد من فارس إلى أوربة عن طريق جوّه، أنه يستطيع أن يخمّن سكانها بـ ٢٠٠٠ بيت فقط. ويجوز تعليل ضعف تقدير السفير بتراص البيوت الشديد في هرمز الجديدة، التي كانت تبدو للرحالة أقل سكاناً مما هي عليه فعلاً، مثلما أشار إلى ذلك بنباهته المعهودة د. غرسيا دي سيلفا أي فيغويرووا الذي خمّنها بـ ٤٠٠٠٠ نسمة في مطلع القرن السابع عشر، في حين كان سكانها يتناقصون آنذاك، ويتراوحون بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ بيت، عدا أكواخ الفقراء، أي بمعدل ١٣ ـ ١٦ شخصاً في البيت الواحد. وهذا الرقم مقبول تماماً، إذا علمنا أن عدداً كبيراً من البيوت إنما هو مباني تتألف من عدة طوابق ويؤوي الواحد منها عشرات الأشخاص. وصحيح أن احصاءاً سجل في وقت متأخر في الحقيقة، ويعود إلى الحقبة ذاتها، أعطى ٣٠٠٠ بيت، منها ٥٠٠ بيت برتغالي، و ٣٠٠ بيت هندي مسيحي، و ٨٠٠ بيت وثني، و ٢٠٠ بيت يهودي والباقي (١٢٠٠) مسلمون.

وتدفع هذه الأقوال إلى التساؤل عن مدى تأثير الحماية البرتغالية في تركيب السكان الاتني في مدينة هرمز الجديدة. ويبدو أن هذا التأثير أدّى إلى تطور عددي، فعلي ومحتمل، لدى عناصر السكان غير المسلمين. وهذه الناحية ثابتة عند الطائفة اليهودية، ومرجحة جداً عند الهنود، وإن كان ما يزال يتحتم تحديد سعة التغيّر الحاصل تحديداً دقيقاً. مهما يكن، وجدت الجاليتان قبل مجيء النظام البرتغالي. والمؤسسات اليهودية في مدن الخليج قديمة. وأبرز جيرولامو دا سانتو ستيفانو عام ١٤٩٨، أن سكان جرون يضمون يهوداً و«وثنيين» إلى جانب الأكثرية المسلمة وكان اليهود يصنعون العرق، الممنوع في الإسلام. وقد استقروا في الخليج العربي وفي البحر الأحمر قبل قدوم الأوربيين بكثير. ويذكر عبد الرزاق السمرقندي سنة ١٤٤٢ وجود «كفار» في هرمز. ووصف مؤرخ فارسي هرمز بسخرية في آخر القرن الخامس عشر، واعتبرها بلاد الهنود. وكانت خورفكان سنة ١٥٠٧ مقر جالية كبيرة من التجار الجوزراتيين. ويرد «ريع» الجوزراتيين الذين يؤدونه ليعيشوا حسب معتقدهم في قائمة واردات سلطنة هرمز.

وتعد سعة الهجرات، حسب الظروف أو الفصول، صفة مميزة لحياة مدينة هرمز. ففي عام ١٥٢٢، في أثناء الثورة الكبرى على السيطرة البرتغالية، انتقل السكان كلهم تقريباً إلى جزيرة قشم، التي وضع مشروع بناء عاصمة جديدة فيها. ويمكن تنفيذ هذه الفكرة، تقنياً وسيكولوجياً، كالفكرة التي أدّت قبل قرنين إلى نقل هرمز العتيقة إلى جزيرة جرون. وليست مستغربة. والأمثلة كثيرة في بلدان إقليم فارس على تبديل الحاضرات إلى مثل هذه المشاريع الحاسمة في سلطنة هرمز، كما في مدن الشرق الأخرى، بل تحدث تبدلات بارزة في المستوى الديمغرافي. ففي سنة ١٤٣٧، عندما طردت الثورة السلطان سيف الدين، لجأ إلى البر (الساحل)، فتبعه ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ شخص غير العلماء والأمراء وأهل الطرب والجند والزنوج وأبناء العبيد (المولّدين) والتجار. وفي زمن البرتغاليين، أدّت الأزمات الاقتصادية، قبل سياسة الاختناق التي اتَّبَعَها الشاه عباس، إلى انخفاض موقّت في عدد السكان. ولاحظ القس دي هيريديا سنة ١٥٥٤، أن عدد البيوت في هرمز الجديدة هبط من ١٠٠٠٠ أو ١٢٠٠٠ بيت إلى ٣٠٠٠ بسبب الهجوم العثماني البحري الحديث. وعندئذٍ فرغت كلياً.

وتتميز جميع منطقة الخليج العربي بعدم استقرار السكان، الذين يبادرون إلى هجر مساكنهم عند اختلال الأمن أو عند حدوث كساد اقتصادي. ولا تشير النصوص

عادة إلا إلى تبدلات تقلّ عن الواقع. ويذهب سلاطين هرمز إلى قصرهم في جزيرة قشم للاستجمام. ويقومون برحلات صيد فيها. ويقصدون البر (الساحل)، ويمضون فيه فصل الحرّ في الغالب. ولا تقتصر هذه التحركات الصيفية على الدائرة الصغيرة للنبلاء أو لحاشية السلطان. ففي الماضي، كما في الحاضر، تخلو هرمز الجديدة من السكان من جراء الهجرة الصيفية الكثيفة إلى البر: فالعمال الشعبيون المهاجرون، يعملون في جني التمور، وتحتمي الطبقات الغنية في ظلال خضرة النخيل من الحرّ الشديد. ولاحظ فيشيتّي سنة ١٥٨٦ أن طبقات الشعب الدنيا ومعظم السكان ينتقلون إلى البر (الساحل) في أشهر الصيف، فيتعذّر إيجاد حرفيين أو ميكانيكيين. ويعتبر أهالي الجزر أن موغ أشتان صحية من شهر حزيران إلى منتصف أيلول. ويقام معرض في ميناب يدوم طيلة موسم جني التمور من شهر أيار إلى شهر آب.

وكان الشيخ المسقطي أحمد بن راشد على حق بأن يقول لدون جاوو الثالث بأن ازدهار هرمز الجديدة يرتبط بسيطرتها على موغ اشتان لسببين: فموغ أشتان، اي البر المقابل لجزيرة جرون على ساحل إقليم كرمان، حوّل سلطنة هرمز إلى دولة متجددة ومزدهرة على الدوام، لأنه المعبر الذي تمرّ فيه جميع الحرائر والسلع النفيسة والأغذية الرئيسة التي تستهلكها مدينة هرمز الجديدة. ويدر كل ذلك أرباحاً طائلة على السلطنة، ويسم البلاد بنبل بالغ. بالفعل تنتهي إلى موغ أشتان جميع الطرق البرية التي تصل جزيرة جرون بمدن هضبة إقليم فارس الداخلية. وإضافة إلى حركة التجارة الدولية تنعقد في بنادر موغ أشتان وفي معارضها وقراها صلات تبعية وثيقة بين جرون وممتلكاتها في البر الكرماني.

وتؤلف موغ أشتان وقشم وجرون رقعة أرض تتم فيها حركة كثيفة تتناول البشر والسلع. فالبحر يقدم السمك ـ والصيد ممتهن كثيراً في هرمز الجديدة ـ وقسماً من الحطب الذي يحرق في أفران المطابخ، لأن التيارات المائية البحرية تنقل حتى شاطىء جرون فتات دغل القرم الذي ينمو على أراضي المدّ البحري في أماكن عديدة من شاطىء كرمان. وتتلقى جرون كل ضروريات حياتها اليومية من جزيرة القشم والبيرونات، من أغذية طازجة وماء شرب ودواجن ولحم وحطب. وتشحن قشم لجرون ماءها العذب وحبوبها وخضار بساتينها وبطيخها وثمارها وزبيب قراها. وتصدر لها نابند مواد غذائية وحطباً وماءاً من آبارها المحاطة بسياج من حبك، له مدخل واحد من جهة القرية، وتتصل حبكه بعضها ببعض بسبب الوحل بممرات تشبه السدود الصغيرة في الملاحات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي قشم يُمْلأُ الماءُ في جرار صغيرة، تُفَرَّغُ بأوعية أكبر منها، ثم تنقل الطرادات ذلك الماء في خزاناتها في رحلاتها المتواصلة إلى مدينة هرمز الجديدة. وعلى رملة مدينة هرمز، يُفَرَّغُ الماءُ من جديد في جرار صغيرة، غالباً ما يغشّها الوكيل، ويقوم بإكمال إملائها بشيء من ماء البحر.

وتستهلك مدينة بحجم مدينة هرمز الجديدة كميات هائلة من الماء، لأنها تحتاج إليه للشرب وللحاجات البيتية والحمامات وسقاية الحيوانات. وبداهة لا يمكن تقدير الكميات المنقولة بالطرادات. فحسب كوريا، تنقل الف «بيبا» يومياً من قشم. لكن يُخْتَلَفُ على قيمة وحدة بيبا. ولا تسمح معلومات كوريا بإعطاء معادل صحيح لها.

أما الماء المتوفر في جزيرة جرون ذاتها، فلا يُستعمل إلا تكملةً. ففي سنة ١٥٠٧ ـ ١٥٠٨، أصرّت سفن التموين بالماء على اختراق الحصار البرتغالي على الرغم من المجازفات الرهيبة. ومذاق ماء تورومباك سيء ويستعمل بالدرجة الأولى لري بستان السلطان. وتشرب منه الطبقة الشعبية الدنيا، عندما تتوقف حركة نقل الماء بالطرادات لسوء أحوال الطقس أو أي سبب آخر. فينقطع وصول الماء العادي إلى مدينة هرمز الجديدة. مهما يكن السبب ضعيفاً، يبلغ ٥٠٠٠ ليتر يومياً، ويقلّ كثيراً عن حاجة السكان. وإذا اعتمدنا على تقدير حجم الماء الإجمالي، كما يمكن حسابه اليوم استناداً إلى آثاره، فإن صهاريج المدينة الجنوبية تمدّ الاستهلاك السنوي بما يكفي ١٨٠٠٠ شخص. لكن يجب أن يضمن إملاؤها. وهذا أمر مشكوك فيه نظراً لعدم انتظام الأمطار من سنة إلى أخرى. بالتالي، لا يؤخذ من هذا الماء الاحتياطي إلا في ظروف معينة، كأن تتوقف خدمات الطرادات، أو أُرِيْدَ تزويدُ الفقراء بالماء في فصل الصيف. وتقفل أفواه هذه الصهاريج، وينظم توزيع الماء. لذلك عندما هدم البرتغاليون قبة الصهريج الكبير، المسمى صهريج خواجا عطا، سنة ١٥٠٨، وسقطت الأنقاض في حوضة الماء الذي فاض وجرى في الشوارع المجاورة، اندس السكان بين المتحاربين لجمع قليل من الماء الثمين مجاناً.

ومع أن مدينة هرمز الجديدة تحصل من أماكن قريبة على معظم المواد الضرورية لغذائها، فهي مضطرة أن تستورد من أماكن بعيدة في إقليم فارس والعراق ما لا يسمح لها الوضع بالحصول عليه محلياً مثل ضيق المراعي ونقص انتاج المواد الغذائية: كالسمن والسكر والقمح والأرز. فالسمن المذوّب يأتيها من البيرونات ومن البصرة ومن ريشهر وبخاصة من السند ومنغلور. وينقل بالأزقاق الكبيرة (تسمى عندهم دبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- **قوارب الجذوع المفرغة**: عندما جرى مسح الوركاء، اكتشفت قطعة صغيرة من نموذج قارب، بسيط الشكل طرفه مستدير، وشفيره أفقي تماماً، فيه تجذيف يثبّت جانبيه معاً، وتوحي معالمه بأنه يمثّل قارب جذع مفرّغ، ربما أذهل وجوده في الأهوار ولو لم يكن فريداً في العالم.

فقد عثر في فلسطين على أربعة نماذج قوارب صلصالية، طول الواحد منها ٤٠ سم، اشترى متحفها ثلاثة منها من بائع أكّد أنه عثر عليها في ضريح قريب من مدينة غزة، وأعاد خبراؤه تاريخها إلى منتصف الألف الثاني ق م. ووجد صياد سمك النموذج الرابع في شبه جزيرة سيناء، قرب سبخة بردويل، وترجّح أنه يرجع إلى القرن ١٣ أو ١٢ ق م.

وعثر على نموذج آخر في مصر التي يندر وجود جذوع الشجر فيها، وهو طويل وضيق جؤجؤه ناتيء وكوثله متشقّق.

وتعد قوارب الجذوع المفرّغة أصل بناء السفن الخشبية، من أبسطها إلى أكثرها تطوراً. فبعد تصور إضافة ألواح خشب إلى القوارب لتوسيعها وتكبيرها، ظهرت أنواع معقدة جداً، أبسطها الجذع المجرّف الذي سدّ طرفاه، ثم رفعا بالنسبة إلى الجزء الأوسط، ثم زيدت ألواح طويلة بين المقدمة والمؤخرة.

- **القوارب الطويلة الضيقة (المشاحيف)**: القوارب الطويلة الضيقة، زوارق صغيرة، مكشوفة من صدرها إلى عجزها، تستعمل للنقل والصيد، ويتنوّع حجمها حسب الغاية من بنائها والمواد المتوفرة لصنعها. ويندر الآن أن يتجاوز طولها تسعة أمتار. وتسير بمجداف أو مجدافين، لا مرتكز لهما وينظر الملاح المحرك لهما إلى الأمام.

ويقول عنها رضا جواد الهاشمي: «والمشحوف قارب متوسط الحجم للنقل والصيد والحمولة الخفيفة والسريعة. يستخدم على نطاق واسع في أهوار جنوبي العراق. وقد يستخدم في الأنهار أيضاً ولكن للمسافات القريبة. يتميز بعمقه القليل، ويسير عادة بقطع من القصب قوية وطويلة تعرف باسم (مرادي)، وبخاصة في المياه الضحلة. حيث يكون قاع الهور في مدى يصله (المردي) وطريقة التسيير بالمردي تتمثل في مسك الملاح بالعصا الطويلة وهو يقف في إحدى نهايتي القارب وبدفعها إلى أرضية الهور وبشدها إليه ثم يدفعها بالاتجاه المعاكس للحركة المطلوبة للقارب فتنتقل قوة الدفع إلى القارب فيسير. ويواصل الملاح دفع عصاه ويغيّر موقعه من مقدمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والموسيقيون، والحكواتيون، وقصاص الحكايا الاسطورية.

وتمتزج رائحة عفنة صادرة عن القدور والمواد الـمحلوبة من بعيد، برائحـة العطـور الزكية. فأهالي هرمز الجديدة يتعطرون. والحمالون أنفسهم، متى انتـهوا مـن أعمـالهم، يصرفون دخلهم في شراء المراهم والعطور. ويرش بائعو العطور عطوراً مـخففة في الشوارع والبازارات التي يمر فيها التجار الأثرياء، يتبعهم عبيد صغار يحملون قارورات الطيب، وهـم غلمانـهم في الغالب. ويصور رسم عائد إلى القرن السادس عشر أهالي هرمز، وبينهم امـرأة مـحتشمة (مسلمة) يتبعها خادم يحمل وعاءاً.

ويباع ماء الشرب في جميع الأماكن، وتوجد في جميع الشوارع بيوت يُعرض الماء علـى أبوابها على المارين بالنياطل أو الأباريق الكبيرة. وفي الصيف ينقل ثلج جبال كرمان من بعـد ثلاثين فرسخاً على الدروب الوعرة، ويؤتى به لتبريد مشروبات الـهرامزة.

ويؤثر المناخ في الحياة اليومية والأخلاق. فخلافاً للبلدان الهنديـة، لا تعـرف هرمـز الجديدة الرياح الموسمية. وهي رياحٌ حارة، ويسود القيظ في صيفها، ويتبرد أهلها بالمغـاطس في النهار أو يضعون أقدامهم في الماء، ويجلسون تحت تيار هواء التهوية (البارجيل). وشاطئ البحر القريب مليء بالرجال والنساء من جميع الأعمار، وينامون على سطوح المنازل في الليـل من شهر أيار إلى شهر أيلول.

تعقيبات عامة:

(١) المرأة المسلمة تمتاز عن غيرها بما ترتديه من لباس الحشمة في حين تلتزم النساء من الجنسيات الأخرى بلباسهن التقليدي.

(٢) ورد في كتابات الرحالة والجغرافيين أسماء بعض الأماكن وفق ما تلفظ به آنـذاك والتي تختلف جزئياً عما هو معروف حالياً مثل معريد ص١٠ والصحيـح معـيريض، وكذلك ما ورد في ص ٢٢٨ حول تسمية الصير بـ(صور) وتشكل جانباً من مدينـة رأس الخيمة الحالية في منطقة النخيل حيث كانت تتوسطها قلعة أو حصـن يسـمى بحصن الصير نسبةً إلى المنطقة ذاتـها وفي موقع القلعة تقوم حالياً سينما الـخليج، كما أن بعض المسميات والألفاظ أوردناها كما هي مستعملة آنذاك وقد تكـون ذات أصل هندي أو فارسي أو عربي ومعرفة مثل تلك الأسـماء متروك لفطنـة القـارئ الكريم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

المرافق الاقتصادية في سلطنة هرمز

لا تختلف المرافق الاقتصادية في سلطنة هرمز عن مثيلاتها في الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها. ففيها زراعة وتربية حيوانات. وفيها أعمال حرفية، ووسائل نقل برية وبحرية. إلا أن التجارة المحلية والدولية أهم أنشطتها على الإطلاق، وأعظم موارد ثرائها. ومن هنا أتى تأكيد المؤرخين على مبنى الجمرك (البَجَنْصَار) والتبادل التجاري الدولي والاقليمي والداخلي.

أولاً ـ البجنصار والتبادل التجاري الدولي والاقليمي والداخلي في سلطنة هرمز

آ ـ البَجَنْصَار

فالبجنصار (بفتح الباء الموحّدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المُهْمَل. وآخره راء)، على حد قول ابن بطوطة[1]، بيت من الخشب خاص بالبندر، يجمع فيه الوالي، وهو الكردوري، جميع سلعه، ويبيع ويشتري. وتتباين آراء علماء الألسن حول أصل هذه التسمية: فكروفورد يعيدها إلى كلمة بنجسال الماليزية، وويلسن إلى لفظ بنجسالا السنسكريتي، إلى غير ذلك من وجهات النظر[2]. مهما يكن، لها معنيان متقاربان: ١ ـ المستودع و ٢ ـ دار الجمرك وتوابعها. ويسمى موظفو الجمرك «الكراين»، جمع كرّاني فيما يبدو، والكرّاني معرّف عند ابن بطوطة أيضاً: ولما كان اليوم الثاني من حلولنا مرسى كيلو كري، استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب، والكرّاني وهو الكاتب، والتجار والرؤساء، والتنديل وهو مقدم الرجال،

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٨٧.

(٢) هوبسن جوبسن، ص ٦١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وساه سالار، وهو مقدم الرماة، لضيافة صنعتها لهم على عادتها[1].

ووصف الرحالة الايطالي بيترو ديلاّ فاليه البجنصار في هرمز، فقال إنه بناء أبعاده متواضعة، تحيط به أروقة خارجية مكشوفة. وقبّانه موضوع ضمن سوره. وفيه تجري الصفقات التجارية. ويقع مكتب الشاهبندر والمخازن قربه. وعندما تمتلىء مستودعاته، توضع السلع الواردة إلى هرمز على أرصفة الجمرك، التي تطغى عليها مياه المدّ.

ويرجّح أن جميع السلع الواردة إلى هرمز، لا تلزم بالمرور بالجمرك، وإن كانت النصوص المتعلقة بالسلطنة لا تنصّ صراحة على شيء من ذلك. وينطبق هذا الكلام على البصرة حيث ألحق بالبجنصار مستودعات تسمى «السيف»، خاصة بالمرور النهري الصغير، وبسوق الحبوب، وبسوق المنتجات المحلية.

ب ـ الرسوم الجمركية وغيرها

وتدفع السلع المارة بالبجنصار وغير المارة به، رسوماً جمركية وضرائب أخرى، ثم تدمغ بالشمع إذا كانت حرائر، وبالحبر إذا كانت أقمشة غير حريرية. وتعلّم الخيول بالكي بالحديد. وتقدّر حمولات الأغذية تقديراً بالنظر.

١ ـ الرسوم الجمركية

وفي منتصف القرن الخامس عشر، أشار السمرقندي إلى استيفاء رسم جمركي قدره ١٠٪ في هرمز، على جميع السلع، باستثناء الذهب والفضة. وذكر نيكيتين النسبة المئوية ذاتها، واعتبرها عالية. واشار نمديهي سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م إلى تمييز كان مطبقاً منذ القرن الرابع عشر: يستوفى بموجبه العشري (١٠٪) على جميع ما يدخل عن طريق البحر، ونصف العشري (٥٪) على ما يجيء براً من أنحاء خراسان. وما تزال هذه القاعدة نافذة حتى الآن. لكنه لا يذكر النسبة المئوية المستوفاة على السلع القادمة من مقاطعات إقليم فارس الغربية. ويرجّح أن النسبة المستوفاة على إحدى السلع كانت موحّدة في مطلع القرن السادس عشر، إذا جاءت من إقليم فارس، سواء أتت من تبريز أم من كاشان، وهما أنشط المدن، أو من هراة.

وتعطي وثائق الحقبة البرتغالية عن التعرفات الجمركية في هرمز، تفاصيل تكشف عن سياسة ضرائبية متنوعة أكثر مما توحي به معطيات السمرقندي أو نيكيتين أو

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٣٨.

نمديهي. فلعُمان تعرفة تختلف عن تعرفة جرون. فبعض السلع، المنزّلة مباشرة في مسقط، يستوفى عليها رسم ١١٪: مثل الأقمشة البيضاء من بلغهات وكمباية والسند، والقلانس والمناطق، ونيلة كمباية، والفلفل وجوز الطيب، والقصدير، وسكر الهند الجنوبية وجوزرات. أما السلع الأخرى، فتدفع ٢/١ ٧٪ من قيمتها. وفي جرون يلاحظ أن رسوم الأقمشة تميّز المحارف الفارسية عن غيرها: فأقمشة ملاقة تدفع سدس قيمتها (٢/١ ١٦٪)، وأقمشة الهند بأنواعها تؤدي ١٠٪، لكن لا يستوفى على حراير إقليم فارس ودیباجه (بروكار) ومخمله وسائر أقمشته إلا ٥٪. كذلك القطن الهندي إلا ٥٪، بينما تزوّد فارس المحارف الهندية بالحرير والشب، اللذين يفرض عليهما رسم ١٠٪ عدا الرسوم الإضافية ويعدّ الأرز والسمن سلعتين أساسيتين، ضريبتهما ٥٪ من حيثما جيء بهما، شأنهما شأن المواد الغذائية الأخرى التي تجلبها طرادات ريشهر وبردستان.

٢ ـ رسوم وضرائب أخرى

وتفيد الخزينة في هرمز من حركة الجمرك ريعاً آخر، غير الرسوم، إذ تخضع تجارة معظم السلع إلى دفع براءة (منشوري) مثل الخشب والشعير والجص. وتعطى براءة مماثلة لصنفين مختلفين جداً، هما السمك والنيلة. والمقصود بالبراءة، في بعض الحالات على الأقل، منح امتياز حصر الاستثمار. على هذا الأساس، أعطي امتياز تجارة اللآلىء لعدة ملتزمين سنة ١٥١٥، لقاء دفع ٦٠٠٠ أشرفي سنوياً. ويؤدي ضباط الجمرك مبلغاً سنوياً مقابل تعاطيهم مهنتهم. ويلزّم قبّان الجمرك، كما هي الحال في عدن.

وتُجْبَى عدة رسوم على الأشخاص وعلى السلع، وعلى العمليات المالية والمادية الخاصة بها، وتستخدم لمكافأة الملتزمين وضباط الجمرك. وألْغى إجراء سنة ١٥٤٦ رسماً ثابتاً مقداره ٢ تنغا، كان يضاف إلى الرسوم الجمركية، ويتوجب على التجار أداؤه. وكانت بعض الوظائف ليس لها رواتب، فيأخذ أصحابها عمولات تدعى «لازمات». تعرف منها وظائف إدارة الجمرك ورئيس وسطاء الخيل ووسيط السلع ومثمّن الجمرك. ففي سنة ١٥١٥، كان الملتزم يتقاضى ٢ صدى عن كل كيس سكر أو نيلة، وصدى واحداً عن كل كيس أرز أو قطن، و٢ صدى عن كل جرة سمن. وفي الحقبة البرتغالية، كان قائد البحر يأخذ رسماً على رزم حطب الحرق، المجلوب إلى جرون في الطرادات. وتتنوع رسوم الوسطاء: فهي أشرفي واحد عن كل رأس خيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترفع الرسوم الإضافية المستوفاة على الأقمشة الهندية مجمل ضرائبها إلى ١٢٪. بالفعل يضاف إلى الـ ١٠٪ «كائدة الوزير» وأمناء سر الجمرك، أي ١/٢ ١٪ زائد ١/٢ ٩ صدى على كل بالة للمستفيدين أنفسهم، وأخيراً ١٪ للسلطان. ولا ريب أن هذه النسبة تمثل «المقررية الثابتة التي يتلقاها السلطان من الجمرك ليشتري من البجنصار أقمشة ألبسته للحر والبرد» وعندما اضطر سلغر شاه الثاني سنة ١٥٤١ أن يتنازل إلى ملك البرتغال عن كامل واردات الجمرك، احتفظ صراحة بمقرريته وبمخصصات نبلاء أسرته، ومصاريف كل السلطنة، والجوائز والعمولات ومرتبات جميع ضباط السلطنة، البرتغاليين والمسلمين حسب الأعراف الدائمة.

وقدّر باروس رسوم الجمرك المستوفاة في جرون بـ ١٠٠٠٠٠ أشرفي سنة ١٥١٤، وبأكثر من ٤٠٠٠٠ أشرفي الواردات الأخرى في هرمز. وفي سنة ١٥١٦، أعلن بيرو دالبوكيركيه إلى دون مانوييل أن هرمز تحصل على أكثر من ٢٠٠٠٠٠ أشرفي. وترجمت موازنة السلطان الخاصة لباروس، ونقل بدقة ما ترجم له، لكنه لم يفصّل بنود موارد دولة هرمز، ولا يعود إلى الواردات والصادرات من موارد البجنصار. وكان شيء واحد ثابتاً، هو أن بلدان الخليج العربي تستورد أكثر مما تصدر. وتعود سفن الخليج بالصابورة، وتستخدم ملح جرون فيها. ولتغطية مشترياتها وموازنة مدفوعاتها، وترسل هرمز إلى الهند كميات كبيرة من العملات، لا سيما اللاريات الفضية.

ويتضح من هذا العرض أن تعامل سلطنة هرمز التجاري دعامة اقتصادها الكبرى.

جـ ـ تعامل سلطنة هـرمـز التجاري

يجمل دوارته بربوسه تجارة سلطنة هرمز الدولية والاقليمية والداخلية إجمالاً جيداً هاك خطوطه العريضة[١]:

تقع جزيرة جرون الصغيرة، الحارة جداً، في الخليج العربي قرب المضيق الفاصل بينه وبين خليج عُمان. وقد أقيمت على أرضها مدينة هرمز الجديدة الجميلة، بما فيها من مباني شاهقة، مشيدة بالحجر والملاط، مسطحة السقوف، كثيرة النوافذ، مزودّة بنظام تهوية، يسحب الهواء البارد من الطابق العلوي إلى الطابق السفلي، وما فيها من شوارع عديدة تخترق أحياءها، وتفضي إلى ميادينها الشيقة.

(١) كتاب دوارته بربوسه، المجلد الأول، ص ٩٠ ـ ٩٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبرز في ظاهرها تلّ ملح صخري، تتخلله أحياناً كميات ضئيلة جداً من الكبريت. ويشكّل هذا الملح كتلاً تشبه جلاميد الصخر المنتشرة في الأراضي المضرّسة، ويسمى الملح الهندي، الذي يطحن، فيصبح أبيض ناصعاً ودقيقاً، تشتريه المراكب التي تأتي إلى هرمز الجديدة، وتستعمله لضبط توازنها، ثم تبيعه في شتى الجهات، متى شاءت، بأسعار مربحة.

وتجار جرون وهرمز الجديدة عرب وكرمانيون. ويتكلم الكرمانيون اللغتين العربية والفارسية. وهم طوال القامة، بهيّو الطلعة، ظرفاء، متميزون، رجالاً ونساءاً. ومن صفاتهم أيضاً الشجاعة والسماحة. ويحترف بعضهم الموسيقى، وآلاتهم الموسيقية متنوعة. أما العرب فسمر، وبشرتهم داكنة. والعرب والكرمانيون مسلمون.

وفي هرمز الجديدة كثير من تجار أصناف السلع. ويرسو في مينائها العديد من المراكب الضخمة جداً. وبندرها جيد جداً، تحمل إليه شتى أنواع البضائع من شتى الآفاق، وتقايض فيه بسلع بلدان الهند. ويجلب إلى هرمز الجديدة من الهند جميع أصناف التوابل وغيرها، مثل الفلفل والقرنفل، والزنجبيل، والهال، والألوة، والصندل، والبقّم، والإهليلج، والتمر الهندي، والزعفران، والنيل، والشمع، والحديد، والسكر، والأرز (بمقادير هائلة)، وجوز الهند، يضاف إليها الكثير الكثير من الحجارة الكريمة والخزف واللبان الجاوي. ويجني التجار أرباحاً طائلة من بيع جميع هذه الأصناف. ويستورد تجار هرمز كميات كبيرة جداً من الأقمشة من كمباية وصيمور ودابول، ومن بنجالة الأقمشة القطنية الرقيقة جداً، المرغوبة لصنع العمائم والقمصان. ويأتيهم من عدن كثير من النحاس والزئبق والزنجفر وماء الورد، والمطرزات، والتافتات، والخملات. ويصلهم من إقليم فارس كميات كبيرة من الحراير والمسك الجيد جداً ورواند بابل. وترسل لهم البحرين وجلفار لآلىء صغيرة وكبيرة، ويتلقون من مدن جزيرة العرب أعداداً كبيرة من الخيول، قدّر أنهم يصدرون منها إلى الهند ما بين ألف وألفي رأس سنوياً. ويتراوح ثمن الرأس الواحد في الهند ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ كروزادوس، حسب العرض والطلب. وتحمل في مراكب الخيل المتوجهّة إلى الهند مقادير ضخمة من التمور والأعناب والملح والكبريت. وينقل التجار معهم اللآلىء الخامة التي يشتريها مسلمو نرسنغا.

ويثبت هذا الموجز أن تعامل سلطنة هرمز التجاري واسع جداً، وأن آفاقه عديدة بالفعل تجارة سلطنة هرمز دولية واقليمية وداخلية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية

ونعني بتجارة سلطنة هرمز الدولية تعاملها المزدوج استيراداً وتصديراً، مع الأسواق الكبرى في السند والهند وسيلان وبلاد الشام، ونقلها السلع منها وإليها، سواء كانت من انتاج تلك الأسواق أم واردة إليها من بلدان أخرى واقعة وراءها أو بعيدة عنها، مثل تصدير الدول الأوربية إلى بلاد الشام واستيرادها منها، أو استيراد الشرق الأقصى حتى الصين السلع من بنادر الهند أو تصديرها إليها. وفيما يلي موجز عن تلك الحركة التجارية الشاملة.

(١) ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية مع السند:

متجر ديوال أو دَيْـبُـل أو دَيْـبُـل السند

الدَّيْبُــل مدينة شهيرة في إقليم السند، تقع على نهر مهران (الهندوس)، كان لها بندر ممتاز، حدد علماء الآثار موضعها قرب مدينة كراتشي الحالية، في موضع بدّ بوذي قديم[١]. وقد ألحّ الجغرافيون والمؤرخون العزب على عظم أهميتها، كمركز تجاري وسيط بين سلطنة هرمز وكمباية، منهم البلاذري والمسعودي والأصطخري وابن حوقل والمقدسي والشريف الأدريسي.

وتنتج السند كميات هائلة من القمح والشعير واللحم. ويصطاد أهلها أسماكاً كبيرة بجففونها، ويصدرون بعضها إلى بلدان أخرى. وتقصد مراكب هندية بندرها الدَّيْبُل، ويحمل بعضها إليه كميات كبيرة من الأرز والسكر، ويجلب لها البعض الآخر التوابل والأخشاب والخيزران. وتشتري منها مقادير كبيرة من القطن وخيولاً وأقمشة.

وذكرها المسعودي ذكراً عابراً[٢]. ومما قاله ابن حوقل عنها[٣]: والدَّيْبُل من شرقي نهر مهران على البحر. وهي متجر عظيم، وتجارتها من وجوه كثيرة. وهي فرضة هذه البلاد (السند) وغيرها. وزروعهم مباخس. وليس لهم كثير شجر، ولا نخل. وهو بلد قشف. وإنما مقامهم للتجارة. ومما قاله المقدسي عنها[٤]: ودَيْبُل بحرية، قد أحاط بها نحو من مائة قرية، أكثرهم كفّار. والبحر يسطع جدارات المدينة. كلهم تجار. كلامهم سندي وعربي. وهي فرضة الكورة، كثيرة الدخل. وثَمَّ

---

(١) هوبسون جوبسون، ص ٣٢٠، واسم البرّ ديواليه.

(٢) مروج الذهب، ج ١، ص ١١٤، ١٢٥، ١٩٠.

(٣) صورة الأرض، ص ٢٧٩.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٤٧٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يفيض مهران في البحر. والجبل منهم على صيحة. والبحر يدخل السوق. أهل ظرف وتلبّس. ومما قاله الأدريسي[1]: ومدينة الدَّيْبُل كثيرة الناس، جدبة الأرض، قليلة الخصب، ليس بها شجرة، ولا نخل. وجبالها جرد، وسهولها قشفة عديمة النبات. وأكثر بنيانهم الطين والخشب. وإنما سكنها أهلوها بحسب أنها فرضة لبلاد السند وغيرها. وتجارات أهلها من وجوه شتى وأسباب متفرقة، يتصرفون فيها. وأيضاً إن مراكب العُمانيين تقصدها بأمتعتها وبضائعها. وقد ترد عليها مراكب الصين والهند بالثياب والأمتاع الصينية والأفاوية العطرية الهندية، فيشترون من ذلك جزافاً لأنهم أهل يسار وأموالهم كثيرة. ويمسكونها حتى إذا سارت المراكب عنهم، وخلت السلع، أخرجوا أمتعتهم، وباعوا وسافروا إلى البلاد، وقايضوا، وتصرفوا في أموالهم كيف شاؤوا. وبين الدَّيْبُل وموقع نهر مهران الأعظم ستة أميال في جهة المغرب منها.

(٢) ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية مع جوزرات:

الديــو وكمبــاية

ولا تقلّ أهمية تجارة سلطنة هرمز الدولية مع جوزرات عن أهمية تجارتها مع ديول السند، بل تتفوّق عليها. وكان لها مركزان عظيمان، هما الديو وكمباية.

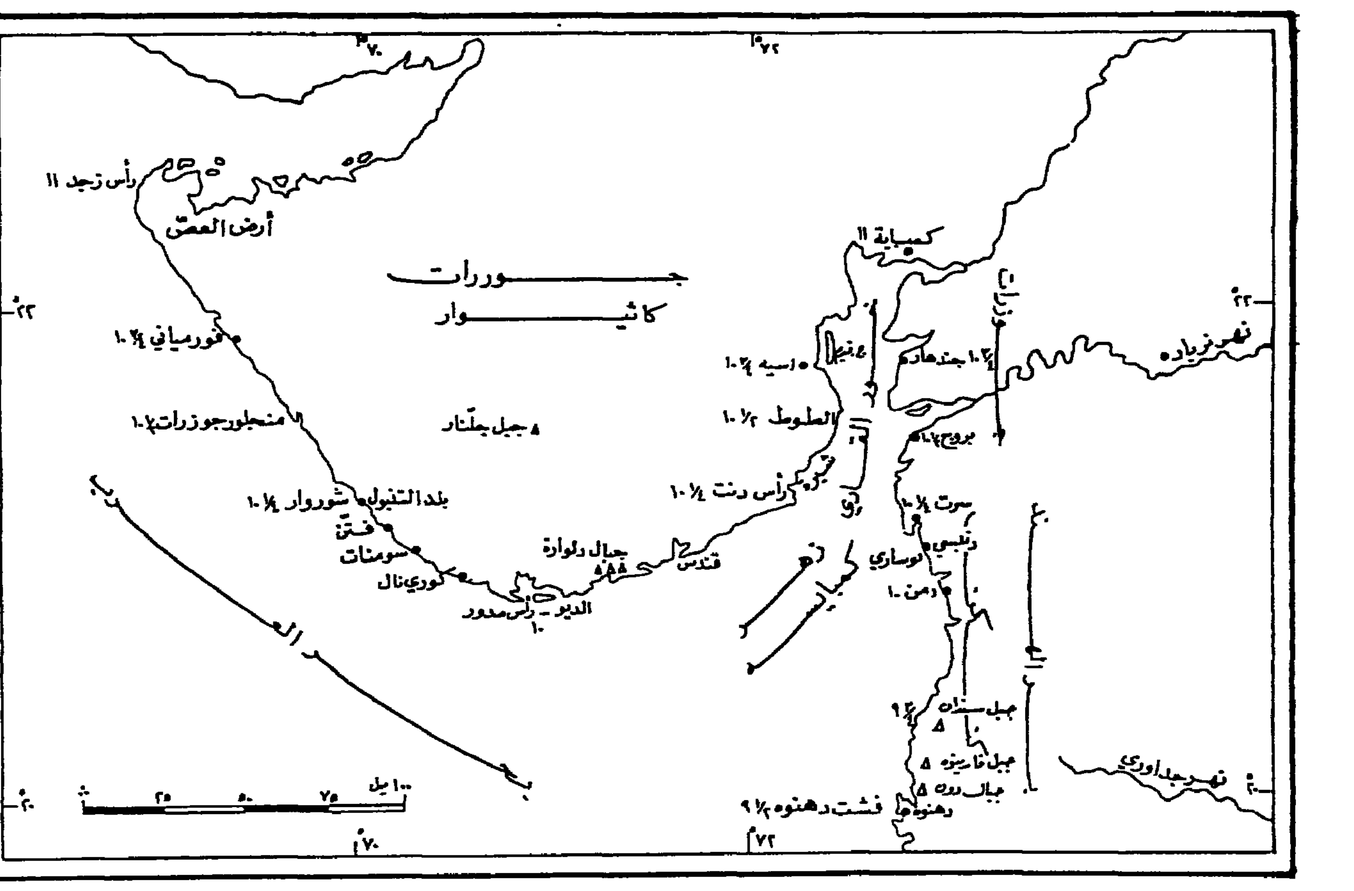
فالديو[2] مدينة في جزيرة صغيرة واقعة عند طرف شبه جزيرة كاثياوار الجنوبي، ولها بندر جيد، وتجارتها نشيطة مع الدَّيْبُل وساحل الدكن الغربي. وتقصد مراكبها هرمز والخليج العربي، وموانىء ساحل جزيرة العرب الجنوبية وساحل افريقية الشرقية. ويحمل إليها تجار مليبار جوز الهند والسنباذج، والشمع، والحديد، والسكر، والفلفل، والزنجبيل، والقرنفل، والقرفة، وجوز الطيب، والصندل، والفلفل الطويل، وأصناف الحرير، وأنواع سلع الصين وملاقة. ويستورد تجار ديو من صيمور والدَّيْبُل المنسوجات القطنية بكميات كبيرة، ويصدرون جميع السلع المذكورة إلى الخليج العربي وإلى جزيرة العرب. ويجلبون من الهند مباشرة السجاد الكبير والتافتات والتوابل وغيرها، ويبيعونها من المسافرين إلى مكة وعدن وهرمز وأنحاء جزيرة العرب وفارس. بالمقابل يشتري مصدرو البضائع الواردة إلى الديو، الحراير والقطنيات والخيول والقمح، والسمسم والقطن الخام والأفيون، من البلدان التي ينقلون بضائعهم إليها[3].

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٦٧.

(٢) بربوسه، مجلد ١، ص ١٢٩.

(٣) بربوسه، مجلد ١، ص ١٣٩.



شكل ٩ - تجارة سلطنة هرمز وجوزرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما كمباية، فمدينة كبيرة وجميلة، مبانيها شامخة، مشيدة بالحجر والملاط، وهي وافرة النوافذ، وسطوحها مغطاة بالقرميد، وشوارعها وميادينها كثيرة. وتجارها أثرياء، ويملك أغنياؤها ثروات طائلة. ولديها حرفيون بارعون بالأعمال اليدوية. وسلعها جيدة ورخيصة، تشمل الأقمشة القطنية النفيسة والعادية والمطبوعة، والحراير، والمخمل الملوّن المنخفض الجودة، والساتين المخملي، والتافتا والسجاد السميك. ويصنع حرفيوها التحف العاجية والحلى الصنعية وغيرها. وهي تصدر سلعها والبضائع المنقولة إليها إلى كثير من البلدان، منها الخليج العربي وبنادر جزيرة العرب.

(٣) ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية مع كنكن:

شـيول ودابـول

بلاد كنكن[١] شريط ساحلي يمتد من رأس مريا إلى سندان، بين جوزرات شمالاً وتلوان جنوباً. ويشمل ضمن حدوده مدناً وبنادر هامة بالنسبة إلى الملاحة البحرية والعلاقات التجارية بينه وبين سلطنة هرمز، ورد اسمها عند ابن خرداذبه واليعقوبي والمسعودي والأدريسي والدمشقي وابن ماجد والمهري. وتحدث عنها الرحالة الصيني هونغ تسنغ، ودوارته بربوسه وبايرس وباروس. ولبندرين من بنادره علاقة تجارية وثيقة بجزيرة العرب عامة وبسلطنة هرمز خاصة، هما شيول ودابول.

فشيول[٢] مدينة قديمة، وأحد بنادر بر الهند الغربي الهام جداً في القرون الوسطى. وكانت مركز تجارة نشيطة، يتجمّع فيه عدد كبير من المراكب في أشهر كانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار، التي تأتي إليه من بنادر مليبار ومن أقطار أخرى مثل سلطنة هرمز ومرافىء جزيرة العرب الجنوبية. وتحمل إليه زوارق مليبار التوابل وجوز الفوفل وجوز الهند والعقّارات وسكر النخيل والشمع والسنباذج. وهي سلع تجيء سفن كمباية إلى شيول، فتشتريها. وتغادر زوارق مليبار شيول موسوقة بالأقمشة القطنية وغيرها من البضائع الرائجة عندهم، كالقمح والحبوب والأرز والذرة والسمسم وأقمشة الموسيلين النفيسة التي يجلبها تجار شيول من بندر الديو في جوزرات لتصديرها إلى جزيرة العرب وإقليم فارس عبر سلطنة هرمز.

ولشيول أسماء أخرى عديدة، منها سبميلا عند بعض اليونان، وصيمور عند

(١) العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، مصنفات سليمان المهري، تحقيق ابراهيم خوري، الجزء الثالث، كنكن، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٨.

(٢) كتاب دوارته بربوسه، ج ١، ص ١٥٨ ـ ١٦٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤرخين العرب، وشيول عند البحارة العرب.

ومدينة دابول[1] على الضفة الشمالية من خليج مصب نهر فاشيشتي، المسمى أيضاً نهر أنجنفيل، نسبة إلى مدينة انجنفيل الصغيرة القائمة على ضفته الجنوبية. ولها بندر جيد جداً، تقصده مراكب مسلمة كثيرة من شتى الآفاق ـ مثل مكة وعدن وهرمز الجديدة (التي تحمل إليه كثيراً من الخيل) وكمباية وديو ومليبار ـ وتتاجر فيه بجميع أنواع السلع، وتتعامل مع تجاره الأثرياء الذين يبيعونها كميات كبيرة من القمح والذرة البيضاء والحمص وغيره من القطاني.

(٤) ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية مع تلوان:
باندا وجوة سندابور

وتلوان[2] بلاد ساحلية في غربي شبه جزيرة الدكن، وتمتد من جوة سندابور إلى رنتافور وتنحصر بين بلاد كنكن شمالاً ومليبار جنوباً. وفيها مدن وبنادر هامة بالنسبة إلى الملاحة العربية والتعامل التجاري مع سلطنة هرمز. إلا أن ذكر لفظ تلوان نادر في التصانيف العربية والأجنبية. مع ذلك أشار إليه الدمشقي والمهري، وتكلم بربوسه بشيء من الدقة عن مدنها وبنادرها، لا سيما باندا وجوه سندابور.

فباندا مدينة تقع شمالي جوة سندابور، وتبعد عنها ستة عشر ميلاً. وتجارها كثر، يجلبون إلى بندرها المحمي من الرياح كميات كبيرة من السلع المخصصة للتصدير. وتحمل إليها زوارق مليبار جوز الهند والفلفل وأنواع التوابل والعقّارات الرائجة في سوقها. وتتوافر فيها أيضاً سلع أخرى تنقل إليها من داخل شبه جزيرة الدكن. وتقصدها مراكب عدن وهرمز الجديدة لتبتاع تلك البضائع[3].

وجوة سندابور[4] مدينة قائمة على جزيرة محصورة بين فرعي نهر جميل يحمل اسم نهر جوة. وسكانها مسلمون متميزون، وتجارها أثرياء. وبندرها جيد. وتجارتها واسعة. وتقصدها مراكب مسلمة تأتي إليها من مكة وعدن وهرمز الجديدة وكمباية ومليبار. وقد تحدث عنها المسعودي وبزرك بن شهريار وابن بطوطة وأبو الفداء.

---

(١) المرجع ذاته، ص ١٦٤ ـ ١٦٦.
(٢) العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، الجزء الثالث، تحقيق ابراهيم خوري، تلوان، ص ٤٨٥ ـ ٤٩٢.
(٣) بربوسة، ج ١، ص ١٧٠.
(٤) المرجع ذاته، ص ١٧٤ ـ ١٨١. بايرس، ج ١، ص ٥٧ ـ ٥٨. العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، الجزء الثالث، ص ٤٨٧ ـ ٤٩٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي جوّة تجار من جميع الجنسيات. وتشاهد في بندرها مراكب ضخمة. وتجلب إليها الخيول من جزيرة العرب وسلطنة هرمز وفارس وكمباية. ولديها سفن تبحر إلى جميع البلدان، وتلقى معاملة حسنة لأن المسلمين نافذون فيها، وواردانها وافرة، تحصل عليها من رسوم المراكب وضرائب التجارة والزراعة.

ويتاجر في بندر جوة سندابور بعدد كبير من السلع التي تحمل إليه من مليبار وشيول ودابول وكمباية. وتقصدها مراكب كثيرة من سلطنة هرمز موسوقة بالخيول. ويأتي تجار مملكة نارسنغا والدكن إلى جوة، فيشترونها، ويدفعون ثمن الرأس منها ما بين ألفين وثلاثة آلاف كروزادوس، ثم يبيعونها إلى ملوكهم وإقطاعيهم، ويجنون أرباحاً طائلة من التعامل بها.

ويشحن تجار سلطنة هرمز من جوة سندابور كميات كبيرة من الأرز والسكر والحديد والفلفل والزنجبيل وسائر التوابل والعقارات، وينقلون جميع تلك السلع إلى مدينة هرمز الجديدة.

(٥) ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية مع مليبار:
بادقلة، فاكنور، كننور، قاليقوط

تحدّث كثير من المؤلفين العرب عن مليبار[١]، منهم أبو مخرمة وياقوت والدمشقي وابن خرداذبه وأبو الفداء وابن بطوطة والأدريسي والقزويني. وأسهب بربوسة وبايرس في وصفها. ويستعمل معالمة العرب صيغتي مليبار ومنيبار، لكن مليبار غالبة عند ابن ماجد، ومنيبار نادرة، وعنده منيبارات أيضاً. والعكس صحيح عند المهري: منيبار غالبة، ومليبار قليلة جداً. وهي بلاد ساحلية واقعة في جنوبي غربي شبه جزيرة الدكن، وتمتد من قنبلة تقريباً إلى رأس كمهري. وتحوي مدناً وبنادر ومراسي هامة جداً بالنسبة إلى الملاحة العربية في بحر الهند وبالنسبة إلى تجارة سلطنة هرمز، ولا سيما مع بادقلة وفاكنور وكننور وقاليقوط.

فبادقلة مدينة جميلة واقعة على ساحل البحر، بعد هنور، وتتمّ فيها مبادلات تجارية بسلع متنوعة. وتجارها مسلمون وكفار. وتأتي إليها في كل عام مراكب عديدة، تجيء من هرمز الجديدة لتأخذ منها شحنات من الأرز المقشور والسكر الناعم المتوفرين بمقادير هائلة. وشحنات من الحديد أيضاً. وبها بعض الفلفل والتوابل، يجلبها إليها المليباريون من أنحاء الهند. وبها كميات من الإهليلج الجيد، الذي يشرى

(١) العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، الجزء الثالث، ص ٤٣٩ ـ ٤٨٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليباع في جزيرة العرب وفارس. وتنقل إليها مراكب هرمز الجديدة عدداً كبيراً من الخيول وكثيراً من اللؤلؤ. وتصل إليها بعض مراكب مسلمي مكة، لتبتاع التوابل رغم منع البرتغاليين. وقد شيدت هذه المدينة في أرض منبسطة مستثمرة، سكانها مزدحمون. وبضواحيها بساتين غنّاء وحقول أشجار مثمرة ومجاري ماء[1].

وفاكنور[2] مدينة ساحلية واقعة على نهر صغير، تشتهر بانتاج الأرز الجيد، الذي تصدره إلى هرمز الجديدة وعدن والشحر وكننور وقاليقوط، وتقايضه بشتى السلع.

وكننور[3] مدينة ساحلية كبيرة، بندرها جيد، تُنَزَّل فيه الخيول التي تصدرها إليها هرموز الجديدة. وسكانها مسلمون وكفرة. وهم تجار كبار، يملكون كثيراً من المراكب الضخمة والصغيرة، ويتاجرون بجميع البضائع مع كمباية وسلطنة هرمز، وشول مندل، ودابول وصيمور (شيول) وباندا وجوة سندابور.

وقاليقوط[4] مدينة عظيمة هي وبندرها، وقد وصفهما ابن بطوطة وصفاً مسهباً، فقال: قاليقوط أحد البنادر العظام ببلاد المليبار، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس. ويجتمع فيها تجار الآفاق. ومرساها أعظم مراسي الدنيا. وسلطانها كافر، يعرف بالسامري: شيخ مسنّ يحلق لحيته كما يفعل طائفة الروم. وأمير التجار بها ابراهيم شاهبندر من أهل البحرين، فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار، ويأكلون في سماطه. وقاضيها فخر الدين عثمان. وبهذه المدينة الناخوذه مثقال، الشهير الاسم، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس. وأشار عبد الرزاق إلى أنها مرفأ أمين جداً، يجتذب إليه مثل هرمز تجاراً من جميع المدن وجميع البلدان. واعتبرها نيكيتين بندر بحر الهند بأجمعه.

ولا يجوز الظن بأن العلاقات التجارية بين سلطنة هرمز والشرق الأقصى اقتصرت على بنادر جوزرات وكنكن وتلوان ومليبار، بل ينبغي التأكيد على وجود تبادل تجاري بين هرمز ومعظم البلدان الواقعة شرقي جزيرة سرنديب حتى الصين، إما بصورة غير مباشرة عن طريق شراء بضائع تلك الأقطار المبيعة إلى المقاطعات الهندية من المقاطعات الهندية نفسها، وإما بصورة مباشرة من أماكن انتاجها في بنجالة وملاقة

---

(١) المرجع ذاته، ص ٤٧٨، ويربوسه ج ١، ص ١٨٧ ـ ١٩١.
(٢) المرجع ذاته، ص ٤٧٦، ويربوسه ج ١، ص ١٩٣.
(٣) المرجع ذاته، ص ٤٧٢، ويربوسه، ص ٨٠ من ج ٢.
(٤) ابن بطوطة، ص ٥٧٥، بربوسه، ج ٢، ص ٨٤ ـ ٩٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجاوة والصين ذاتها بواسطة المراكب العربية التي كانت تقصد تلك الجهات، وتحدّث عنها بالتفصيل ابن ماجد والمهري في وصفهما الأسفار إليها، أو من المراكب المتعددة الجنسيات ـ كالصينية والهندية ـ التي تنقلها من أماكن انتاجها الأصلية إلى بنادر بحر العرب. وهنا تحسن الإشارة إلى الحملات الصينية السبع التي تمّت في التواريخ التالية، على سبيل التذكير:

١ ـ الأولى: ١٤٠٥ ـ ١٤٠٧، وضمت ٣١٧ مركباً صينياً.

٢ ـ الثانية: ١٤٠٧ ـ ١٤٠٩، وضمت ٢٤٩ مركباً صينياً.

٣ ـ الثالثة: ١٤٠٩ ـ ١٤١١، وضمت ٤٨ مركباً صينياً.

٤ ـ الرابعة: ١٤١٣ ـ ١٤١٥، وضمت ٦٣ مركباً صينياً.

٥ ـ الخامسة: ١٤١٧ ـ ١٤١٩، ولم يعرف عدد مراكبها ولكنها مرت بهرمز الجديدة.

٦ ـ السادسة: ١٤٢١ ـ ١٤٢٢، وضمت ٤١ مركباً صينياً، ومرت بهرمز الجديدة.

٧ ـ السابعة: ١٤٣١ ـ ١٤٣٣، وضمت أكثر من مائة مركب صيني ووصلت إلى هرمز في ١٧ كانون الثاني سنة ١٤٣٣، وغادرتها عائدة إلى الصين.

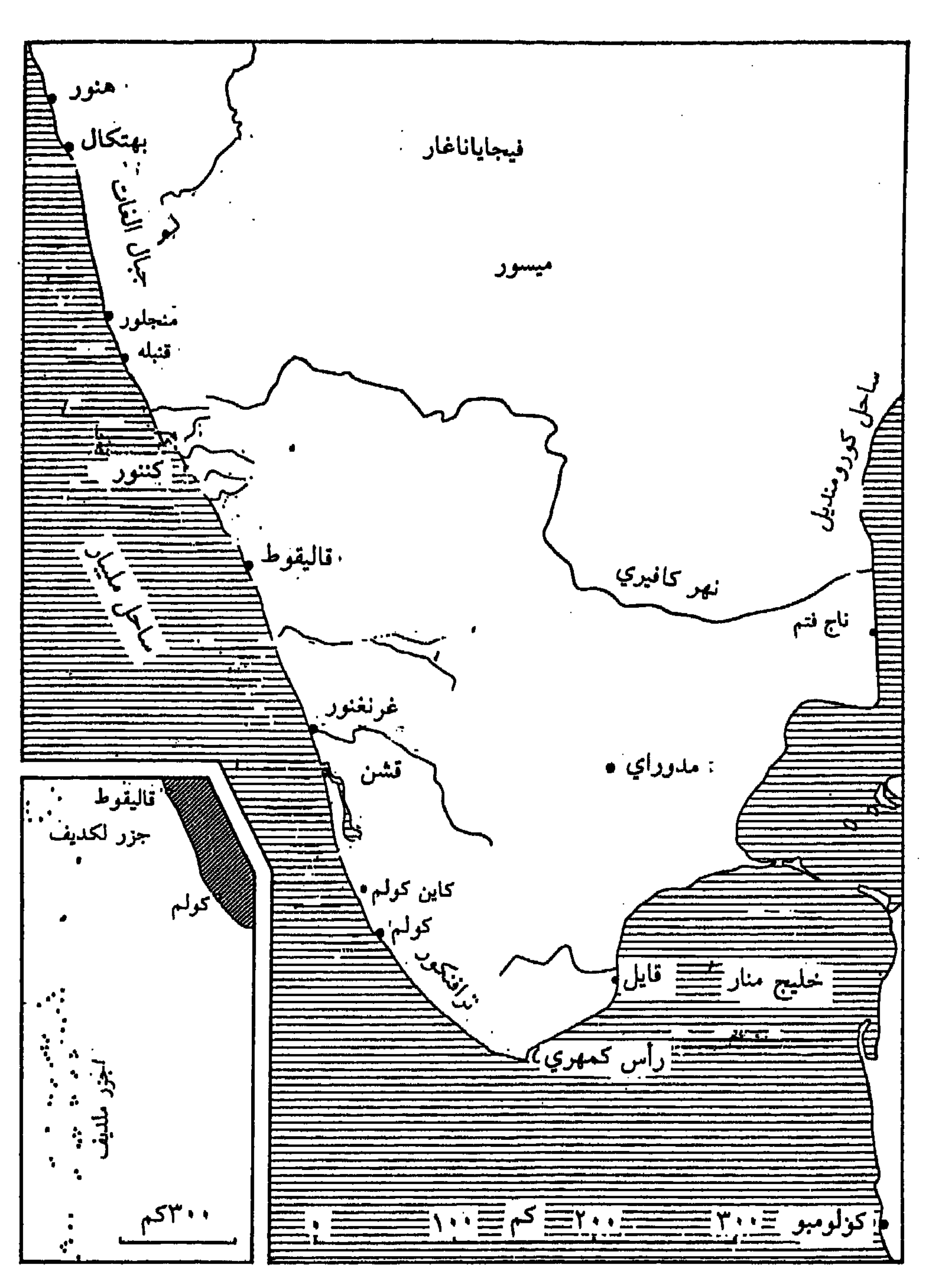
ولا يعبر لفظ «حملة» عن حقيقة واقع هذه الحملات التي شكّلت رحلات بحرية توخّت تبادل البعثات السياسية والهدايا المألوفة وتأسيس علاقات تجارية ثابتة ومستمرة بين امبراطورية الصين ودول سواحل بحر الهند في جنوبي آسية وغربيها وشرقي افريقية. وقد دوّن ماهوان أخبار هذه الرحلات في مصنف سماه «الكامل في وصف سواحل المحيط» (١٤٣٣) وضمنّه فصلاً من أصل عشرين فصلاً أفرده لأخبار جزيرة جرون ومدينة هرمز الجديدة، ثبّتناه حرفياً في الوثيقة الصينية الواردة في ملحق هذا الكتاب.[١].

على صعيد آخر، قامت بين سلطنة هرمز وبلاد الشام تجارة دولية، اختصت بنقل سلع الهند والشرق الأقصى إلى أوربة مروراً ببلاد الشام، وسلع أوربة والشرق العربي إلى هرمز الجديدة، فالهند وسواها.

---

(١) ماهوان، الكامل في وصف سواحل المحيط، ص ٨ ـ ١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



شكل ١٠ ـ تجارة سلطنة هرمز ومليبار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٦) ـ تجارة سلطنة هرمز الدولية مع بلاد الشام:

حلب، طرابلس، الاسكندرون

كانت بلاد الشام تتلقى سلع الهند والشرق الأقصى عن طريقين، هما الخليج العربي والبحر الأحمر. ثم أضيفت إليهما طريق ثالثة، هي الطريق الأطلسية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. وظُنَّ فترة من الزمن أن الطريق الأطلسية ستقضي على الطريقين القديمتين. إلا أن تطور الأحداث أثبت أن الطرق الثلاث ظلّت تعمل جنباً إلى جنب، وتورّد إلى الأسواق الاوربية بضائع تزيد تارة وتنقص أخرى حسب الظروف السياسية أو خوف التجار من الأعمال الحربية، الممكن أن يذهبوا ضحيتها هم وأموالهم. وكانت السلع المارة في الخليج العربي والبحر الأحمر تصل إلى بلاد الشام أو مصر، ويشتريها التجار الأوربيون من بنادرهما.

وفيما يتعلق بطريق الخليج العربي، كانت سلعه تنقل إلى البصرة، فبغداد ومنها إلى حلب، فطرابلس أو الاسكندرون. ويمكننا إثبات هذا الوضع بنصوص رسائل من تجار أو رحالة مقيمين آنذاك في حلب أو مرّوا بها في وقت معين.

ففي شهر تموز سنة ١٥٥٧/٩٦٥هـ، يئس كريستوفانو اليّغريتي الراغوزي من الكساد في حلب، فقال: اعتقد أن مدينة حلب خالية من البضائع ما عدا الصابون والرماد. أما سعر العفص، فيبلغ ١٣ ـ ١٤ دوكا. ولما كانت أربعة مراكب فرنسية راسية في ميناء طرابلس الشام تنتظر شراء حمولتها، فلا بدّ أن ترتفع الأسعار كثيراً، لا سيما أن وكلاء ثمانية مراكب فرنسية يشترون ما يتيّسر لهم من السلع بأي ثمن يطلب منهم.

وفي عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م، وصل إلى حلب لورنزو تيبولو، فاستقبله ٢٥٠ تاجراً حلبياً وهم راكبون على الخيول. وفي عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م، أعلن البندقي دي بيرا أن مراكب البندقية الكبيرة أبحرت من سورية إلى البندقية. وورد في تقرير بندقي أن ٥٠٠٠ حائك يعملون في حلب، وانها تبقى مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً مهما مرت به أزمات عابرة.

وفي شهر كانون الثاني سنة ١٥٥٩م/٩٦٧هـ، دخلت ثلاثة مراكب بندقية ميناء طرابلس الشام، حاملة معها أموالاً طائلة لشراء السلع الهندية (٢٥٠٠٠ دويلا + ١٠٠٠٠٠ ايكو). وفي سنة ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م، جاء مركب شراعي بندقي إلى بلاد الشام محملاً ٥٤٠ طناً من النحاس، والأقمشة والمنسوجات الصوفية والحراير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمرجان والعنبر والورق والنقد الرنّان. ولما عاد إلى البندقية كان موسوقاً بأصناف الفلفل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب وكبش القرنفل، والبخور والصمغ العربي والسكر والصندل وغيرها.

إذن لم تتوقف حركة السلع بالاتجاهين في الخليج العربي، حتى في أحلك أيام الحرب (الحرب التركية البرتغالية). فقد جاء في رسالة تاريخها ١٦ أيار ٩٨٧/١٥٧٩هـ، أن حلب تلقّت ٢٠٠ حمل من الحرير و ٢٥٠ حملاً من التوابل. وفي عام ١٥٨٣/ ٩٩١هـ، قيل إن التجار يقصدون طرابلس الشام بكثرة دون سواها، وذكر أن حلب مكتظة بالسكان وأشير إلى أن تجارة المرور من بغداد إلى حلب نشيطة جداً. وقال جوهن الدريد إنه شاهد في مرفأ البصرة ٢٥ مركباً تركياً، وعدة مراكب هرمزية، حمولتها ما بين ٥٠ و ٦٠ طناً، تفرّغ حمولتها من سلع الهند من التوابل والعقاقير والنيل والأقمشة القاليقوطية. وعندما رجع إلى حلب في صيف ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م، انضم إلى قافلة مؤلفة من ٤٠٠٠ جمل محملة بالتوابل وغيرها من البضائع النفيسة.

وظلّت السلع الهندية تنقل من البصرة إلى بغداد مدة طويلة. إلا أن المراكب الاوربية ضاقت ذرعاً من سوء معاملة الطرابلسيين سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م، فنقل بعضهم مكاتبه إلى الاسكندرون، وصاروا يشترون من أسواقها ما يحتاجون إليه. أما حلب فبقيت نشيطة تحسن التصرف مع الوكلاء الأوربيين.

٢ ـ تجارة سلطنة هرمز الاقليمية

يقصد بالتجارة الاقليمية التبادل القائم بين سلطنة هرمز وبين بلدان آسية الغربية المجاورة لها أو القريبة منها، مثل سجستان وخراسان وما وراء النهر والعراق وفارس وداخل جزيرة العرب.

وتتسم هذه التجارة بتأمين السلع الهندية من هرمز إلى تلك الأقاليم للاستهلاك المحلي وتصدير ما يفيض منها أو ما ينتجه الاقليم إلى سواه. فالتوابل والعقاقير والأقمشة النفيسة والحجارة الكريمة والمعادن الثمينة (ذهب، فضة) مرغوبة جداً في أوربة. وكانت تجلب من الهند إلى هرمز، وتنقل منها إلى شيراز أو تبريز أو البصرة. فيستهلك منها ما يستهلك محلياً، ثم يشحن الفائض إلى حلب فموانىء البحر الأسود أو المتوسط الشرقي. كذلك استطاعت حلب ودمشق أن تجتذب التيارات التجارية الاوربية المتجهة إلى الشرق، التي كانت تمرّ بالبحر الأسود أو الأناضول في طريقها إلى الهند، وتضم إلى أصنافها بضائع سورية كالقطن أو فارس كالحرير. ومن الأمثلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخرى على التجارة الاقليمية تصدير الأبراد الشيرازية وماء الورد الجوري، وثياب القز والصوف الفاخرة من سينيز، ويحمل من خراسان أيضاً (نيسابور ومرو) أصناف البز وفاخر ثياب القطن والقز. أما ساحل عُمان والإمارات، فيزوّد بدو الداخل بالسلع والأغذية التي يحتاجونها.

٣ ـ تجارة سلطنة هرمز الداخلية

يقصد بالتجارة الداخلية تبادل السلع والمحاصيل الزراعية ضمن السلطنة ذاتها. من ذلك تجارة اللؤلؤ، فجلفار والبحرين والقطيف كانت أعظم مراكز تجارة اللؤلؤ وشرائه من أساطيل الغوص ومن التجار الصغار. والمرحلة الثانية في هذا التداول، كانت مجيء التجار الكبار من هرمز العتيقة أو الجديدة إلى جلفار والبحرين والقطيف لشراء جميع تلك اللآلىء، وإرسالها إلى الهند أو إلى أوربة.

وتشمل هذه التجارة الداخلية أيضاً نقل المياه من جزيرة القشم وجلفار أيضاً إلى هرمز الجديدة، وتزويد هذه الأخيرة بالمواد الغذائية والخضار والتمور والفواكه من جزر الخليج ومن ساحل كرمان الهرمزي وساحل عُمان. يضاف إلى ذلك فتح المطاعم في هرمز الجديدة لتقديم المآكل الجاهزة إلى بعض سكانها الذين لا يرغبون بإعداد الطعام في دورهم وكانوا كثراً.

ثانياً ـ صيد اللؤلؤ وصيد السمك في سلطنة هرمز[1]

وكان صيد اللؤلؤ يحتل المرتبة الثانية في الأهمية بين المرافق الاقتصادية في سلطنة هرمز في القرون الوسطى. وله مصايد تتوزع بين رأس مسندم والبحرين والقطيف مروراً بمياه جلفار. ويعثر على كميات كبيرة من اللؤلؤ في مياه جزيرة قيس وأبي شعيب وخارك.

وتتضمن ثلاثة أنواع من الغلف اللؤلؤية، هي المحارة والصدفة والزنّية. فالمحارة غلاف صغير مجوف ورقيق، يحوي لؤلؤة صغيرة جداً أو أكثر في داخله. وتشتهر بهذه المحارات الأرصفة القريبة من البحرين، ويفتّش عنها الغواصون العرب لأن الغوص مُجْدٍ في مثل أماكنها. وللصدفة غلاف كبير مستو وسميك، بداخله بطانة جميلة جداً،

(١) انظر مجلة برسيكا، عدد ١٠، سنة ١٩٨٢، ص ٢٠٩ ـ ٢٢١، ويلم فلور: صيد اللؤلؤ في الخليج العربي سنة ١٧٥٧، وتقرير ت. فون كنبهاوسن المرفق به. ورحلة ابن بطوطة، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨. وتاريخ الغوص على اللؤلؤ، الجزء الأول، ص ١٣٣ وما يليها. ولوريمر، مجلد ١، ص ٢٢٢٣ ـ ٢٢٣٣.

لا يقل قطرها عن ٧ إنشات أو ٨ إنشات. إلا أن ٥ إلى ٦٪ من هذه الأصداف فقط تحوي لؤلؤة. ولؤلؤتها أكبر اللآلىء وأكملها تكويناً. وتستقر الزنّية في أعماق تتراوح بين ١٦ و١٨ قامة. وتلتصق كالثمر بأغصان الشجر أو دغل شبيه بالمرجان، حتى ليصعب على المرء أن يميز ما إذا كان النبات ينتج الزنّية أو أن الزنّية عالقة به. وتبدو الزنّية زهرية عند إخراجها من البحر، ثم تفقد لونها متى جفّت. ولؤلؤها كبير مثل لؤلؤ الأصداف. إنما مكان وجودها في خارك بينما أماكن وجود الأصداف جزر شيخ شعيب وقيس وهندرابي وخارك أيضاً.

والغواصون في الخليج هم العرب الساكنون على السواحل. ويستطيعون الغوص إلى أعماق تتراوح بين ٤ و٨ قامات. والقليل منهم يجرؤ على الغوص إلى أعماق ١٢ أو ١٨ قامة. ويدوم موسم الغوص من منتصف شهر أيار إلى أواخر شهر أيلول، ويختلف قليلاً حسب الأماكن. فتكون مدته النظرية ١٣٨ يوماً، يطرح منها أحياناً أيام صيام شهر رمضان وبضعة أيام قبله وبعده، فيبقى عملياً مائة يوم غوص.

ويتلقى الغواصون مياومة قدرها ٥٠ إلى ٦٠ روبية إضافة إلى غذائه، والبحار أو موجّه السفينة ٢٥ إلى ٣٠ روبية. إلا أن الاتفاق الشائع الذي يرضى به أمهر الغواصين يتلخّص فيما يلي:

يستأجر صاحب السفينة ٦ إلى ٨ غواصين ومثل عددهم من الملاحين. ويجهز نفسه بالحبال والمؤن لمدة موسم الغوص كاملة، ثم يغادر البر مع طاقمه وتجهيزاته ومعداته للعمل في البحر. وتفتح جميع الأصداف المصطادة يومياً مساءاً بحضور جميع المعنيين، ويحفظ ما يعثر عليه فيها من لآلىء في قطعة قماش كتان، تختم بالشمع. وفي نهاية موسم الغوص، تباع اللآلىء في البحرين أو القطيف بحضور الجميع أيضاً. ثم يحسم من ثمن المبيع المصاريف العامة، ويقسّم الباقي إلى خمس حصص، يأخذ صاحب السفينة حصة واحدة منها، ويوزّع الباقي على الغواصين والملاحين، ويعطي الغواص ضعف ما يعطي البحار.

وقد وصف ويلم فلور الهولندي غوص اللؤلؤ في الخليج العربي، فقال ما خلاصته: في أوائل شهر تموز، تنطلق سفن صيد اللؤلؤ من البحرين وكنج والقطيف وجلفار متجهة إلى مغايص اللؤلؤ. ومتى جمعوا كمية هامة من الأصداف، يقصدون جزيرة واقعة على بعد ١٠ إلى ١٢ ميلاً من البحرين، يفتحون فيها الأصداف بحضور الناخذاه، صاحب السفينة، وحضور مراقب رسمي معين لهذه الغاية. ثم يعود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغواصون والملاحون إلى البحر فيصطادون مرة ثانية وثالثة حتى أوائل أيلول أو منتصفه.

ويتحدث ابن بطوطة عن مغاص اللؤلؤ ويقول: ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم. فإذا كان شهر أبريل وشهر مايو، تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف. ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص، شيئاً يكسوه من عظم الغيلم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض، يشدّه على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه، ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء. فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك. فإذا وصل إلى قعر البحر، يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده، أو بقطعة حديدية عنده، معدة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه. فإذا ضاق نفسه، حرّك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه إلى القارب. فتؤخذ منه المخلاة، ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة. فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر. فيجمع جميعها من صغير وكبير. فيأخذ السلطان خمسه، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب. وأكثرهم يكون له دين على الغواصين، فيأخذ الجوهر في دينه، أو ما وجب له منه.

وللسمك أهمية كبرى في نظام هرمز الجديدة التي بلغ عدد سكانها آنذاك خمسين ألف نسمة تقريباً. ويقول ابن بطوطة إن «طعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة»[1]. ويذكر في سياق حديثه عن قلهات، الداخلة في سلطنة هرمز: «وأكلت بهذه المدينة سمكاً، لم آكل مثله في اقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم، فلا آكل سواه. وهم يشوونه على ورق الشجر، ويجعلونه على الأرز ويأكلونه»[2].

ثالثاً ـ الزراعة وتربية الحيوانات في سلطنة هرمز

ولا تلائم الشروط الطبيعية ازدهار الزراعة في سلطنة هرمز، لأن تربة معظم أراضيها رملية، ومناخها مداري حار جداً وجاف جداً نادر الأمطار وضعيفها. مع ذلك فيها بقاع خصبة، مياهها الجارية كافية ومزروعاتها مشهورة.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٨١، س ٦ ـ ٧.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢٧٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ذلك أكثر ساحل عُمان من رأس الحد إلى رأس مسندم الداخل في سلطنة هرمز. فقد زاره ابن بطوطة وقال: «وهي ـ أي بلاد عُمان الساحلية ـ خصبة، ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس»، وقال عن قرية الطيبي: «وهي من أجمل القرى وأبدعها حسناً، ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات. وبها الموز المعروف بالمرواري ـ المرواري بالفارسية هو الجوهري ـ وهو كثير بها. ويجلب منها إلى هرمز وسواها. وبها أيضاً التنبول، لكن ورقته صغيرة»[1]. ويصف زراعة مدن عُمان على وجه الاجمال، فيقول: «ومن مدن عُمان، مدينة ازكي ـ لم أدخلها ـ وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة، ومنها القريات وشبا وكلبا وخورفكان وصحار، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل. وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز»[2].

ويقول ابن بطوطة عن البحرين: «وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار، وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالأيدي، فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والاترج، ويزرع بها القطن. وهي شديدة الحر، كثيرة الرمال»[3]. والقطيف مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب. والهجر أو الحسا بها من النخيل ما ليس ببلد سواها. ومنه يعلفون دوابهم»[4].

وتشبه زراعة ساحل موغ أشتان في كرمان وزراعة جزيرة القشم، زراعة سائر أرجاء سلطنة هرمز، إذ تنتجان كثيراً من التمور وتضمان بساتين وحدائق غناء في وادي نهر ميناب، يقصدها سلاطين هرمز وأثرياؤها في فصل الصيف، ومن محاصيلهما الفواكه والأعناب والبطيخ والخضار. ويقول الشريف الأدريسي: مدينة هرمز الساحلية فرضة مدن كرمان. وهي في ذاتها مدينة كثيرة العمارة كثيرة النخيل حارة جداً. ويزرع بنواحيها الكمون الكثير والنيلج[5].

---

(١) المرجع ذاته، ص ٢٧٩.
(٢) المرجع ذاته، ص ٢٨٠.
(٣) المرجع ذاته، ص ٢٨٧.
(٤) المرجع ذاته، ص ٢٨٧.
(٥) نزهة المشتاق، ص ٤٣٦ ـ ٤٤٠، وأحمد بن ماجد، الجزء الرابع، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رابعاً ـ الأعمال الحرفية في سلطنة هرمز

أخيراً الأعمال الحرفية محدودة جداً في سلطنة هرمز. منها صنع الأواني المنزلية والمنارات التي يضعون عليها السرج[1]. وقد أدت حفريات سنة ١٩٧٩ إلى اكتشاف اثني عشر فرناً، كانت تصنع فيها شتى أنواع الأواني الفخارية المزينة برسوم طبيعية وهندسية، كالحراير والطاسات والقناديل وآنية العطور والتماثيل الصغيرة وغيرها.

ومنها أيضاً نسيج الحرير في جزيرة بني جاوان (القشم)، إذ فيها قريب خمس مائة حائك يحوكون الثياب الحرير، وفيها مراكب وزروع وبلدان بجميع دورتها.

أخيراً لا بدّ من الإشارة إلى كثرة المراكب في الخليج العربي عند جميع القبائل العربية المقيمة في السواحل والجزر، وكلها تبني في منشآت ساحلية سفناً وتفصّل أشرعتها بدقة وصفها أحمد بن ماجد في حاوية الاختصار في أصول علم البحار.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٨١.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

الأحداث السياسية في سلطنة هرمز من أوائل القرن السابع الهجري إلى أوائل القرن الثامن الهجري (٦١١هـ/ ١٢١٤م - ٧١١هـ/ ١٣١١م)[1]

تمهيد

الأحداث السياسية في سلطنة هرمز من منتصف القرن الرابع الهجري إلى أوائل القرن السابع الهجري (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م - ٦١١هـ/ ١٢١٤م)

يرتبط تاريخ سلطنة هرمز ارتباطا وثيقاً بتاريخ إقليم كرمان، وتاريخ ساحل جزيرة العرب المشرف على خليج عُمان وعلى الخليج العربي، لا سيما تاريخ مدينتي قلهات وجلفار وقبيلة بني جابر. وقد قامت قلهات وجلفار بحماية سلطنة هرمز طيلة ثلاثة قرون ونيّف وصدّتا غارات القوى الخارجية الطامعة بالسيطرة الاقتصادية عليها، المُنْطلقة من فارس أو خراسان أو ما وراء النهر أو حتى من البحر.

وظنّ البعض أن تاريخ سلطنة هرمز يعود إلى ما قبل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، بلا تدقيق. ورجّح أنه بدأ في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي الذي توالى فيه على حكم إقليم كرمان سلاجقة كرمان والغز وشبانكاره وسلالة براق حاجب وغيرهم. وعلى وجه الإجمال، لم تمسّ أي فئة من تلك الفئات، عند استيلائها على السلطة، أوضاع هرمز العتيقة السياسية والإدارية والاقتصادية، بل اكتفت بفرض تبعية شكلية، وقبض مبلغ من المال عليها عرف مثلاً

(١) جان أوبين، سلاطين هرمز من القرن ٧هـ/١٣م إلى القرن ٩هـ/١٥م، المجلة الاسيوية، ١٩٥٣، ص ٧٧ - ١٢٨. انظر أيضاً البحر البرتغالي الهندي، المجلد ١، ١٩٧١، والمجلد ٢، ١٩٧٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنه بلغ ألف دينار استلمها ملك دينار سنة ٥٨٤هـ أو ٥٨٥/١١٨٨م أو ١١٨٩م. ثم إن احتلال تاج الدين أبي بكر، أحد أمراء خوارزمشاه لكرمان في أوائل القرن السابع الهجري (٦١١هـ) ومروره على سلطان هرمز وحمله مالاً منه، وتعيينه امتدادها على الساحل العربي في تلك الآونة، لدليل قاطع على وجودها في القرن السادس الهجري وعلى بقائها مستقلة بافتدائها استقلالها وحريتها بالمال، على الرغم من التقلبات السياسية في إقليم كرمان سابقاً ولاحقاً.

وقد بلغت الجغرافية العربية ذروة تطورها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وفي القرنين التاليين له مباشرة. فعني مصنّفوها بدراسة «دار الإسلام»، أي عملياً، أراضي الخلافة العباسية، من النواحي الطبيعية والبشرية والاقتصادية. وقسموها إلى أقاليم عربية وعجمية، ضمنّوها معلومات قيّمة وافرة ومتنوعة عن شتى الأقطار والبلدان. فأتاحوا الفرصة لمن يشاء من الأجيال اللاحقة أن ينهل مبتغاه من معين أبحاثهم الفريدة.

ويسترعي الانتباه أن هؤلاء الجغرافيين الكلاسيكيين لم يقتصروا على عرض الخطوط العامة لشؤون أقاليمهم، بل أوردوا تفاصيل دقيقة عن نشاط المدن البشري وعن مرافقها الاقتصادية. من ذلك ما اقتبسناه من تآليفهم عن الخليج العربي عامة وعن هرمز العتيقة خاصة.

فالخليج العربي محاط، في تصورهم، بإقليم العراق شمالاً، وإقليم ديار العرب غرباً، وعلى التوالي، بأقاليم خوزستان وفارس وكرمان ومكران شرقاً. وينفتح على بحر العرب بعد خليج عُمان. أما هرمز العتيقة، فتقع في إقليم كرمان، وتشمل ملحقاتها كلَّ ساحله ووادي نهر ميناب الأسفل، ويرتبط تاريخها بتاريخ هذا الإقليم وحده. ولم تدخل قط، لا هي ولا أي جزء منها في إقليم فارس منذ الفتح الإسلامي.

ومما قاله ابن حوقل عن هرمز العتيقة في كتابه صورة الأرض ما يلي، وذلك في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (حوالي ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م). «وينتهي إلى هرموز خليج من البحر، كتب عنده خليج هرموز، يعرف بالخبر[1]. وهرموز مجمع تجارة كرمان. وهي فرضة البحر، وموضع السوق، بها مسجد جامع ورباط. وليس بها كثير مساكن. وإنما مساكن التجار في رساتيقها، متفرقين في القرى. وبلدهم كثير النخيل.

(١) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٦٦، س ١٦ ـ ١٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والغالب على زروعهم الذرة[1]. ومن حدّ مغون وولاشجرد إلى ناحية هرموز. يزرع النيل والكمون ويحملان إلى الآفاق[2]».

وجاء ما يلي في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الذي ألّفه الشريف الأدريسي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م: «ومن مدن كرمان مدينة هرمز الساحلية التي على بحر فارس. وهي فرضة مدن كرمان. وهي في ذاتها مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، كثيرة النخل، حارة جداً. ويزرع بنواحيها الكمون الكثير والنيلج الذي إليه المنتهى في الطيب المضروب به المثل، ويتجهز به منها إلى كل الآفاق... ومدينة هرمز على خليج يسمى الخبر، يخرج من بحر فارس، تدخل فيه السفن من البحر إلى المدينة[3]».

وكتب ياقوت في معجم البلدان سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م: «وهرمز مدينة في البحر إليها خور. وهي على ضفة ذلك البحر، وهي على بر فارس. وهي فرضة كرمان، إليها ترفأ المراكب. ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخراسان. ومن الناس من يسميها هرموز، بزيادة الواو»[4]. لكنه قال عن قلهات: «وهي مدينة بُعمان، على ساحل البحر. إليها ترفأ أكثر سفن الهند، وهي الآن فرضة تلك البلاد، وأمثل أعمال عُمان، عامرة، آهلة، وليست قديمة في العمارة. ولا أظنّها تمصّرت إلا بعد الخمسماية. وهي لصاحب هرمز. وأهلها كلهم خوارج إباضية إلى هذه الغاية، يتشاهرون بذلك ولا يخفونه»[5].

وفي سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، روى أبو الفداء في تقويم البلدان، نقلاً عن شهود عيان ما يلي: «وهرموز فرضة كرمان. وهي مدينة كثيرة النخل، شديدة الحرّ. وأخبرني من رآها في زماننا هذا، أن هرموز العتيقة خربت من غارات التتر، وأن أهلها انتقلوا عنها إلى جزيرة في البحر، تسمى زرون، وهي جزيرة قريبة إلى البر، غربي هرموز العتيقة. ولم يبق بهرموز العتيقة إلا قليل من أطراف الناس. وزرون قبالة عُمان... ومن هرموز إلى أول حد فارس نحو سبع مراحل. ومن المشترك: وهرموز مدينة بأقصى كرمان، تدخل إليها المراكب من بحر الهند في خليج»[6].

---

(١) المرجع ذاته، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) المرجع ذاته، ص ٢٧١، س ٢٤.
(٣) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٤٣٦، من الطبعة الايطالية.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٠٢، طبعة صادر.
(٥) المرجع ذاته، ج ٤، ص ٣٩٣.
(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنشاط البحري والتجاري في مدن الخليج العربي موضوع لم يهمله الباحثون البتة. لكنهم لم يستخلصوا من دراستهم ظاهرته الاستنتاجات التي يقتضيها التاريخ الاقتصادي الخاص بالشرق المسلم، وتستدعيها معرفة انتشار الفرس في أنحاء المحيط الهندي، التي ينبغي أن تسترعي انتباهنا كاملاً. فبالنسبة إلى التاريخ، قد تصل تأثيرات هذه القضايا إلى مدى، لا حاجة للتذكير به. وهذا يعني وجوب توسيع حقل التحريات والتدقيقات ليشمل أساكل الهند الجنوبية والبحر الأحمر، وشبكة طرق القوافل، ووضع ما تخترقه من بلدان، مثل كرمان وفارس والعراق، وما تنتهي إليه من مراكز واقعة خلفها، وضرورة التعمّق بالوثائق وإزالة فقدان الثقة بالحوليات الضئيلة الأهمية وبالتواريخ المحلية، وإنقاذ نصوص السِّيَر من النسيان، واستنطاق رملات الشواطىء أيضاً.

وتتميز المراجع المسلمة، المستفاد منها حتى الآن، بطابع وصفي موجز، مثل أخبار رحلات الأوربيين الذين مروا بالهند في القرون الأخيرة من العصور الوسطى. وقطعاً، لا يسعنا أن نطلب منها إعطاء أرقام. أما الظروف السياسية التي تمّ فيها التفوق التجاري لمدن الخليج العربي، فتكاد لا تتضح فيها.

وسوف نتوقف عند هذه المسألة الأخيرة، فنبدأ ببساطة بدراسة تاريخ السلالة التي حكمت في هرمز على مدى قرنين.

وقد عثر على حوليات تناولت الخليج العربي بحدّ ذاته.

١ ـ فوصّاف يخبرنا أن المدعو سعد الدين، إمام قيس، كتب تاريخ ملوك جزيرة قيس، وعنونه «تاريخ ملوك بني قيصر»، ودوّن فيه منهجياً لقب كل سلطان ملكها ونسبه ومآثره ووقائع عهده. ويؤسف لأن وصّاف لم يدخل في مصنفه مضمون ذلك العمل الذي لم يصلنا.

٢ ـ وفقد أيضاً تاريخ سلاطين أو ملوك هرمز الذي ألّفه بعد سنة ١٣٥٠ تورانشاه، أحد سلاطين ذلك البيت الملكي، وعنونه «شاهنامه». ونحن نعرفه من ترجمة قشتالية مختصرة له، أجراها الرحالة البرتغالي بدرو تكسيره. ويصعب علينا الحكم على درجة الأمانة في ترجمة تكسيره لضياع الأصل المترجم.

والشاهنامة حولية رسمية. فلا بدّ أن مترجمها وقع على مخطوطة لها معتنى بها. خلافاً لما نقله البرتغاليون من ألفاظ ـ وكانوا يفهمون اللغة الفارسية لكن لا يقرؤونها ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن الأعلام فيها يسهل معرفة أصلها. (مع ذلك، تختلف ترجمة غسبار داكروز للشاهنامة عن الترجمة القشتالية في بعض النصوص).

واهتم تكسيرة كثيراً بتاريخ بلاد فارس، فلخّص كتاب «روضة الصفا» لمرخواند. ولم تكن محاولته هذه الأولى من نوعها: فقد سبقه باروس إلى الاستفادة من مرخواند. ويبدو أيضاً أنه كان في متناول يد تكسيرة مختصر للشاهنامة وعدد من الوثائق الأخرى. إنما يحتاج تكسيرة إلى شيء من الحس النقدي هنا وهناك، لكنه معذور: ففي حديثه عن قبائل جرمسير التي يسميها أمادي وغول، يتصور أنها قد تكون أصل «القصص الخيالية لرواية أمادي غول». وينهي نبذته عن هرمز بتعداد أسماء خمسة سلاطين، منهم ثلاثة إخوة ملكوا من سنة ١٣٧٨ إلى ١٥٠٧. ويحيل من جهة أخرى إلى العقد الثاني من آسية باروس الذي يحتوي على تفاصيل كثيرة أخرى (عقد ٢، كتاب ٢، فصل ٢). ولا أظنّ أن ثغرات أخبار تكسيرة عائدة كلها إلى مصدره.

ويمكن الحصول بين الفينة والأخرى على أخبار تتضمّنها التواريخ المحلية أو تواريخ السلالات الخاصة ببلاد فارس الجنوبية، كما في الحوليات المحررة لملوك المغول أو الملوك التيموريين أو لوزرائهم. فنجد عند وصّاف مثلاً معلومات دقيقة وطريفة عن جزيرتي قيس وهرمز، لا ترد عند سواه. ولا غرابة في ذلك لأن أصله من شيراز.

٣ ـ وبعد فترة قصيرة، خصّص مؤرخ آخر، أصله من بلاد فارس الجنوبية، اسمه شبانكاري، لملوك هرمز قسماً من تاريخه العام مجمع الأنساب.

٤ ـ كذلك فعل في القرن التالي معين الدين نطنزي، الذي عاش في بلاد فارس، فألّف كتاب «منتخب التواريخ المعيني» لميرزا اسكندر بن عمر شيخ حفيد تيمور، ومؤلف آخر اسمه الجعفري، أشار إليه برتولد في مقال نشر بعد وفاته. ونحن نعرف الآن ما كان برتولد يجهله من أن أصل الجعفري من يزد، وأنه خلّف مع تاريخه العام تاريخاً لهذه المدينة.

* * *

عندما وصل هولاكو إلى فارس، كان بنوسلغر أي أتابكة فارس، يسيطرون على المياه الغربية في الخليج العربي. وكان الأتابك أبو بكر قتلغ خان بن سعد الدين بن زنكي تابعاً للمغول، ويصطدم بتنظيم إمارة شبانكاره القوي. فتخلى عن التفكير في التوسّع على البر الرئيس، واتّبع سياسة هيمنة منهجية على الخليج العربي نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً ـ خلاف سلطان هرمز سيف الدين بانضر والأتابك أبي بكر قتلغ خان

وكان سيف الدين بانضر، سلطان هرمز، قد احتّل جزيرة قيس لحساب الأتابك أبي بكر في جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. إلا انه أخلّ باتفاقه مع الأتابك أبي بكر الذي هاجم جزيرة قيس، وانتزعها من سيف الدين با نضر في شهر محرم سنة ٦٢٨هـ/آب ١٢٣٥م. وسماها «دولة خاتنة أي ـ إسلام»، وهذه تسمية لها مغزاها. ثم زحف على أوال (البحرين)، واحتلها أيضاً في شهر ذي الحجة سنة ٦٣٣هـ/آب ١٢٣٥م. وكانت جزيرتا قيس وأوال تدفعان الخراج للخليفة العباسي (المقصود المستنصر: ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ـ ٦٤٠هـ/١٢٤٤م). وفي ربيع سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م، جاء دور القطيف، فسقطت قلعتها، وقتل رئيس قبيلتها. إلا أن العرب أعلنوا على الأتابك أبي بكر ثورة دائمة، اضطرته ان يحتفظ فيها بقوات مسلحة يصعب عليه الإبقاء عليها فيها، كان يجدّدها كل عام. في النهاية تفاهم الأتابك أبي بكر مع زعماء العشائر على ان يحتفظ بالقطيف ويأخذ خراجها، لقاء دفعه لهم ١٢٠٠٠ دينار مصري، يؤديها في موسم قطاف التمر.

وكان الأتابك أبو بكر يتتبّع باهتمام نشاط جزيرة قيس الاقتصادي. وكان أول ما قام به با نضر سلطان هرمز هو قتل عاهل جزيرة قيس، الملك سلطان، الذي انقرضت سلالته بموته (الثلاثاء جمادى الآخرة ٦٢٦هـ/أيار ١٢٢٦م). ثم أعدم وجهاءها أيضاً. ويربط التقليد ذكرى هذه الواقعة باسم أحد جبال جزيرة جرون.

وكان الأتابك أبو بكر قتلغ خان يعيّن في قيس ولاة يثق بهم كثيراً وموظفين مدنيين (الكتّاب) ويضع فيها حامية تذود عنها تتألف من خيرة الجنود الأتراك واللور وأهل السواحل. ويختزن فيها الحبوب والأسلحة ولوازم السفن كالخشب والعدد. ويبدو أن جزيرة قيس كانت تتمتع بشيء من الحكم الذاتي، إذ يقول وصّاف عن ممارسة السلطة فيها: «كانت أوامر ممثلي الأتابك تنفذ في جميع المقاطعات الساحلية، حتى إنهم كانوا يقومون بجمع أموال الضرائب وتعبئة الجنود، عند الضرورة، من مختلف المناطق حسبما يشاؤون وتقتضيه الظروف دون العودة إلى الأتابك». ويضيف: «وكانت جميع هذه الإجراءات تمنع محمود القلهاتي، سلطان هرمز من مهاجمة جزيرة قيس».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانياً ـ السلطان شهاب الدين محمود بن عيسى والسلطان محمود القلهاتي

ونحن نجهل وضع العلاقات بين ملوك هرمز وبين الأتابك السلغري أبي بكر قتلغ خان بعد قضية استعادته جزيرة قيس من سلطان هرمز سيف الدين با نضر سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م. إلا أن سبولر يتحدث عن تبعية هرمز الضعيفة والاسمية للسلطة السلغرية، أي الأتابكية في فارس. لكننا نعتقد ان ما ضلّله هو التعابير التي استخدمت عند الكلام عن محمود القلهاتي. «حاكم هرمز في أيام أبي بكر الأتابك» وعن هجومه(أي محمود القلهاتي) على جزيرة قيس سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م، الذي وصف بانه عصيان. ففي ذلك التاريخ، كان المغول مسيطرين على فارس. وجابه محمود القلهاتي سوغونجاق المغولي. وينبغي ان ندرك ان العصيان حصل ضد أباقا لا ضد أبيش خاتون. ثم إن هرمز لم ترد في تعداد ممتلكات الأتابك أبي بكر قتلغ خان، على الأقل في المصادر الأصلية. ومن المؤكد أن سلطان هرمز في هذا الوقت وقبله كان تابعاً لسلاطين كرمان. فقد تمّ الاعتراف ببلاق حاجب في هرمز. وكان نجله السلطان ركن الدين يذهب شخصياً كل سنة إلى سردسير وجرمسير في منطقة هرمز وكرمان، وينفق بسخاء في الأعمال الخيرية ما يكون قد جمعه من أموال.

ويذكر حافظ أبره أن نزاعاً نشب سنة ٦٤٣هـ/ صيف ١٢٤٥م بين سلطان هرمز ركن الدين محمود بن أحمد القلهاتي وبين ركن الدين بلاق حاجب، سلطان كرمان الذي سار إليه بجيش عرمرم. وقضى القيظ على حملة ركن الدين بن بلاق الذي تراجع عندما بعث إليه محمود القلهاتي بالخراج، ووقّع معه صلحاً واهياً. ومع أن محمود القلهاتي تعهد بأداء مبلغ من المال إلى سلاطين كرمان، إلا أنه احتفظ لنفسه باستقلال واسع. ولم يفرض عليه أحد مبلغاً محدداً. ويروي ماركو بولو ان سلطان كرمان، إذا ما أراد فرض ضرائب باهظة على تابعه سلطان هرمز، كان هذا الأخير يركب البحر، ويمنع السفن القادمة من الهند من الدخول إلى الخليج العربي، فيصاب سلطان كرمان بخسائر فادحة، وتتناقص رسوم جماركه، ويضطر في النهاية أن يصالح سلطان هرمز دون أن يفرض عليه أداء ما يطالبه به من خراج.

وكان محمود القلهاتي رجلاً جريئاً. فقد اعتلى العرش بالقوة.

آ ـ ولا يذكر تكسيره شيئاً عن ذلك.

ب ـ أما شبانكاري، ونطنزي بعده، فيرويان ان شهاب الدين محمود بن عيسى،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطان هرمز، تزوج من ابنة عمه كريمة سيف الدين بانضر، فاتح جزيرة قيس سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م. لكنها أغرمت بابن عم زوجها، المسمى حسب تكسيره محمود بن حامد (أو أحمد)، المعروف بمحمود القلهاتي، نسبة إلى مدينة قلهات على ساحل عُمان، جنوبي شرقي مسقط، وكان والياً عليها. ويقال ان محمود القلهاتي حثّها على تسميم زوجها، ففعلت وتوفي بعد مضي أربعة أشهر. وقد أوصلت هذه المرأة النشيطة محمود القلهاتي إلى السلطة وتزوجته.

واستبدّ محمود بالحكم، واستخدم قطّاع الطرق الذين ارعبوا الخليج العربي.

جـ ـ ويزعم شبانكاري ان محمود القلهاتي استولى على جزيرتي قيس والبحرين وعلى القطيف وتزفين؟ وظفار. ويضيف نطنزي إلى هذه اللائحة «بعض مناطق هندستان». فهل نفهم من ذلك بعض نقاط الارتكاز على الواجهة البحرية في السند ومكران الشرقية؟ وإذا صدق رشيد الدين، فإن الأتابك أبا بكر بن سعد بن زنكي كان معترفاً به في بعض بنادر الهند، وانه «خطب له في بعض أنحاء الهند». لكن مثل هذه الألفاظ مكررة حسب الأمزجة ومغلوطة. وسوف يقول نطنزي صراحة: «فتح جزر بحر عُمان وسواحله مثل قيس والبحرين والقطيف، من كمباية إلى البصرة». وفي القرن الخامس عشر سوف يؤكّد عبد الرزاق السمرقندي هذه الأخبار عن سلطان هرمز سيف الدين مهار (٨٢٠ ـ ٨٤٠هـ)، مما يدفع إلى التفكير فقط بأن مستعمرات التجار العرب والفرس، المقيمين في الهند الذين يلعبون فيها دوراً اقتصادياً كبيراً، كانت مدعوة لأن تخدم مصالح السلطة السياسية القائمة في الخليج العربي في فترة معينة.

د ـ مع ذلك يخبرنا وصّاف ان حظّ محمود القلهاتي لم يتناسب دوماً مع مقدرته. فإذا فتح ظفار مؤقتاً، يبدو انه أصيب بخيبات أمل في عُمان. ونحن نعرف انه أنزل جيشه في جزيرة قيس في مطلع سنة ٦٧١هـ/ صيف ١٢٧٢م. إلا أن سوغونجاق المغولي حاكم فارس، طرده منها، إذ حشد أسطولاً في خورشيف، وجمع قوات مغولية ومسلمة. ونشبت معركة بحرية بين جزء من أسطوله وبين أسطول محمود القلهاتي، أوقفتها عاصفة بحرية، أنزلت أضراراً جسيمة بأسطول سوغونجاق، وتجنّبتها طواقم أسطول محمود القلهاتي الأفضل تدريباً دون أن تمنى بأعطال كبيرة. على أن سوغونجاق أعاد الكرة بأسطول آخر، واضطرت مهارة رماته البحريين المغوليين القلهاتي إلى الفرار. وتحررت جزيرة قيس إثر ذلك. ويقول حافظ أبره ان سوغونجاق لحق عدوه حتى قلهات. وتألف قسم من الأسطول المغولي من مراكب صودرت في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحرين وعلى السواحل المجاورة لها. ويستبعد ان يكون محمود القلهاتي، بعد فشله في جزيرة قيس، قد استطاع ان يجازف بالاستمرار في الاتجاه نحو الغرب في الخليج العربي.

هـ ـ ويقول تكسيره إن محمود القلهاتي توفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨م. (ويؤكد كتاب سمط العلى، أن نجله سيف الدين نصرت كان سلطاناً على هرمز في ذلك التاريخ)، بعد حكم دام ٣٥ عاماً. بالتالي يكون قد اعتلى العرش سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣ ـ ١٢٤٤م. ويتحدث حافظ أبره عن نشاطه منذ ٦٤٣هـ كما رأينا.

ثالثاً ـ النزاع على عرش هرمز
بين أنجال محمود القلهاتي بعد وفاته

آ ـ حكم السلطان سيف الدين نصرت

نشبت نزاعات طويلة على عرش هرمز بين أنجال محمود القلهاتي عقب وفاته. وحسب تكسيره، خلفه مباشرة سيف الدين نصرت: ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨م، إلا ان أوائل عهده بدت مبهمة.

ب ـ نزاعه مع شقيقيه قطب الدين تهمتن الأول ومعزّ الدين فولاذ

١ ـ فقد ثار عليه شقيقاه قطب الدين تهمتن الأول ومعزّ الدين فولاذ، فاضطر إلى الهرب مع والدته بيبي بانوك. وأعاده إلى عرشه سلطان كرمان جلال الدين سيورغتميش.

٢ ـ واستمرّ شقيقاه في مخاصمته، فألقى القبض على معزّ الدين فولاذ وأعدمه. وسار قطب الدين تهمتن الأول على هرمز، وهزم شقيقه سيف الدين نصرت الذي لجأ إلى جزيرة قشم. لكن بعد مدة قصيرة، اغتيل قطب الدين تهمتن الأول على يد الأمير سيف الدين أبي بكر خاني، أحد أنصاره.

٣ ـ عندئذٍ استدعى الجيش سيف الدين نصرت، وحكم اثنتي عشرة سنة، أي حتى عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩١م.

ويقلّ الوضوح في المراجع الفارسية المألوفة. فوصّاف يتجاهل النزاعات التي نشبت بعد وفاة محمود القلهاتي. ويذكر شبانكاري ونطنزي ان قطب الدين تهمتن الأول خلف والده. ويأتي قطب الدين تهمتن على رأس قائمة شبانكاري، ويعدّه بكر أنجال القلهاتي ويسميهم. ويليه أخوان آخران أحدهما معز الدين فولاذ الذي اشترك

بالتمرد على سيف الدين نصرت الذي يجيء في المرتبة الرابعة. وكانت بيبي بانضر والدة سيف الدين نصرت، وليست أم قطب الدين تهمتن، المولود من زواج آخر يعود تاريخه بلا ريب إلى ما قبل اعتلاء محمود القلهاتي عرش هرمز. ويمكننا أن نتصوّر هذه الأميرة الطاعنة في السن التي تخلّت عن السلطة لمحمود القلهاتي لولعها به، وهي تناور وتحاول فرض ابنها سلطاناً، رغم حقوق أبناء زواج آخر، مما آثار تمرّدهم.

ويؤكد عرض كتاب سمط العلى جزئياً رواية تكسيرة: ففي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م (بالتالي بعد مضيّ فترة قصيرة جداً على وفاة محمود القلهاتي) هرب (من كرمان) سيف الدين ملك (والده) وتاج الدين ملك يعقوب وأمراء آخرون، وذهبوا إلى هرمز، واحتلوا هذه الولاية، وأساؤوا معاملة سلطانها سيف الدين نصرت الذي توارى عن الأنظار. فأرسلت تركان خاتون... اثنين من أمرائها، أوقفا سيف الدين ملك وأعوانه، وأرجعاهم جميعاً إلى كرمان. فاستعاد السلطان سيف الدين نصرت عرشه، وأرسل والدته بيبي بانضر حاملة اللآلىء والأواني الثمينة والهدايا والمواد النادرة إلى بلاط تركان خاتون. فلقيت الترحيب ونفذت رغباتها وعادت.

وتتفق هذه الشهادة مع شهادة تكسيرة، فيما يتعلق ببقاء حكم قطب الدين تهمتن الأول بضعة أشهر في الحد الأعظم سنة ٦٧٦ ـ ٦٧٧هـ. لكنها تؤول إلى إعادة سيف الدين نصرت مرة واحدة. فهل يسمح التباين بين سرد الخبرين بالكشف عن جانب مهم من القضية؟ يقول تكسيرة إن سيف الدين نصرت أعيد (أول مرة) على يد جلال الدين سيورغتميش. ويتحدث كتاب مجمع الأنساب من جهته عن حسن العلاقات بين قطب الدين تهمتن وتركان خاتون. ونحن نعلم أن أزمة خطيرة نشبت سنة ٦٧٦هـ بين تركان خاتون وبين سيورغتميش، اضطرته هو وبعض الأمراء إلى اللجوء إلى الأردو. ويعود تاريخ هرب سيف الدين ملك إلى هذا الوقت.

وتجلّى مجدداً تدخّل كرمان في شؤون هرمز في أثناء اغتيال سيف الدين نصرت. فكانت والدته تتدخل في شؤون الحكم، وتزعم أنها مشاركة فيه. فنصحت ابنها سيف الدين نصرت، لكي تضمن انتقال كرسي السلطنة إلى ذرّيتها، ان يقضي على أشقائه من زواج ثالث لمحمود القلهاتي على الأرجح: بالفعل يشرح شبانكاري ان أياً من أبناء محمود القلهاتي، بعد وفاة قطب الدين تهمتن الأول (فولاذ توفي من قبل)، لم يكن لديه إمكانية استلام زمام الملك مثل إمكانية سيف الدين نصرت، لأنه كان نجل الخاتون الأصلية، الزوجة الرئيسة، كريمة سيف الدين بانضر، وسليلة الملوك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القدامى.

جـ ـ نزاع سيف الدين نصرت مع شقيقيه ركن الدين مسعود وشمس الدين تركانشاه ومقتله

وفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، مرض سيف الدين نصرت، فتآمر عليه أخواه ركن الدين مسعود وشمس الدين تركانشاه، وقتلاه هو وزوجته. ويذكر تكسيره انهما قتلا أيضاً اثنتين من شقيقاته، يسميهما بيبي بانوك وبيبي نيتي. وبيبي بانوك هو الاسم الذي أطلقه قبل بضعة أسطر على والدة سيف الدين نصرت، التي لم يعف عنها المتآمرون بالتأكيد. ويمكن أن نفترض أن تكسيره وقع في خطأ مزدوج في درجة قرابة الامرأتين لسيف الدين نصرت.

د ـ حكم ركن الدين مسعود

ويذكر كتاب سمط العلى ان هذه الواقعة لم تحصل سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، بل سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٣م: «ففي أثناء إقامة جلال الدين سيورغتميش في منطقة رودبار، في فصل شتاء ٦٩١هـ/ أوائل ١٢٩٢م، قتل ركن الدين مسعود بن السلطان ركن الدين محمود القلهاتي شقيقه السلطان سيف الدين نصرت حاكم هرمز. وعندما سمع السلطان جلال الدين النبأ، سارع إلى هرمز، واستدعى ركن الدين مسعود، فخاف مسعود، واحتجز مبالغ هامة من المال كدليل على إخلاصه، وأرسل إلى البلاط ١٦٠,٠٠٠ دينار أسدي (أي حسب مؤلف سمط العلى نصف مليون دينار من الدنانير الحالية)، وحليّاً ولآلىء وأشياء ثمينة. فسامحه السلطان، وثبّته على العرش الذي يعدّ وريثه، وعاد. ويبدو أن شبانكاري يؤيد تاريخ ٦٨٩هـ، ويقول ان التمرد أعدّ خلال عدة سنوات، وانطلق من قلهات.

رابعاً ـ النزاع بين سلطان هرمز ركن الدين مسعود وبين حاكم قلهات بهاء الدين أياز

كان بهاء الدين أو شهاب الدين أياز حاكم قلهات التابعة لسلطنة هرمز. وهو تركي عمل في خدمة ركن الدين محمود القلهاتي ثم في خدمة سيف الدين نصرت. ثم تزعّم التمرّد على ركن الدين مسعود، وأجبره على الفرار إلى كرمان، تاركاً وراءه زوجته تحت رحمة أياز الذي رمى نجل ركن الدين من أعلى قصره. وبذا كان السلطان ركن الدين لديه أكثر من سبب لبغض الحاكم أياز، على حد قول وصّاف. وفي كرمان كان الحاكم جلال الدين سيورغتميش، فأعطى ركن الدين مسعود جيشاً استعاد به هرمز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من بهاء الدين أياز.

إلا ان حاكم فارس دعم أياز سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، فطرد أياز ركن الدين مسعود مجدداً ولثاني مرة من هرمز. وكانت باديشاه خاتون قد خَلَفَتْ جلال الدين سيروغتميش في حكم كرمان، فضحّت بركن الدين مسعود: وأرسلت رسلها إلى هرمز، وجلبوا إلى بلاطها ذلك السلطان القليل الحظ، وسمّت السلطان بهاء الدين أياز نائبها في جزيرة هرمز.

ومثّل هذا التبدّل في موقفها اعترافاً بالوضع الراهن، لكن له دوافع أعمق. فقد كان لباديشاه خاتون صلات وثيقة بممثلي التجارة الدولية العامة، بخاصة بجمال الدين ابراهيم بن محمد الطيبي، الذي كان مثلما سوف نرى، يسيطر على فارس. بالمقابل، اعتمد أياز على كرمان، رغبة منه بتضليل شركات التجارة في شيراز، التي أيدته في أوائل عهده لغاية واضحة جداً.

خامساً ـ الصراع بين سلطنة هرمز وجزيرة قيس: بهاء الدين أياز وآل الطيبي

وفي عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، عندما استرجع ركن الدين مسعود هرمز من أياز، التجأ أياز مع بعض مراكبه إلى جزيرة قيس التي ألحقها بفارس الأتابك الفارسي أبو بكر قتلغ خان بن سعد الدين بن تكلة بن زنجي. وكان جمال الدين بن محمد الطيبي، الملقب بالسواملي، أعظم التجار العرب والفرس في أيامه، يسيطر على جزيرة قيس، ويمثل فيما يبدو مصالح اقتصادية قوية.

آـ سيطرة آل الطيبي، من جزيرة قيس، على تجارة الهند وعلى تجارة بحار الشرق الأقصى

١ ـ نفوذ التاجر جمال الدين ابراهيم بن محمد الطيبي السواملي في الخليج العربي وفي فارس: ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م

منذ سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، التزم جمال الدين ابراهيم بن محمد الطيبي خراج فارس وجزيرتي دلا وأنجو، لأربعة أعوام، بمبلغ ألف تومان (ليرة ذهبية). ومنحه الايلخان الجايتو امتيازات رفيعة، منها لقب ملك الإسلام والحق بالنوبة المثلثة. وحصل، مقابل دفعه خراج السنة الأولى بسرعة، على الاستقلال عن الموظفين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المغول، على الأقل مبدئياً، لأن عجز الميزانية الايلخانية كان يضعه دوماً أمام متطلبات غير متوقعة.

وكان ملك الإسلام قد استغنى من التجارة مع الصين. وكان بوسعه أن يقوم، في إحدى المراحل الكبرى لتاريخ التجارة الدولية، بصفقات، يعطينا المؤرخ وصّاف الذي عرف جيداً جمال الدين ابراهيم تفاصيل دقيقة عنها.

وكان يهيمن هيمنة شبه تامة على تجارة الهند وتجارة بحار الشرق الأقصى، التي نشأ عنها «ازدهار جزر الخليج العربي خاصة، وازدهار البلدان الأخرى عامة، كالعراق وخراسان وبلدان الروم والفرنج».

٢ ـ نفوذ شقيق جمال الدين ابراهيم، تقي الدين عبد الرحمن الطيبي في الهند الجنوبية: ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م

وكان وضعه قوياً جداً في الهند في عام ٦٩٢هـ أيضاً، لأن شقيقه تقي الدين عبد الرحمن الطيبي كان يحمل لقب مرزبان الهند، وأصبح وزيراً عند أحد أمراء الهند الجنوبية. واستقل، فيما يبدو، في بعض مدن ساحل الهند التي تعدّ أساكل فعلية (بنادر) للصين يعاد منها شحن حمولات الجنوك الصينية إلى البلدان الإسلامية.

ويقول وصّاف: «عندما تصل سلع الشرق الأقصى والهند، يمنع مندوبو تقي الدين الطيبي ووكلاؤه إجراء أي صفقة تجارية عليها، ويحتفظون له بالنفيس منها، فيرسله إلى جزيرة قيس على مراكبه. وفي جزيرة قيس نفسها يحظر إجراء أي صفقة تجارية قبل أن يختار وكلاء ملك الإسلام جمال الدين ابراهيم، السلع التي يريدونها، لا سيما الأقمشة. بعد ذلك يسمحون لسائر التجار بالشراء».

٣ ـ سعي جمال الدين ابراهيم لإبقاء ازدهار جزيرة قيس

وحافظ ملك الإسلام جمال الدين ابراهيم على ازدهار جزيرة قيس، وجعلها وسيلة نفوذه الأساسية، فكانت آخر الممتلكات التي احتفظت بها ذريته. لذلك اعتبره كتاب مجمع الأنساب «أول ملوك قيس». ولا ينطبق قول حمد الله مستوفي القزويني بأن ملوك قيس سيطروا في الماضي على جميع فارس إلا على جمال الدين ابراهيم، وليس على بني قيصر. وتستحق هذه السلالة للتجار الارتاقية أن نتعرّف عليها على أفضل وجه، لأنها تكشف أموراً عن الأوساط الاجتماعية والحكومية في فارس المغولية، وتوضح دورها فيها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ استغلال جمال الدين ابراهيم الاضطراب السياسي في هرمز العتيقة للسيطرة عليها

١ ـ اتفاق جمال الدين ابراهيم وبهاء الدين أياز على سلطان هرمز ركن الدين مسعود واحتلال هرمز العتيقة

أتاح عدم الاستقرار السياسي في سلطنة هرمز لملك الإسلام فرصة الهيمنة على البندر الثاني في الخليج العربي. لذلك استقبل بهاء الدين أياز في جزيرة قيس، وسمح له أن يعبىء فيها جيشاً، خصّص لنفقاته إعانة سنوية مقدارها ١٢٠٠٠٠ دينار أحمر، صرفها من وارداته الشخصية. إضافة إلى هذا الدعم المالي، اشترك ملك الإسلام جمال الدين ابراهيم في حملة بهاء الدين أياز الثانية الحاسمة على السلطان ركن الدين مسعود.

وفشل سلطان هرمز ركن الدين مسعود في الحيلولة دون احتلالها، مع انه نهب جزيرة قيس التي كانت خالية من العسكر، وغنم منها ما يزيد على ما قيمته ٢٠٠ تومان ذهب من الحراير والأقمشة المتنوعة العائدة لجمال الدين وتجار آخرين.

وقرأ بهاء الدين أياز الخطبة للملك المعظم فخر الدين أحمد، نجل جمال الدين ابراهيم، وسكّ العملة باسمه. وكان جمال الدين قد عيّن ابنه فخر الدين حاكماً على المقاطعات البحرية التابعة لفارس.

٢ ـ الاختلاف بين فخر الدين أحمد نجل جمال الدين ابراهيم وبين أياز ونتائجه وانتصار أياز على ملك الإسلام والد فخر الدين أحمد:

وفي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، نشب خلاف بين فخر الدين أحمد (نجل جمال الدين) وبين بهاء الدين أياز، فذهب ملك الإسلام جمال الدين ابراهيم إلى هرمز العتيقة. وتذرّع بهاء الدين أياز بإخلاصه، لكنه بدا مصمّماً على مقاومة إبعاده عن هرمز، لا سيما انه علّق آماله على كسب الجيش إلى جانبه. بالفعل، في هذا الجو المتوتّر، نشب بغتة شجار في ٦ رمضان سنة ٦٩٥هـ/ ٨ تموز ١٢٩٦م، فانضمت معظم حامية هرمز إلى جانب بهاء الدين أياز. وقتل عدد كبير من الجند، وأصبح ملك الإسلام جلال الدين ابراهيم تحت رحمة بهاء الدين أياز الذي هدّأ أنصاره، وسمح له بأن يغادر هرمز العتيقة. وفي مكان آخر نسب وصّاف اعتدال بهاء الدين لا إلى اعترافه بجميل ملك الإسلام، بل إلى سماعه خبراً يفيد أن ركن الدين مسعود يتجه إلى هرمز العتيقة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ ـ حملة جمال الدين ابراهيم وركن الدين مسعود على هرمز العتيقة وعقد الصلح بين جمال الدين وبين أياز

١ ـ ذهاب جمال الدين ابراهيم إلى بلاط محمود غازان

ثم غادر جمال الدين هرمز العتيقة ماراً بقيس وشيراز قاصداً بلاط محمود غازان إيلخان المغول الذي استدعاه إليه فمثل بين يديه في الأيام الأخيرة من سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م. وفي أول محرم سنة ٦٩٦هـ/ ٣٠ تشرين الأول ١٣٩٦م، تعيّن أحمد خالدي زنجاني وزيراً، وكان راضياً عن ملك الإسلام، فقدمه إلى محمود غازان. وأقام جمال الدين ابراهيم على شرف غازان وليمة يعجز ملوك عصره عن إقامتها. وأهداه ألف حصان مخصي، ولآليء، وأوعية صينية وهندية. فكانت الثقة به تامة، وسلّم له عز الدين مظفّر وأعدم وكان أحد الموظفين الذين أزعجوه.

وفي ١٠ محرم ٦٩٦هـ/٨ تشرين الثاني ١٢٩٦م، جرى تدقيق إدارته السابقة، ولزّم خراج فارس وشبانكارة، وأضيف إليهما العراق العربي لمدة ثلاثة أعوام مع واسط والبصرة اللتين كان يطمع بهما بسبب وظيفتيهما الاقتصادية. وزيد على هذه الفوائد الاقتصادية امتيازات سياسية في فارس. وأشرك في هذه العملية الأخيرة إمام الدين يحيى بكري القزويني، حاكم العراق.

٢ ـ تعبئة جمال الدين ابراهيم جيشاً لطرد أياز من هرمز العتيقة ونهب أياز جزيرة قيس

واستأذن جمال الدين ابراهيم بالسفر بعد مرور شهرين على وجوده عند غازان، وأجيز له تعبئة جيش من المغول والمسلمين لطرد بهاء الدين أياز من هرمز العتيقة. وجاء ركن الدين مسعود من كرمان، وطلب قيادة الجيش. فقبل ملك الإسلام طلبه وتناسى قضية سلبه جزيرة قيس وصرف أكثر من ٢٠ تومان ذهباً على تجهيز الحملة التي تطوّع فيها أتراك وشول وشبانكارة.

وسيّر ملك الإسلام في البر الجيش الذي رأسه ركن الدين مسعود، وذهب هو في البحر «لمهاجمة أياز من الجهتين». وجرت عدة محاولات تفاوض وظلت بلا جواب.

ووضع بهاء الدين أياز رجاله ومؤونتهم في مراكبه، وخرج إلى عرض البحر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكاد الغذاء ينقصه لولا نجاحه في قطع الطريق على مركبين يحملان المؤن لملك الإسلام. وكان داخل البر خالياً من الموارد، فقلت المؤن عند المهاجمين. وأخفقت جهود منع بعض عناصر الجيش المهاجم من الصعود إلى المراعي. فقرّر ملك الإسلام الشروع بالهجوم. وناور بهاء الدين أياز مناورة بارعة، نجح فيها بتفريق المراكب التي كانت تلاحقه وأسرها مركباً مركباً. ثم أبحر باتجاه جزيرة قيس، حيث قاومه حصنها فقط. ودام نهبها واستباحتها ثلاثة أيام.

٣ ـ عقد الصلح بين جمال الدين ابراهيم وبهاء الدين أياز

وفي ربيع سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، (حرفياً: في موسم المعبر)، فاتح جمال الدين ابراهيم بهاء الدين أياز بالصلح. فقبل هذا الأخير، وأرجع عدداً من المراكب التي استولى عليها، ثم ذهب إلى جزيرة قيس لتجديد تحالفه مع جمال الدين ابراهيم. فعاد ركن الدين مسعود إلى كرمان، ولقي استقبالاً سيئاً نتيجة دسائس أياز. وسجنه تاج الدين خوافي الذي عيّن حاكم سرجان سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م. ثم خففت الحراسة عليه بعد مدة من الزمن، فهرب، واتجه إلى أحد حصون هرمز العتيقة، لكنه لم يتمكن من دخوله. وتوّه في الأرض بلا هدف معيّن حتى وصل إلى سرجان حيث تغاضوا عن هربه.

وتحسنت علاقات ركن الدين مسعود بسلاطين كرمان، فتزوّج من إحدى أميراتهم، وأنجبت له ولدين، فأقطع أرضاً. وأقام تارة في كرمان وطوراً في سرجان، حيث توفي قبل سنة ٧١١هـ، وهي سنة وفاة أياز. وكان سيافوش أصغر نجليه ما زال يعيش في سرجان عند تأليف مجمع الأنساب (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢ ـ ١٣٤٣). وكان يذهب أحياناً إلى هرمز العتيقة. وكانت علاقاته بقطب الدين تهتمن الثاني (١٣١٩ ـ ١٣٤٧) حسنة. ويقول نطنزي انه لم يبق في كرمان.

د ـ شراء أياز جزيرة جرون من خواجا جمال الدين نعيم القائم بمهام فخر الدين أحمد الغائب في الصين وبناء هرمز الجديدة

ويعتبر جميع الباحثين بهاء الدين أياز شخصية فذّة. فعندما كانت جزيرة قيس تتفوق على هرمز القديمة بأهميتها التجارية، أنشأ قوة عسكرية برية وبحرية هائلة.

١ ـ دحر بهاء الدين أياز عصابات التتر

وفي سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م، مكّنته قوته من دحر عصابات التتر التي غزت فارس،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم جاءت إلى هرمز القديمة وحاصرتها. وارتبط هذا الحدث التاريخي بنقل مدينة هرمز العتيقة من الساحل إلى جزيرة جرون، الواقعة على بعد بضعة كيلومترات من الشاطىء. ويذكر نطنزي أن أياز لجأ إلى جرون في أثناء هجوم جلال الدين ابراهيم وركن الدين مسعود (عام ٦٩٦هـ) على هرمز العتيقة من البر والبحر، وقال: «ذهب أياز إلى جزيرة جرون، وأقام فيها، وانشغل بالبناء». وقال شبانكاري إن ملك الإسلام عجز عن القيام بأي عمل ضد جرون.

٢ ـ جلاء بهاء الدين أياز عن هرمز العتيقة

ويحتمل أن يكون أياز قد فكّر بفوائد موقع جزيرة جرون في البحر. مع ذلك لما انسحب من هرمز العتيقة سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م، واستقر في البدء في جزيرة قشم. ولم يحصل على جزيرة جرون إلا في وقت لاحق، بوساطة رجل صالح، سماه تكسيره الشيخ اسماعيل، وسماه باروس الشيخ دانيال. ويرد ذكر الشيخ دانيال عند ابن بطوطه حيث يقول: «وفي زاويته المذكورة (يقصد زاوية الشيخ أبي دلف) قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال... وعلى قبره في خنج قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تهتمن الثاني بن توران شاه. وما يزال أحد مساجد خنج يحمل حالياً اسم مسجد الشيخ دانيال».

٣ ـ شراء بهاء الدين أياز جزيرة جرون من جمال الدين نعيم

ونجد في عقود باروس تفاصيل عن تأسيس هرمز الجديدة. وحسب هذه الإحالة، نشب خلاف بين الصيادين. وكان الشيخ دانيال يتجوّل بالجوار في جولة جمع صدقات. فتدخل بينهم، وأدى توسّطه إلى التنازل عن جزيرة جرون لسلطان هرمز، رغم معارضة بعض عظماء جزيرة قيس وخاصة دفاع الملكة الرائع (الملكة الأم عند كوتو).

وحتى قبل أن يضطر بهاء الدين أياز إلى نقل عاصمته إلى جرون، كان لسلطان هرمز العتيقة في هذه الجزيرة قوة مسلحة تجبر المراكب الداخلة إلى الخليج، على التوقف في هرمز الساحلية. ثم أحدثت مؤسسة خيرية للشيخ دانيال، ما يزال دخلها يؤدي حتى الآن (منتصف القرن السادس عشر)، ويدفع إلى خانقاه الشيخ دانيال قرب اللار.

إذن لا بد من اعتبار أياز مؤسس هرمز الجديدة. أما باروس فينسب تأسيسها إلى عز الدين كردانشاه. وينسبه حمد الله المستوفي إلى قطب الدين تهمتن الثاني. وكلاهما مخطىء قطعاً. ويسمى مؤسسها فخر الدين أحياناً، والمقصود بداهة نجل جمال الدين

ابراهيم، الذي كان أياز مبدئياً ممثله، مع أن فخر الدين أحمد لم يكن في أوائل ١٣٠٠م/ ٦٩٩هـ في الخليج العربي، لأن الإيلخان غازان الحقه بسفيره الذاهب إلى الصين إلى بلاط الخاقان تيمور منذ سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧ ـ ١٢٩٨م.

ولا ريب أن اضطرار السفارة إلى السفر بحراً ـ نظراً لعداوة قايدو الذي منع استخدام طرق آسية الوسطى البرية ـ حتّم اختيار فخر الدين الذي نظّم الرحلة البحرية دون أن يهمل مصالحه ومصالح أسرته. فقد حمل معه إضافة إلى هدايا الإيلخان محمود غازان إلى الخاقان تيمور، كميات كبيرة من اللالىء والحجارة الكريمة التي قدّر انها تهمّ زبائن البلدان البعيدة، وبقي في الصين عدة سنين.

أما المهام التي انتدب جمال الدين ابراهيم نجله فخر الدين للقيام بها في الخليج العربي فقد تولاّها شخص لم تذكره المصادر الفارسية، وسماه تكسيره، الذي لا يعرف جمال الدين ابراهيم، نعيماً ملك قيس أو خواجا جمال الدين نعيم. ومنه اشترى بهاء الدين أياز جزيرة جرون. ونعيم هذا ذكر في وقت لاحق مع أنجال ملك الإسلام في نضالهم ضد هرمز. ولا يمكن تحديد الصلات التي تربط بينهم.

هـ ـ علاقات هرمز العتيقة بجمال الدين ابراهيم وبسلالة قره ختائي

ولا نملك معلومات عن ارتباط هرمز بجزيرة قيس. وكل ما هنالك أن جمال الدين ابراهيم كان يتعاطى تجارة الخيل الواسعة مع الهند، فيصدر إليها من مرابط خيله الخاصة في قيس ١٤٠٠ رأس سنوياً. وكان يربي خيولاً أخرى في القطيف والأحساء والبحرين وهرمز وقلهات التي أصبحت كلها لها علاقات اقتصادية بجزيرة قيس من هذه الناحية.

١ ـ وفي القطيف، ثابر جمال الدين ابراهيم على دفع الإعانة المالية التي اضطر آل سلغر أتابكه فارس أن يقبلوا بها.

٢ ـ وبقيت قلهات النطاق الخاص بأياز، الذي وضع فيه كنوزه، وأناط حكمها بزوجته، وهي امرأة تركية كانت خادمة عند محمود القلهاتي، واسمها مريم، ثم دعيت بيبي مريم على حد قول شبانكاري.

٣ ـ وفقدت كرمان مكانتها المفضلة في علاقات هرمز بالبر القاري.

٤ ـ وأصبحت الأيام الأخيرة لسلالة قره ختائي مضطربة، فألغى الجايتو الحكم الذاتي في كرمان سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، وكلّف بإدارتها موظفين ايلخانيين، وكان أياز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدفع لهم خراج (مال) هرمز. وكانت علاقات أياز طيبة بملوك شبانكارة في أواخر عهده.

أخيراً لعل اتجاهات محمود غازان المغولي المركزية أثّرت في هرمز، لأن أياز «كان يرسل إلى الإيلخان مبلغاً كبيراً من المال سنوياً. فلم يكن يخشى شيئاً من الجيش المغولي»، لا سيما أن سوء الحظ أصاب جمال الدين ابراهيم عدة مرات.

و ـ وضع جمال الدين ابراهيم السيء بدءاً من سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م

وفي آخر ٦٩٧هـ/صيف ١٢٩٨م، أُجري تحقيق مع موظفي مقاطعات فارس وحكامها. فاستُدعي جمال الدين ابراهيم إلى البلاط الايلخاني. وتبدّل موقف عظماء الدولة منه رغم مراعاة الايلخان له. لذلك لُزِّمَ خراج شيراز إلى شخص آخر لمدة ثلاث سنوات. وخصّ إمام الدين يحيى بكري القزويني وحده بالتزام خراج العراق، ففقده جلال الدين ابراهيم، الذي لم يبق له سوى التزام خراج جزيرة قيس بمبلغ سبعين تومان سنوياً.

وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، حصل جمال الدين ابراهيم على بعض ممتلكات جزيرتي دلا وانجو، لكن اعترضته صعاب بشأن حساب خراج جزيرة قيس. فهو لم يدفع الـ ٧٠ تومان بانتظام، وادعى ان واردات الرسوم الجمركية السنوية بلغت ٤٠ تومان فقط في تلك الفترة. أما نور الدين بن صيّاد، محقّق الخراج الذي يزعم انه خبير في تجارة البحر، واختلف مع جمال الدين لأسباب تافهة، فقد أكّد أن رسوم جمارك قيس السنوية تبلغ ١٣٠ تومان. فكان يصعب التوفيق بين التقديرين السابقين، وتقرر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، الا يمسك وكلاء ملك الإسلام سجلات الرسوم الجمركية، وانه يجب على مراكبه ومراكب أشقائه وأبنائه وأقربائه، ان تدفع الرسوم العادية. وإذا تبيّن انهم ذهبوا إلى جزر أخرى أو امتنعوا عن إدخالها إلى بندر قيس، اعتبر جمال الدين مسؤولاً. وتقرر أيضاً أن يدفع جمال الدين مستحقات خراج السنين السابقة على أساس رقم سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. وعيّن نور الدين بن صيّاد ومندوب عن صاحب الديوان لإدارة الجزر والمقاطعة الساحلية (البحر والسواحل). وزار جمال الدين في آخر سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، بلاط الجايتو الذي تسلم العرش المغولي مجدداً. ورفض منصب حاكم فارس، وعاد إلى جزيرة قيس.

وفي عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، توفي تقي الدين عبد الرحمن مرزبان الهند، وأراد

ملك المعبر أن يستولي على أملاكه، فاضطر جمال الدين ابراهيم أن يدفع له ٢٠٠٠٠٠ دينار ليثنيه عن عزمه، ويضمن لأحد أنجال المتوفي منصب والده.

وفي آخر عام ٧٠٤هـ/ صيف ١٣٠٢م، كان فخر الدين أحمد عائداً من الصين ومعه مراكبه محملة بشتى أنواع السلع، فتوفي في البحر بعد السفيرين الآخرين، على مسافة يومين من ساحل كورومنديل (المعبر)، ودفن بجانب عمه تقي الدين عبد الرحمن. وصدم جمال الدين ابراهيم صدمة شديدة جداً لهذه الوفاة، وكان عمره قد ناهز الـ ٧٥ عاماً.

وفي منتصف سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م، صدر أمر لجمال الدين بمغادرة قيس والمجيء إلى شيراز لتنظيم شؤون فارس. وتوفي فيها ليلة الأحد ٢١ جمادى الأولى سنة ٧٠٦هـ/ ٢٨ ت٢ ١٣٠٦م.

وتوفي أياز سنة ٧١١هـ/ ١٣١١ ـ ١٣١٢م، أو ارتحل إلى قلهات. مهما يكن توارى عن المسرح السياسي، وصارت بيبي مريم تُصَرِّفُ شؤون قلهات بعد ذلك التاريخ. وفي قلهات مسجد من أحسن المساجد وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم، التي سوف تشترك بنزاعات هرمز الداخلية سنة ١٣٢٠م/ ٧٢٠هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

الأحداث السياسية في سلطنة هرمز من أوائل القرن الثامن الهجري إلى أوائل القرن التاسع الهجري (٧١١هـ/ ١٣١١م ـ ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م)

أخذ شهاب الدين أياز بالحسنى بعض أعضاء الأسرة المالكة في هرمز العتيقة، وبصرامة بعضهم الآخر، فأعدم في أول حكمه الأميرين شمس الدين تركان شاه وسلجوق شاه اللذين تآمرا على إرجاع شقيقهما ركن الدين مسعود إلى الحكم. ولا يعرف شيء عن الأمراء الآخرين الذين يفترض أنهم كانوا يقيمون في هرمز القديمة[1].

أولاً ـ مُلْكُ عز الدين كردانشاه: ٧١١هـ/ ١٣١١ ـ ١٣١٢م ـ ٧١٧هـ/ ١٣١٧ ـ ١٣١٨م

وفي عام ٧١١هـ/ ١٣١١ ـ ١٣١٢م، آلت السلطة في هرمز العتيقة إلى عز الدين كردانشاه، وهو نجل سلغر وبيبي زينب، وسليل السلاطين القدامى، حسب تكسيره، وحفيد شهاب الدين محمود عيسى، حسب شبانكاري. ويعلن نطنزي صراحة ما يلي: «بعد وفاة أياز، طلب أهالي هرمز العتيقة بالإجماع أن يولّى عليهم أحد أنجال ركن الدين محمود القلهاتي». لكن لم يبق أحد من أبنائه الشرعيين، فآل الحكم إلى عز الدين كردانشاه، سليل شهاب الدين محمود بن عيسى، الذي انتقلت السلطة منه إلى محمود القلهاتي.

وكان عز الدين كردانشاه يزعم انه من ذرية النبي هود لجهة أبيه، ومن نسل

(١) جان أوبين، سلاطين هرمز من القرن ٧هـ/١٣م إلى القرن ٩هـ/١٥م، المجلة الاسيوية، ١٩٥٣، ص ٧٧ ـ ١٢٨. انظر أيضاً البحر البرتغالي الهندي، المجلد ١، ١٩٧١، والمجلد ٢، ١٩٧٣.

الاشقانيين لجهة أمه. ويسهل تفسير هذا الحرص على إبراز مثل هذا النسب على ضوء سلسلة اغتصابات السلطة التي تعاقبت بانتظام على مدى سبعين سنة تقريباً.

آ ـ النزاع بين سلطان هرمز العتيقة عز الدين كردانشاه وبين عز الدين عبد العزيز، نجل جمال الدين ابراهيم وخلفه في حكم فارس

ونشب نزاع بين سلطان هرمز العتيقة عز الدين كردانشاه وبين عز الدين عبد العزيز، نجل جمال الدين ابراهيم وخلفه في حكم فارس.

ب ـ هرب عز الدين عبد العزيز من الإيلخان أَلْجَايتو خدابنده

واستدعى عز الدين عبد العزيز إلى مدينة السلطانية، لأنه سمّم صهره، وكان مديناً لديوان الإيلخان بـ ٢٦٥ تومان ذهباً. ففضّل الهرب، وعاد إلى شيراز، وتوجه منها إلى الساحل. فأرسل الأمير أسطو، وهو شهنه مغولي في فارس، في أعقابه، فلم يدركه. عندئذٍ سيّر ألْجايتو إلى فارس عز الدين قوهاكي، أحد موظفي الديوان من بطانة رشيد الدين. وبعد فترة قصيرة، عيّن زين الدين علي بن عبد السلام حاكماً على هرمز، وكان هو أيضاً تاجراً غنياً. وتمّ ذلك سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م.

جـ ـ تصميم عز الدين عبد العزيز على الاستيلاء على هرمز العتيقة

وثبّت عز الدين عبد العزيز، نجل جمال الدين ابراهيم، سلطته على المقاطعات الساحلية، وحاول تقوية سيطرته على الخليج العربي، بينما كان وضعه حرجاً في البر القاري. وكان يهيمن على قيس والبحرين والقطيف والبصرة. فأراد أن يستولي على هرمز العتيقة، بحجة أن كردانشاه يقطع الطريق على مراكب الهند، فتنخفض عائدات جزيرة قيس الجمركية.

د ـ حملة عز الدين عبد العزيز على هرمز العتيقة

فجهّز حملة على هرمز العتيقة، موّلتها موارد مصايد اللؤلؤ في خورشيف. وذكر قاشاني أنها تألفت من ٢٠٠٠٠ رجل من التركمان والشول و ٢٠٠ مركب. وقال تكسيره بل ١٢٠٠٠ رجل و ١٢٠ مركباً. وهاجم معظم هؤلاء المحاربين هرمز العتيقة من جهة البر، وكانت ما تزال تحتفظ ببعض أهميتها، فيما يبدو.

ويروي شبانكارى الخبر على الوجه التالي: «حصل عبد العزيز على يرليغ (أمر) يقضي أن تهاجم هرمز العتيقة بجند فارس وشبانكارة والأتراك وفيالق تلك الأرجاء. ودامت الحرب قرابة ثلاثة أعوام متتالية. وفي كل فصل شتاء، كان الجيش المهاجم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعسكر أمام هرمز العتيقة. مع ذلك أكد شبانكاري قبل بضعة أسطر أن العلاقات بين كردانشاه وبين أمراء شبانكارة كانت على أحسن حال. أما القول بأن هذا العمل الحربي جرى بموافقة الحكم الايلخاني، فيناقض المعطيات الواردة عند قاشاني. فهل تمّ الاتفاق بين الديوان الايلخاني وبين عز الدين عبد العزيز على حساب عز الدين كردانشاه؟ وهل ألقى عز الدين عبد العزيز على تصرف عز الدين كردانشاه، سلطان هرمز مسؤولية تقصيره في أداء المبالغ المطلوبة منه؟ لا يستبعد هذا الاحتمال، لأن عز الدين عبد العزيز عاد فيما يبدو فتسلم وظائفه بعد حصول النقمة على زين الدين علي بن عبد السلام (عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م). ويذكر حافظ أبره أنه حكم منطقة الساحل والجزر بضع سنوات فقط. أما شيرازنامة، فتقول إنه استعاد حكم فارس في عهد الإيلخان أبي سعيد.

هـ ـ هجوم عز الدين عبد العزيز المتكرّر على هرمز الجديدة

يبدو أن الهجوم الأول على هرمز الجديدة حصل سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م. وفي سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م، حوصرت هرمز أربعة أشهر، وتحاشت الاستسلام بفضل الإجراءات التي اتخذها السلطان عز الدين كردانشاه ليقضي على ندرة المواد الغذائية وغلائها.

وبرز بشأن الحرب اتجاهان هامان في الرأي العام، فظهر حقد الفرس من أهالي هرمز الجديدة على خصومهم العرب، ثم التضامن مع هرمز من قبل جميع التجار الذين أرادوا إنهاء الشلل للأعمال التجارية، فدعوا إلى إجراء مفاوضات بين كردانشاه وعز الدين عبد العزيز الذي قبل العرض لا سيما أنه وضع حيلة لاحتجاز خصمه.

ولم يفت تكسيره وقاشاني وشبانكاري ونطنزي أن يصفوا الخدعة بالتفصيل. مع ذلك حصل كردانشاه على حريته بعد فترة قصيرة: فبعد مرور ثلاثة أشهر على أسره، كان عز الدين عبد العزيز يتجوّل مقابل هرمز الجديدة بأسطوله، جارّاً أسيره وراءه. فهبت عاصفة، فرقت مراكبه، ورمت مركب كردانشاه مع مائة من خدمه ومراسيه على جرون. وغالى شبانكارى في سرد الحادثة، فقال إنه هرب من جزيرة قيس على مركب دون أن يتعرّف عليه أحد. ثم هبّت ريح ربانية حرفت المركب عن مساره الأصلي، وساقته إلى جرون.

وفي أثناء أسر كردانشاه، استدعت زوجته من البر نسيبها الملك غياث الدين دينار ليواصل النضال ضد مغتصبي عرش هرمز. إلا أن دينار أستاء من رجوع كردانشاه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن نزوله ليلة وصوله إلى ساحل هرمز العتيقة ولجوئه، احتراساً، إلى حصن ميناب. مع ذلك تخلى الجميع عن دينار، فكرّ مكرهاً راجعاً إلى مكران.

وصادر كردانشاه جميع المراكب القادمة إلى هرمز. وقام عز الدين عبد العزيز بمحاولة هجوم جديدة. لكن تمت تسوية سلمية بينهما في فصل الشتاء التالي. واتفقا على أن يؤدي كردانشاه أتاوة سنوية إلى ملك قيس. ثم توفي كردانشاه بعد ذلك بقليل سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧ ـ ١٣١٨م.

ثانياً ـ مُلْكُ بهرامشاه (٧١٧هـ/ ١٣١٧م ـ ٧١٨هـ/ ١٣١٨م) واغتصاب العرش منه

وخلف بهرامشاه أباه كردانشاه (٧١٧ـ٧١٨هـ)، إلا أن عهده كان قصيراً ومضطرباً. وكان عليه في البدء أن يقمع تمرد شقيقيه قطب الدين تهمتن ونظام الدين عجمشاه، وأن يردّ هجوماً عليه انطلق من جزيرة قيس.

آ ـ اغتصاب شهاب الدين يوسف عرش هرمز

وعندئذٍ اضطر بهرامشاه أن يطلق سراح صلاح الدين زنجيشاه قائد جيشه وشهاب الدين يوسف صهره وقائد أسطوله البحري، اللذين كانا قد أصبحا لا يحتملان بسبب خصومتهما. إلا أن صهره شهاب الدين يوسف انتقم منه. فزجّه في السجن هو ووالدته وشقيقه نظام الدين عجمشاه الذي لم يمض إلا وقت قصير على إعلانه خضوعه لبهرامشاه. ثم قطع رؤوس الثلاثة، واغتصب عرش هرمز.

ب ـ مقاومة المغتصب شهاب الدين يوسف

سمع الملك غياث الدين دينار باغتصاب شهاب الدين يوسف السلطة، فغادر مكران، وجاء إلى هرمز واستعدّ لقلب الوضع لصالحه. لكنه قدّر أن مقاومة قطب الدين تهمتن فاشلة، فانضم إلى جانب شهاب الدين يوسف.

وانقسم أهالي هرمز، فأيّده بعضهم، ووقف بعضهم الآخر ضده. وكاد الفقيه أبو الذبيح اسماعيل بن أحمد دانيال، الملقب بالقلهاتي والمولود في هرمز سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨م، كاد يقتل «بسبب ثنائه على السلطان بهرامشاه». إلا أن بعض أهالي هرمز تشفّعوا له، فقبلت شفاعتهم، واضطر أن يغادر البلاد، وذهب إلى مقدشوه، ومنها إلى عدن. وتمّ كل ذلك سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م، وكان هذا الفقيه، رغم نسبته إلى قلهات، يعيش في هرمز، على الأقل سنة ٧١٨هـ/١٣٢٨م، لأن بيبي مريم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرملة بهاء الدين أياز، استقبلت في قلهات قطب الدين تهمتن وشقيقه نظام الدين كيقباد فيها.

جـ ـ القضاء على المغتصب شهاب الدين يوسف

وانطلق الشقيقان من قلهات سنة ٧١٩هـ/١٣١٩ ـ ١٣٢٠م، لاستعادة هرمز الجديدة. وفي غضون ذلك، انتهز أمراء هرمز فرصة الاضطرابات، فهاجموا جرون، وردوا على أعقابهم. وتحالف قطب الدين تهمتن معهم، فانكسر شهاب الدين يوسف، وسجن في قلعة غات، ثم أعدم هو وزوجته وأولاده.

ثالثاً ـ مُلْكُ قطب الدين تهمتن الثاني: ٧١٩هـ/ ١٣١٩ ـ ١٣٢٠م ـ ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م

ثم أصبح قطب الدين تهمتن سلطان هرمز. فكرّس تفوّقها، وألحق جزيرة هرمز بممتلكاته.

أ ـ تآمر أمراء قيس على قطب الدين تهمتن الثاني

ويذكر تكسيره أن أمراء قيس، الباقين في هرمز تآمروا على قطب الدين تهمتن الثاني بعد فترة قصيرة من إعدام شهاب الدين يوسف. لكن اكتشف أمرهم، فسارعوا إلى الهرب مكرهين. ويقول شبانكارى إن التفاهم بين قطب الدين تهمتن الثاني وبين أمراء قيس دام فترة أطول بعض الشيء.

ففي شهر ذي القعدة سنة ٧٢٥هـ/ت١ ـ ت٢ ١٣٢٥م، أعدم عز الدين عبد العزيز، حاكم فارس، وملك قيس، نجل جمال الدين ابراهيم، وذهب ضحية دِمْشِقْ خواجا بن أمير جوبان الذي عين في شيراز أحد زبانيته، المدعو شرف الدين محمود شاه انجو، مؤسس السلالة الانجوية، وعزل أمير شبانكاره وكان يحميه عز الدين عبد العزيز الذي تمسك أشقاؤه بعض الوقت بالمنطقة الساحلية.

ب ـ تقاتل أبناء جمال الدين ابراهيم على السلطة

وبقيت جزيرة قيس لجلال الدين عبد الكريم، نجل جمال الدين ابراهيم، وحليف قطب الدين تهمتن الثاني عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م.

وأشير إلى أن شقيق جمال الدين عبد الكريم، المسمى ركن الدين محمود، كان حاكماً لخنج وفال، وسرعان ما اضطر إلى الفرار واللجوء إلى جزيرة قيس، عند أخيه جلال الدين عبد الكريم. وفي قيس، ترأس ركن الدين محمود مثيري القلاقل، فألقى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القبض على شقيقه وقتله وحلّ محله في جزيرة قيس. وبعد مرور ستة أشهر، أجرى بدر الدين فاضل انقلاباً على شقيقه ركن الدين محمود. وجاء حكم بدر الدين فاضل أقصر أيضاً. إذ توفى مصاباً بالزحار بعد أربعين يوماً. وخلفه غياث الدين محمد وفخر الدين أحمد نجلا فخر الدين أحمد بن جمال الدين ابراهيم. فاستلم غياث الدين زمام السلطة، وصار شقيقه فخر الدين أحمد نائبه. أما النزاع مع هرمز فظنّ أنه لم ينشب إلا بعد مرور عام ونصف العام على تلك الأحداث.

جـ ـ هجوم أمراء قيس على جزيرة جرون

وهاجم أمراء قيس جرون في أثناء غياب السلطان قطب الدين تهمتن الثاني على برّ الساحل. ولما أبلغ قطب الدين تهمتن الثاني بخبر الهجوم على جزيرة جرون، فاجأ الشقيقين بنزوله في جزيرة قيس وإلقاء القبض عليهما. ثم أعدمهما في اليوم ذاته الذي رجع فيه إلى هرمز الجديدة. واستولى ركن الدين تهمتن الثاني على جميع الكنوز المتراكمة في جزيرة قيس منذ العديد من السنين. ونفى أنجال جمال الدين ابراهيم وأحفاده. ولم يبق من أسرة ملك الإسلام إلا ابنه الملك شمس الدين محمد الذي كان يعيش في بلاط الإيلخان أبي سعيد، وأحد أحفاده المسمى نظام الدين أحمد بن تاج الدين عبد الرحيم المولود من إحدى أميرات شبانكاره، الذي كان يحلم باستعادة جزيرة قيس.

د ـ فشل هجوم شمس الدين محمد بن جمال الدين ابراهيم على هرمز الجديدة

وحصل شمس الدين محمد، عمّ نظام الدين أحمد، على قرار إيلخاني (يرليغ) يأمر قوات فارس وشبانكارة بالاتجاه إلى هرمز الجديدة ومطالبتها بتعويض أميري قيس.

وفي سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣م، نزل شمس الدين محمد مقابل هرمز الجديدة مع الجيش المذكور. إلا أن شرف الدين محمود شاه أنجو، مؤسس السلالة الأنجوية لم يكن ليرضى عن عودة نفوذ أسرة ملك الإسلام جمال الدين ابراهيم إلى حكم هرمز. فأبان أن أمراء قيس متمردون تنكّروا لسلطة الإيلخان، بالتالي لا يجوز طلب التعويض لهم، لا سيما أنهم خدعوا قطب الدين تهمتن الثاني. فاستدعي جيش فارس وشبانكارة. وعاد شمس الدين محمد إلى أردو، وتوفي فيه سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. ولم يتخل نظام الدين أحمد عن حلمه. فلجأ إلى سلطان دهلي محمد جونا، آملاً أن يساعده على استرجاع جزيرة قيس. لكنه توفي دون أن يحصل

شيء من ذلك بعد مرور ثلاثة أعوام.

هـ ـ تعاظم قوة قطب الدين تهمتن الثاني واتساع نفوذه

وتمتع قطب الدين تهمتن الثاني بسلطة ونفوذ متزايدين. فاحتل البحرين بعد استيلائه على جزيرة قيس. وخضعت له أيضاً جميع الجزر التابعة لقيس سابقاً. وفي عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م، كان بلاطه متألقاً وهرمز مزدهرة. ويذكر تكسيرة وابن بطوطة الصعاب التي اعترضت أواخر حكمه.

و ـ الخلاف بين قطب الدين تهمتن الثاني وشقيقه نظام الدين كيقباد وبين نجلي كيقباد

وظل قطب الدين تهمتن الثاني متفاهماً مع شقيقه نظام الدين كيقباد حتى سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤ ـ ١٣٤٥م، التي أعلن فيها كيقباد نفسه سلطاناً على جرون في أثناء غياب قطب الدين ونبلاء سلطنته في رحلة صيد في سهل رودشور ولم يعترف بالمغتصب إلا مقاطعة ايراهستان الساحلية التي هددت بسحب تأييدها له عندما حالت غارات جنود قطب الدين تهمتن الثاني دون جمع موسم التمر في فصل ربيع ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م. ونزل نظام الدين كيقباد على البر، وحارب شقيقه قطب الدين، وانتصر عليه إثر خيانة. فهرب قطب الدين إلى جاسك، وانتقل منها إلى قلهات، وشرع يقطع الطريق على مراكب الهند الذاهبة إلى هرمز. ثم توفي نظام الدين كيقباد في العام التالي.

ويروى ابن بطوطة أن إحدى نسائه سممته بتحريض من قطب الدين تهمتن، وأنه أَسـرَّ، وهو يحتضر إلى نجليه شادي وشنبا أن يعيدا هرمز الجديدة إلى سلطانها الشرعي. ولم يؤيد الأهالي شادي وشنبا على الوجه الحسن، ففشلا في مقاومة إنزال قطب الدين تهمتن الثاني على الساحل في كرمان. وانتصر قطب الدين.

ووضع شادي نجل كيقباد يده على جزيرة قيس. فاضطر قطب الدين تهمتن الثاني أن ينظم حملتين ضده. وعندما مرّ ابن بطوطة للمرة الثانية بهرمز الجديدة سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وصف تهمتن بأنه «شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة، يتيّسر من ليله للقتال. وكان جلّ اهتمامه منصباً على إعادة المنفيين، وعلى تخفيض أسعار السلع الغالية جداً. مع ذلك بقيت المواد الغذائية ضئيلة في هرمز الجديدة، نتيجة الحصار عليها. وتخلى ضباط كثيرون عن الأميرين المتمردين، لكنهما حاولا مجدداً الاستيلاء على جزيرة قيس. فهزما في جزيرة قشم. وعادا إلى البحرين، وتنازعا فيها، واضطر شنبا أن يلجأ إلى فال. ويروي تكسيرة أن حاكم شيراز استخبر عن شنبا، ولما عرفه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طلب منه المجيء إلى بلاطه، واستقبله استقبالاً حسناً، نظراً للصداقة القديمة بين أسرتيهما. بالفعل، أيّد محمود شاه أنجو والد الشيخ أبي إسحاق المقصود هنا، هرمز سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م. وفي أثناء أربعينات القرن الثامن (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) تتابعت الأحداث بضراوة على البر. وتمثلت في مراحل المبارزة بين المظفريين والأنجويين للسيطرة على فارس الجنوبية. لذلك يتفهم المرء استقبال أبي إسحاق لأمير من سلالة هرمز باهتمام خاص.

ز ـ أداء قطب الدين تهمتن الثاني الخراج إلى الإيلخان أبي سعيد

وكان قطب الدين تهمتن الثاني يؤدي الخراج إلى الإيلخان أبي سعيد عن ممتلكاته. وكان ذلك الخراج يدوّن في حساب مقاطعة كرمان. أما خراج البحرين والقطيف وقيس الخ، فبقي يسجل في سجلات فارس. واستغل قطب الدين تهمتن الثاني الاضطرابات الناشئة عن النزاعات بين الجوبانيين والأنجويين ليمتنع عن دفع الخراج خلال بضع سنوات. وعندما استولى مبرّز الدين محمد بن مظفّر على كرمان سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، طالب بقبض خراج هرمز. ويؤكد ذلك كتاب «مواهب الهي» في تاريخ يصعب تحديده، لا ريب انه ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م أو ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م. فقد قاوم آخي شجاع الدين الخراساني مقاومة طويلة في قلعة بم الأسطورية، ثم انضمّ إلى المظفريين، فأرسل إلى هرمز لأخذ الخراج. وحثّه المبلغ المؤتمن عليه على التآمر، فأُعدم بعد وقت قصير من رجوعه.

رابعاً ـ مُلْكُ تورانشاه: ٣٢ سنة:
من ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م إلى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م

آ ـ دفع تورانشاه الخراج والضرائب لجهات متعددة

وفي فصل ربيع سنة ٧٤٧هـ/آذار نيسان ١٣٤٦م، طالب أبو إسحاق تورانشاه، نجل قطب الدين تهمتن الثاني بدفع الخراج بعد وفاة أبيه بقليل. وفي شتاء سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، ذهب شمس الدين ساعن، وزير الشيخ أبي إسحاق آنذاك، إلى هرمز لتحصيل خراجها. وارتكب أعمال عنف هنا وهناك في المناطق التي مرّ بها. وقد رافقه نحو ألف من النبلاء الأنجويين. ولم تكن الحملة موجهة ضد هرمز الجديدة، بل ضد سلطة المظفريين المتعاظمة التي كانت تلقى أشد الصعاب ليعترف بها في رودبار وجرمسير في كرمان بسبب مقاومة قبائل أوغاني وجرمائي.

وكان الوزير شمس الدين ساعن ينوي في قرارة نفسه أن يهاجم كرمان لحسابه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأنفق الخراج الذي قبضه لكسب تلك القبائل إلى جانبه. وفشلت محاولته فشلاً تاماً. واستمر السعي الأنجوي في الشهور التالية (شتاء سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م): «وأراد أبو إسحاق إخضاع جرمسير كرمان وإقامة سيطرته فيها في أثناء تمرد قبائل أوغاني»، فأرسل أحد قواده الأمير سلطانشاه جاندار ليطالب بخراج هرمز ومكران. ومن هناك ترسل له ست فرق (قشن)، فيتجه إلى كرمان، إلا أن القائد سلطانشاه جاندار أيّد المظفريين في فصل ربيع ٧٥٠هـ/١٣٤٩م.

«ولما كان ازدهار هرمز يتوقف على تردد التجار عليها، فإن تورانشاه اضطر إلى إقامة علاقات حسنة مع الخصمين. واجرى الكثير من المفاوضات والاعتراضات، التي تقرر إثرها أن يدفع تورانشاه سنوياً إلى ملك فارس (باديشاه) وإلى حاكم كرمان الخراج الذي كان متفقاً عليه». ولا ريب أن توزيع خراج هرمز بين فارس وكرمان طبّق بمزيد من الانتظام، عندما احتلت شيراز سنة ٦٥٤هـ/١٣٥٣م، وتقاسم أعضاء الأسرة المظفرية مقاطعات فارس الجنوبية، ولو أنهم تخاصموا في الغالب مع المقيم في فارس بشأن اقطاعيته المبدئية.

ففي عام ٧٦٦هـ/١٣٦٥م، تغلّب منصور على شقيقه شاه شجاع الذي أتى ونظم شؤون كرمان. وأمضى الشتاء في جرمسير. وفي أول صيف سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، أرسل له تورانشاه إلى جوار هرمز «قضاة ورسلاً (ايلسي) يحملون له الهدايا، ودفع له الخراج والضرائب المعيّنة».

وفي سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، سيّر قطب الدين أويس، وهو نجل شاه شجاع البكر إلى هرمز برفقة الوزير جلال الدين تورانشاه و ٤٠٠٠ رجل لمراقبة قبائل أوغاني. فأرسل له تورانشاه بن قطب الدين تهمتن الثاني هدايا كثيرة وخطر لسلطان أويس أن يشترك مع أمراء أوغاني في تمردهم؟ فاضطر شاه شجاع أن يبعث إلى منطقة هرمز بجيش عرمرم بقيادة نجله الثاني مظفر الدين شبلي.

ب ـ انتشار السلام في عهد تورانشاه

ساد السلام في عهد السلطان تورانشاه. لكنه عندما استلم السلطة، اضطر أن يقضي على تمرد نجلي شقيقه نظام الدين كيقباد شادي وشنبا. ونجح شادي في الاستيلاء على جزيرة قيس بعد أن أعمى حاكمها غدراً. فحاصر تورانشاه قيس، إلا أن شادي هرب إلى قشم في البدء، ثم إلى البحرين. إنما تخلى عنه جيشه، فمات غماً بعد ذلك بقليل. وترك تورانشاه البحرين لنجل شادي الصغير فولان؟ وعاد شنبا من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فارس، وانتقم من أنصار شقيقه شادي، وقتل ابن أخيه فولان؟ فقلق عظماء البلاد، وتآمروا عليه بزعامة مير عجب، وقتلوه، ونهبوا قصره. وتنازع مير عجب وزعماء آخرون على السلطة. فذهب تورانشاه إلى البحرين والقطيف لإعادة النظام إلى نصابه.

وتورانشاه أحد سلاطين هرمز الذين مدحهم حافظ أبره، لأنه أفاد من كرمه. مع ذلك لا أساس من الصحة لما قيل عن سفره (أي حافظ أبره) إلى هرمز.

كان تورانشاه شاعراً. فنظم ونثر شاهنامته التي لخّص تكسيره مضمونها. وتقف أخبارها حسب تكسيره عند زيارة تورانشاه إلى البحرين والقطيف، بعد وفاة نجلي شقيقه شادي وشنبا. وتنقصنا التفاصيل عن باقي عهد تورانشاه. ولا يعرف شيء عن علاقات هرمز بالاقطاعيين الأتراك المغول في جرمسير، الذين أزعجوا المظفريين كثيراً، مثل غياث الدين سيورغتميش الذي تزوج شاه شجاع من إحدى شقيقاته، وكان مغامراً جريئاً. ففي سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، كان إلى جانب السلطان أويس في ضواحي هرمز. وفي شتاء عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، قام شاه شجاع بحملة ضد قبائل أوغاني، فنزل حتى بلغ منوجان، وهي إحدى القلاع القارية العائدة إلى سلطان هرمز، التي عسكرت القوات المظفرية شهراً مقابلها.

وتعتبر سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م سنة وفاة تورانشاه، الذي يظهر أنه حكم حوالي ٣٠ سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م ـ ٧٧٩هـ/١٣٧٧ ـ ١٣٧٨م. ويرد تاريخ وفاته عند تكسيره الذي لم يعد يعتمد في معطياته على الشاهنامة. ولا بد من التحفظ بشأنها. ويرى نطنزي أنه توفي سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م. وخلفه نجله بهمنشاه.

خامساً ـ مُلْكُ بهمنشاه بن تورانشاه: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م ـ ٧٩١هـ/١٣٨٨ ـ ١٣٨٩

وقد كلّف بهمنشاه نجله محمد شاه بالوصاية على العرش، وذهب إلى الحج. ولما عاد ثابر على التعبّد، وترك لابنه إدارة شؤون البلاد حتى وفاته سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م.

«وأدى محمد شاه الخراج خلال عام أو عامين بعد وفاة شاه شجاع (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) إلى نجله زين العابدين بن ملك شيراز وشقيقه أحمد بن مظفر سلطان كرمان. ثم توقف سنة أو سنتين عن الخراج في أثناء تنازع الأمراء المظفريين، أي أنه لم ينحز إلى أحد الطرفين المتخاصمين. وفي عهد شاه منصور، عاد إلى العرف القديم» (نطنزي). ويذكر محمود الكتبي مثلاً أن بايزيد بن مظفر جبى الخراج المتأخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لحساب شقيقه أحمد بن مظفر سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م: «أرسل أخاه بايزيد إلى منوقان لجباية خراج هرمز. ثم انضم إليه بايزيد بعد أن أجبر أهالي منوقان على الخضوع وعلى تأدية «الخراج».

سادساً ـ حُكْمُ محمد شاه:
٧٩١هـ/ ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩م ـ ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠م

آ ـ دفع محمد شاه الخراج إلى الديوان الإيلخاني

«عندما استلم مندوبو تيمورلنك فارس سنة ٨٩٥هـ/ ١٣٩٢م، بعث سلطان هرمز محمد شاه مع أشخاص أمناء بكثير من الهدايا إلى بلاط الأمير عمر شيخ، وأدى إلى الديوان الإيلخاني ضعف الخراج المعين». فهل نصدق نطنزي، الميّال أحياناً إلى التملّق لا إلى كتابة التاريخ، لا سيما مع عمر شيخ الذي يؤرخ نطنزي لنجله؟ وإذا صدقناه، صعب علينا تفسير أسباب هجوم ميرزا محمد سلطان بن جهانجير في السنة التالية ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م. فتأكيد نطنزي يتناقض صراحة مع ما ورد في طفرنامة شرف الدين علي يزدي من أنه لم يدفع شيئاً طيلة أربعة أعوام قبل سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م.

ب ـ هجوم ميرزا عمر شيخ على هرمز العتيقة وحصونها

وجاء في طفرنامة ذاتها أن ميرزا عمر شيخ سيطر في أثناء إقامته في فارس (من منتصف ٧٩٥ إلى أول ٧٩٦هـ) على جميع القلاع التي لم تخضع له بعد، مثل قلعتي أصطخر وفرج ومثل قلعة شهرياري في جرمسير، الواقعة في ولاية خنج. ولم تشمل الأعمال الحربية أماكن أبعد، بالتالي لم تتهدد هرمز لأن عمر شيخ أتى ليعزّز القوات التي كانت تحاصر منذ عدة أشهر قلعة سرجان الهامة التي كان فيها قائد مظفري ما زال صامداً في وجهها. لكن استدعى تيمور عمر شيخ، فغادر سرجان دون أن يشاهد سقوط قلعتها. وتوفي على الطريق أمام حصن صغير من حصون كردستان في فصل شتاء ٧٩٦هـ/ مطلع ١٣٩٤م. ومع أن تيمور أعطى فارس لنجل المتوفي، ميرزا مير محمد، فقد أرسل في العام ذاته ميرزا محمد سلطان بصحبة أركان من الأمراء ليستولوا على هرمز وعلى المنطقة الساحلية.

«واتبع ميرزا محمد طريق دارابجرد وطاروم، ورافقه الأمير جهان شاه وأمراء آخرون. وسار في الجناح الأيمن ميرزا رستم، نجل عمر شيخ، واتجه نحو الساحل ماراً بكارزين وفال. ومرّ جلال حميد وأرغون شاه اختاجي، وبيان تيمور بيكيجاك جاتا، بجهرون ولار. وسار في الجناح الأيسر ايدكوبرلاس، وانطلق من كرمان ليهاجم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيش ومكران، وغنم غنائم وافرة. وفتحت جميع الحصون الواقعة بين مكران ودشت علي وبين كيش».

وتعطي ظفرنامة تفاصيل الأعمال الحربية التي جرت حول هرمز القديمة: «استولي في البدء على حصن تنج زندان، ونهب وهدم. ومنه ساروا إلى حصن كوشكك ولقي المصير ذاته، ثم إلى حصن شامل، فدمّر. وعند الوصول إلى هرمز العتيقة، احتل حصن ميناب وحرق. واستولى أيضاً على حصون منوجان وترزك، وتازيان، ودمرت. وكتب نظام الدين شامي وصفاً ناقصاً ومختلفاً بعض الشيء.

ويتضح من الطريق التي رسمها شرف الدين يزدي أن الجيش التيموري وصل إلى سهل هرمز العتيقة من الجهة الشمالية الغربية مدمراً الحصون في البدء، ثم سد الممرات باتجاه لارستان وطارم. ومن هناك ذهب ليحاصر ميناب، قلعة هرمز العتيقة. ويبرز جيداً دور ايدكو برلاس الثانوي جداً بدءاً من كرمان. فقد كان هدف الجيش التيموري مكران التي كان خراجها يجبى في وقت جباية خراج هرمز، وكانت تدين بخراج متأخر عن أربعة أعوام. لذلك، بعد احتلال ميناب، هاجم وسط الجيش من الخلف قلاع وادي منوجان رود فيما يظن، إذ كانت ترزك وتازيان واقعتين إلى شرق شمال شرق منوجان.

جـ ـ تقديم محمد شاه الهدايا ودفعه خراج أربع سنوات متأخرة

وبعث الملك محمد شاه سلطان هرمز من جرون هدايا كثيرة كخراج. وقبل أن يؤدي خراج السنوات الأربع الأخيرة أي ١٢٠٠٠٠٠ دينار. وسلّم جزءاً منها نقداً ولآلىء وأقمشة، ووعد بإرسال الباقي متى توفّر له. وأبرز برنولد زهادة المبلغ الذي دفعه سلطان هرمز. في الواقع فشلت الحملة. وأشار نطنزي إلى أن محمد سلطان عاد دون أن يحصل على نتيجة. واستحال على الجيش التيموري أن يهاجم جزيرة جرون، لأن ليس لديه مراكب. ويبدو أن نظام هرمز العتيقة الدفاعي في البر القاري لم يدمّر بكامله. فنحن نعرف قلاعاً غير السبع المنوه بها عند شرف الدين يزدي. وقد شوهدت القلاع السبع ذاتها مرممة بعد ٣٠ سنة. ولم يتباطأ محمد سلطان: فالعشب والعلف ينقصانه لأن السماء لم تمطر منذ ثلاثة أعوام.

فيما بعد، أنذر ميرزا مير محمد بن عمر شيخ محمد سلطان هرمز بوجوب دفع المبلغ المحدد، فسدد بعد وفاته (٨١٢هـ/ ١٤٠٩ ـ ١٤١٠) إلى شقيقه ميرزا اسكندر.

وتوفي السلطان محمد شاه سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠م. وخلفه نجله بهمنشاه؟

وكـان يحكـم عنـدمـا قـدّم نطنـزي مصنفـه إلـى شـاهـرخ فـي شهـر رجـب ٨١٧هـ/ت١ ١٤١٤م؟ ولا يتحدث الجعفري عن وجود بهمنشاه، ويقول إن محمد شاه خلفه مباشرة نجله قطب الدين فيروزشاه. وكان فيروزشاه ورعاً، وحجّ إلى مكة عدة مرات. وفي سنة ٨٠٢هـ/١٤١٧ ـ ١٤١٨م، أجبره نجله البكر سيف الدين مهار أن يتنازل عن العرش، وجعل إقامته الجبرية في جزيرة قشم.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـل الثامـن

الأحداث السياسية في سلطنة هرمز
من أوائل القرن التاسع الهجري إلى أوائل القرن العاشر الهجري
(٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م ـ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

تميّز القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، الذي سبق مجيء البرتغاليين، باعتلاء عرش سلطنة هرمز أربعة سلاطين دام حكمهم مجتمعين مائة سنة تقريباً، وهم:

١ ـ قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه: ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م ـ ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م.

٢ ـ سيف الدين مهار: ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ـ ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م.

٣ ـ فخر الدين توران شاه الثاني: ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م ـ ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م.

٤ ـ وسلغرشاه الأول: ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ـ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.

لكن لا يجوز أن نغتر ببقاء هؤلاء السلاطين مدداً طويلة في الحكم. فعهودهم تشتمل على توترات داخلية خطيرة، وكلها انتهت بكوارث: فمن مجموع عشرة سلاطين تعاقبوا على عرش هرمز من سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م إلى ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، خمسة منهم أقيلوا، وأربعة اغتيلوا، وسلطان واحد، هو تورانشاه الثاني، توفي وهو سلطان وفاة طبيعية بفضل اتخاذه احتياطات غريبة: «إذ كان لا يأكل إلا ما يصطاده بيده لأنه تعرّض عدة مرات إلى دسّ السمّ في طعامه». وبدأت بعد وفاته مباشرة حقبة اضطرابات، تعطي صورة مسبقة عن الانحطاط الذريع الذي وجد فيه البرتغاليون سلطنة هرمز[1].

(١) انظر البحر البرتغالي الهندي، المجلد ٢، ١٩٧٣، ص ١٢٩ وما يليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً ـ حُكْمُ قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه: ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م ـ ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م

وكان قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه سلطاناً ورعاً وبارعاً بالصيد أكثر منه في السياسة. وقد حجّ عدة مرات إلى مكة، وترك شؤون الدولة إلى وزيره خواجا علي البغدادي.

وفي أحد أيام الجمعة من صيف ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، استولى نجله سيف الدين مهّار، تدعمه «مرتفعات نخلستان»، على القصر الملكي، وقتل الوزير خواجا علي البغدادي. وكان السلطان قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه في كهورو، فسار على مدينة هرمز الجديدة، وخشي الأهالي أن يذهبوا ضحية المجابهة بين الابن والأب، وتسلب أموالهم. فتوسط بينهما رجل صالح، سمعته جيدة، يدعى الشيخ جمال الدين أحمد السجستاني، ونصح الأب بأن يتنازل عن العرش ونصح الابن بأن يعامل والده معاملة شريفة. وأثرَّ في الأب امتناع الرأي العام عن مؤازرته، فتخلى عن السلطة. وانتقل إلى جزيرة قشم، تنفيذاً للاتفاق بينه وبين نجله الذي تمّ بإشراف الشيخ جمال الدين السجستاني. وعاش فيها سنوات طويلة. واتُهم سيف الدين نجله بدس السم له سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م ـ ١٤٣٦م.

ثانياً ـ حُكْمُ سيف الدين مهّار: ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ـ ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م

ويذكر الجعفري أن سيف الدين مهار كان لديه جيش كبير مؤلف من أتراك ولاريين وطارميين. لكن قوله إنه كان يتبع طرق حكم مختلفة عن طرق أسلافه، مذهل، والاقتناع بأمثلته عليها ضعيف: «فكان يوزّع كثيراً من الغنائم على جنوده، ويرسل حكاماً إلى القطيف والبحرين وقلهات وفيراب؟ وعُمان وجلفار وهرمز العتيقة ومنوجان وقلاع المنطقة الساحلية». فهل كان سلاطين هرمز الآخرون يتصرفون تصرفاً مغايراً؟ وإذا لم يكن هذاالكلام سياق إنشاء، فنحن ليس لدينا العناصر التي تسمح لنا بإيضاح سمة هذا العهد. (ويبرز خلف سيف الدين عزله «بتحريض رؤساء العرب، وبتجنب وقوع السلطة بأيد غريبة»).

وفي عهد سيف الدين مهار، في ربيع ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، أجرى ابراهيم سلطان بن شاهرخ، حاكم فارس نيابة عن أبيه، استعراضاً لقوته العسكرية مقابل هرمز، لم يعرف سببه. وجاء في كتاب مطلع السعدين ببساطة ما يلي: «اخبر ابراهيم سلطان بالبريد عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحركه إلى ولاية هرمز ومنطقة جرمسير، قبل أن يأتي إلى الأردو. وحاصر منوجان في البدء. ولم تكن شدة الحر تلائم القيام بهذه الحملة في ذلك الوقت. والهرامزة قوم حذرون جداً، فقوّوا حصونهم، واستكانوا في جزيرة جرون، وانتظروا.. وتلف جيش فارس من عفونة الجو وشدة الحر، ومات الكثير من جنده. فقبل أمراء فارس بتسوية، وعادوا مكتفين بهدية زهيدة. وهذا يعني صراحة فشل الحملة: فلم تحتل منوجان ولا الحصون الأخرى. وجاءت التخريبات التيمورية طفيفة حسبما جاء في ظفرنامة حرفياً. ولم تكن الحرارة الشديدة المسؤولة الوحيدة. فابراهيم سلطان بن شاهرخ التحق بجيش والده الذاهب إلى أذربيجان في منتصف شهر حزيران سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م (رمضان ١٣٣٢م). إذن تمت الحملة في مطلع الربيع.

وفي سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥ ـ ١٤٣٦م، حثّ قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه نجله الأصغر فخر الدين توران شاه الثاني على تزعم الثورة ضدّ شقيقه سيف الدين مهّار. وقد بعث فخر الدين توران شاه الثاني برسالة إلى الامبراطور شاهرخ بن تيمور يبرر فيها تصرفه. ويذكر أن زعماء القبائل العربية طلبوا من قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه أن يتدخل، فأبى وتذرع بزهده بشؤون الدنيا، وطلب من نجله فخر الدين توران شاه الثاني أن يعمل ما يراه مناسباً. وأعاد فخر الدين تورانشاه إلى الذاكرة معاملة سيف الدين الشائنة لوالده، الرجل الصالح الذي حج عدة مرات إلى مكة، وعزله وإبعاده إلى قشم ووضعه تحت الرقابة المشددة. إلا أنه لم يتهمه بدسّ السم له.

ثالثاً ـ حُكْمُ فخر الدين توران شاه الثاني:
٨٤٠هـ/ ١٤٣٦ ـ ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م

آ ـ رواية عبد الكريم نمديهي عن ثورة فخر الدين توران شاه الثاني على أخيه سيف الدين مهّار

ويروي عبد الكريم نمديهي أن خواجا محمد البغدادي، نجل الوزير خواجا علي البغدادي، الذي قتله سيف الدين مهّار سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، حرّض فخر الدين توران شاه على التمرد على أخيه سيف الدين. وأفاد محمد البغدادي من إقامة سيف الدين في قشم، وكان أحد المقربين منه، لكنه كان يترقّب منذ مدة طويلة فرصة الثأر من سيف الدين لقتله أباه، ويذهب سراً وليلاً إلى برخت، ويجتمع بفخر الدين توران شاه، المنفي مع والده قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه، حسب النصوص التاريخية. وأمدّ محمد البغدادي فخر الدين توران شاه بمركب، نقله إلى قلهات، حيث نظم النضال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضد شقيقه سيف الدين مهّار، فصادر مراكب حرب الأحساء وخيلها، واقترض من التجار الأموال اللازمة لدفع مرتبات الجنود، واعداً إياهم بالعفو عنهم ومنحهم الهبات والإعفاء من رسوم الجمارك. وصادر مركباً قادماً من الصين محملاً بنفائس السلع، فتمكّن من إنجاز استعداداته.

وفي هرمز الجديدة نفسها، كانت جميع طبقات الشعب وقسم من الجيش يؤيدون فخر الدين توران شاه.

ب ـ دعم شاهرخ لسيف الدين مهّار، الهارب من شقيقه فخر الدين، ثم تخليه عنه

فهرب سيف الدين مهار إلى البر، حاملاً معه كنوزه بعد تنصيبه شقيقه مرزوقاً محلّه ووصل إلى هراة في ٢٦ شوال ٨٤٠هـ/ ٣ أيار ١٤٣٧م. وأقيم احتفال كبير على شرفه في باغ زاغان. وعين الشيخ نور الدين مرشدي مرافقاً له، وكان ملكه قد كلّفه مرات عديدة بسفارات إلى هرمز، وعاد حديثاً من الروم. وحذا الأمراء والعظماء حذو شاهرخ، وأولموا له الولائم. ودرس الأميران علاء الدولة كوكلتاش وجلال الدين فيروزشاه حاجاته، خاصة المعونة العسكرية التي يطلبها. وبناءاً على تقريرهما، أمر شاهرخ قوات فارس والعراق بالهجوم على هرمز، والاستيلاء على «القلاع السبع الخارجية» أولاً، ثم استرجاع جرون من فخر الدين توران شاه.

وتحاشى فخر الدين توران شاه الخطر، فبعث بالهدايا إلى قواد جيش شاهرخ، وبلّغ شاهرخ على لسان عظماء بلاطه معاملة سيف الدين مهّار الشائنة لوالدهما. وأخبره أنه أخضع سلطنة هرمز إلى حكم استبدادي لا مثيل له في الماضي، حتى خشي أن تقع المملكة في أيدي أجنبية، ويذكر الجعفري أن سيف الدين مهّار كان يجنّد مرتزقة أتراكاً ولاريين وطارميين من فارس، وأنه كان يعين حكاماً لشتى أنحاء المملكة. لكن لم يكن التجنيد الخارجي جديداً في مملكة هرمز الصغيرة: فقد عمل به قطب الدين تهمتن الثاني مثلاً، واستخدم غلماناً أتراكاً وأثيوبيين إلى جانب المحاربين العرب والفرس، ولعلّ غلبة العنصر الفارسي التركي في جيش سيف الدين مهّار أغضبت الاقطاعيين العُمانيين، هي وتعيين حكام لا تربطهم صلة بالارستقراطيات المحلية. ثم إن الإكثار من فرض الضرائب لتأمين نفقات الجيش ونفقات حياة سيف الدين مهّار المترفة، ألّب المتذمرين على سلطته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ ـ انتهاء الحرب الأهلية بين الشقيقين سيف الدين مهّار وفخر الدين توران شاه بعزل سيف الدين

وتأخر انتهاء الحرب الأهلية بين الشقيقين سيف الدين مهّار وفخر الدين توران شاه الثاني عدة سنوات بسبب تدخلات التيموريين العسكرية لصالح سيف الدين مهّار. ويذكر السمرقندي في حولية سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧ ـ ١٤٣٨م، وساطة قضاة جرون ومفتيها في هراة، ونجاحهم في الوصول إلى تسوية أرضت الطرفين المتنازعين، وقضت بترك حصن ترزك لسيف الدين مهّار الذي انسحب إليه وبتعهد توران شاه بمعاملته معاملة حسنة. ويقول نمديهي أن الصلح وقّع سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، وكان الوسيط فيه أحد أعضاء أسرة إيجي الشهيرة، المدعو صفي الدين عبد الرحمن. فاستقبل الملك المعزول في جرون باحترام بروتوكولي كبير، ويحتمل أن يكون قد استمر في الإقامة فيها، على الأقل من وقت لآخر طيلة معظم عهد توران شاه.

د ـ وفاة فخر الدين توران شاه الثاني سنة ٨٧٥هـ/ تموز ١٤٧٠م ـ حزيران ١٤٧١م؟ ووفاة الوزير خواجا محمد البغدادي سنة ٨٦٥هـ/ ت٢ ـ ك١ ١٤٦٠م

وعيّن خواجا محمد البغدادي وزيراً في عهد فخر الدين توران شاه الثاني، لكنه في سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م، لم يهتم إلا قليلاً بتسهيل مرور السمرقندي بهرمز متوجهاً إلى الهند في سفارة إلى الدكن. فاستدعي إلى هراة إثر احتجاجات السمرقندي، لكنه لم يذهب. وتوفي في مكة في شهر صفر ٨٦٥هـ/ت٢ ـ ك١ ١٤٦٠م. أما توران شاه، فقد ورث عن والده مزاجاً دينياً: فكان يعفي من الرسوم المراكب القادمة من الحجاز، ولا يخالف الشريعة، فيحيل القتلة واللصوص إلى قضاة الشرع. وكان صديق الأسياد والعلماء والشيوخ. وقد كافأ سيف الدين عبد الرحمن الإيجي على وساطته، فخصص له راتباً، حوّله بعد وفاته إلى ابنه سيد نور الدين أحمد.

وخلف مقصود الابن البكر لفخر الدين توران شاه والده بعد وفاته سنة ٨٧٥هـ/ تموز ١٤٧٠ ـ حزيران ١٤٧١م.

رابعاً ـ حُكْمُ مقصود بن فخر الدين توران شاه الثاني: ستة اشهر في سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠ـ ١٤٧١م

وخلف السلطان مقصود والده فخر الدين توران شاه الثاني. إلا أن الأمير ضياء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين رستم فالي الذي عيّنه فخر الدين توران شاه قائداً للجيش، عزله بعد مرور ستة أشهر على حكمه بالاتفاق مع الأمير المسمى فرامرز، وخواجا حسين بغدادي ـ وكان ضياء الدين مستاءاً لأن الجند لا يتلقون مرتباتهم ولا جراياتهم بانتظام ـ فذهب في أحد الأيام صباحاً مع ٨٠ رجلاً من طائفته إلى مقرّ الملك، فاحتجزه هو وشقيقه الأمير طيّب، وأعماهما، ونصّب على عرش هرمز أصغر أنجال فخر الدين توران شاه، واسمه شهاب الدين.

خامساً ـ حُكْمُ شهاب الدين أرفخشدشاه:
٨٧٥هـ/ تموز ١٤٧٠ ـ حزيران ١٤٧١ ـ ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م

واتخذ السلطان الجديد شهاب الدين لقب أرفخدشاه بعد اعتلائه العرش. ويرى نمديهي أن دالّة ضياء الدين فالي، قائد الجيش أضرت أرفخشدشاه الذي لم يكن حراً في إدارة الدولة. لكن يبدو أن حظوة ضياء الدين زالت قبل انتهاء عهد شهاب الدين أرفخشدشاه، أي حوالي ٨٧٧ ـ ٨٧٨هـ/ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٣م. بالفعل بعث محمود جافان برسله يهنىء بها معين الدين جهان شاه ملك لار «بفتح جرون»، وبصدّ ضياء الدين فالي. ويختم محمود جافان رسالته بالتمني على جهان شاه أن يخالف تصرف ضياء الدين فالي، ويرسل إلى الدكن محاربين وأسلحة وخيولاً وأقمشة. وتاريخ هذه الرسالة ٢٨ رمضان من عام لم يحدد أَلْفُهُ. ولا شك أنها حررت قبل مجموعة رسائل بعث بها محمود جافان إلى «سلطان جرون»، وإلى السيد نور الدين أحمد إيجي، وجهان شاه ملك لار، ويطلب منهم فيها رماة بيادى يحتاج إليهم ليقمع تمرداً يتحصّن في فجاج منطقة كنكن الجبلية الحدودية التي لم يفد فيها استخدامه الخيالة. وأرسل الأمير فرامرز من الدكن إلى هرمز ولار ليشرف على نقل المتطوعين.

فلو احتفظ ضياء الدين بوصايته على سلطان هرمز، شهاب الدين أرفخشدشاه، لما كان محمود جافان بعث بطلبه إلى سيد نور الدين أحمد إيجي. وتؤيد رسالة أخرى من محمود جافان أن سيد نور الدين أحمد ايجي كان وزيراً في الواقع، إن لم يكن في اللقب، في أواخر عهد شهاب الدين أرفخشدشاه. وفي شهر كانون الثاني سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، حرّر نمديهي رسالتين مضمونهما واحد، إحداهما إلى أرفخشدشاه والأخرى إلى نور الدين ايجي، تعالجان تركة تاجر هرمزي يرعاه محمود جافان.

واغتال عبد زنجي شهاب الدين أرفخشدشاه في الشهور الأولى من سنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، «ولم يعرف سبب إقدام الزنجي على هذا العمل ولا من كان وراءه».

واتفق سيد نور الدين أحمد ايجي ـ الوزير الفعلي ـ وأمراء هرمز على تنصيب ميرشاه أويس، شقيق شهاب الدين أرفخشدشاه سلطاناً على هرمز. وقد حكم خمسة أشهر في سنة ٨٨٠هـ/ أيار ١٤٧٥ ـ نيسان ١٤٧٦م.

سادساً ـ حُكْمُ ميرشاه أويس:
خمسة أشهر من عام ٨٨٠هـ/ أيار ١٤٧٥م ـ نيسان ١٤٧٦

وفضّل «حكام سلطنة هرمز» ميرشاه أويس على أخيه البكر أبي الفتح مظفر الدين سلغرشاه الأول، لأن هذا الأخير كان يعيش في جزيرة العرب ويتصرف تصرف العرب. ويرى باروس أن ميرشاه أويس نصّب سلطانها بفضل دسائس خواجا عطا، وذلك على ضوء تاريخ هرمز اللاحق وقد حكم ميرشاه أويس خمسة أشهر. ويقول نمديهي أن «ظلم شاه أويس بلغ حداً لا يَجْرُؤُ المؤرخ على وصفه وتدوينه». ويقول باروس إن البغض انصبّ عليه بسبب حاكمه خواجا عطا.

آ ـ أبو الفتح مظفر الدين سلغرشاه حاكم قلهات وحموه حسن سليمان بن سليمان النبهاني

عيّن فخر الدين توران شاه الثاني نجله سلغر حاكماً على قلهات، فتزوج من إحدى كريمات سليمان بن سليمان النبهاني. وبقي في قلهات في أثناء حكم السلطان مقصود. أما في عهد الملك أرفخشدشاه، فقد كانت أغراض هذا الأخير تقلقه، فهرب إلى داخل عُمان، والتجأ إلى حميه، لكنه لم يحصل منه على المساعدة المرجوة لفتح هرمز. فالتجأ إلى أجود بن زامل.

ب ـ الصراع بين ميرشاه أويس وبين شقيقه أبي الفتح مظفر الدين سلغر

ويسهب باروس في وصف الصراع بين ميرشاه أويس وبين سلغر. ويذكر أن سلغر كسب تأييد رئيس نور الدين شيلاوي ونسيبه رئيس كمال، وهما حليفان يُعَدَّان أفضل من بني جابر، لأن لديهم كثيراً من المراكب الحربية ومن الرماة الفرس. أما أجود، فليس لديه لا مراكب ولا رماة لأنه كان يعيش في الداخل، ولأن أنصاره معتادون على الحرب في الصحراء، لا على الحرب في البحر. وقد أطلع ميرشاه على هذا التواطؤ عليه من صاحب منصب رفيع يدعى أيضاً رئيس نور الدين الذي كتب له رئيس نور الدين شيلاوي، ودعاه إلى الاشتراك في المؤامرة. وكان الرئيسان الحاملان

الاسم ذاته نسيبين.

ووفقاً لرأي ميرشاه أويس، استقدم نور الدين الهرمزي إلى جزيرة جرون نسيبه الرئيس نور الدين الشيلاوي والرئيس كمال. فوعدا ميرشاه أويس بالانسحاب من صفوف سلغر في أثناء المعركة، وضمان هزيمته بالتالي. لكنهما من جهة ثانية اتفقا سراً مع نور الدين الهرمزي على أن ينتقل إلى صف سلغر.

وحشد سلغر جيشه في جلفار، وذهب إليها براً بصحبة أجود، بينما لحق بهما رئيس شيلاوي هو ومراكيه. وكان ميرشاه أويس يبحر مقابل جلفار، فتخلى عنه الجميع ما عدا خواجا عطا. وأسره رجال أجود، وسلمه أجود إلى سلغر لقاء وعد بأن يحافظ على حياته.

وترد عند نمديهي رواية موازية، تدخل بطلين مختلفين: هما خواجا نظام الدين فالي من بين الزعماء المجتمعين في جلفار، وخواجا محب الدين أبو الخير خنجي، أحد وجهاء سلطنة هرمز وأحد المقربين من السلطان، وقائد قوات هرمز الذي انضم إلى سلغر. ويضيف نمديهي أن ميرشاه أويس استسلم لأخيه بعد أن تخلى جيشه عنه، وعامله أخوه معاملة شريفة. إلا أن بني جابر احتجزوه (لا ريب ليكون ضماناً لديهم ضد سلغر) ثم استعاده سلغر منهم.

ولا تتناقض روايتا باروس ونمديهي، بل تتكاملان. فنمديهي لم يذكر أن سلغرشاه أعمى ميرشاه أويس بعد وصولهما إلى هرمز. ويمكن الاستنتاج من معطيات باروس ونمديهي أن آل فالي كانوا من أنصار سلغر. فباروس يحتفظ بأسماء عظماء هرمز الطنانة الرنانة، الذين سوف يصطدم بهم البوكيركه بعد ٣٠ سنة، مثل نور الدين ايجي وخواجا عطا. وينبغي أن يكون نور الدين الهرمزي الوارد عند باروس نفس نور الدين ايجي. أما نمديهي، فلا يتحدث عن نور الدين، لا في هذا الجانب ولا في ذاك، لكنه لم يدوّن خطياً كل ما يعرفه على الأغلب، لأن نور الدين ايجي، الذي له فضل عليه، مشتبه بتأييده ميرشاه أويس. ويغفل نيمدهي ذكر سوء حظ نور الدين ايجي بعد انتصار سلغر. ويشير السخاوي إلى أن «ما حصل بينه وبين ملك هرمز يعد شواذاً بالنسبة إلى الاحترام الذي كان يلقاه من الأمراء والعظماء». وحقد سلغرشاه - الذي لا يسميه السخاوي لكنه حتماً يقصده هو - عليه حتى انه ألغى النفقة الكبيرة التي كانت مخصصة له، فتدنى وضعه حسياً. ومن المؤكد من جهة ثانية أن رئيس نور الدين فالي كان في عهد سلغرشاه أحد وجهاء سلطنة هرمز. أما في سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، فقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان طاعناً في السن وأصبح نصف جليل وشريكاً لالبوكيركه سهلاً.

سابعاً ـ حُكْمُ أبي الفتح مظفر الدين سلغرشاه الأول: ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ـ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م

ظاهرياً، لم تنل هذه السنوات المضطربة من نظام السلطنة في هرمز. فقد انقلبت الأوضاع في فارس بسبب الحروب التركمانية، لكن بقيت سلطنة هرمز مستقلة وقادرة على ردّ محاولات فتحها وازدهرت. فسلغرشاه الأول اكتسب سمعة كرم واسعة. لكنه عندما سقط في عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م تحت ضربات نجله توران شاه الثالث، المتلهف إلى الوصول إلى الحكم، الذي أعمى أو قتل خصومه المحتملين، ظهر التأثير السيء للاضطرابات الداخلية في سبعينات القرن الخامس عشر (٨٧٥هـ)، ولم تعد الأسرة الحاكمة تعد سوى العميان أو الأطفال.

وتتباين مميزات الأزمات السلالية في القرن التاسع الهجري/ ١٥م: فقد خرج الحكم الملكي المطلق أقوى مما كان عليه، بعد حدوث انقلاب ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، الذي استغرق بضع ساعات، واقتصر على جزيرة جرون. وتحوّل انقلاب ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، إلى فوضى، ثم انتهى باستلام الخصيان الملكيين الحكم، وهم حراس المثل الأعلى للدولة المركزية. أما الحرب الأهلية لعام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م، والصراعات الداخلية لأعوام ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م ـ ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، التي أصابت سلطنة هرمز بأجمعها، فكشفت، ولو بطريقة ناقصة، عن الخصومة الخفية بين العرب والفرس من جهة أولى، ودور جماعات الضغط في اختيار الملوك وتوجيه الحياة السياسية من جهة ثانية.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع

حُكمُ الوزير خواجا عطا
واجتياح البوكيركيه سلطنة هرمز

تعرضّت سلطنة هرمز إلى أزمات حادة على المستويين الداخلي والخارجي في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. فعلى المستوى الداخلي، وصل الصراع على استلام السلطة إلى الذروة واشتبك بمضاعفات خارجية، وآل إلى حكم خواجا عطا البلاد حكماً مطلقاً. وتميّزت الأزمة الخارجية بهجوم البوكيركيه على هرمز الجديدة واحتلالها، وفرض الحماية عليها.

أولاً ـ الصراع الداخلي على السلطة ومضاعفاته الخارجية وحكم خواجا عطا المطلق

ففي عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، كانت سلطنة هرمز تمرّ بإحدى الأزمات السلالية التي توالت عليها دورياً في تاريخها. ولثلاثين سنة خلت، حلّت بهرمز أزمة انتهت بانتصار الأمير سلغرشاه، يدعمه تجمّع آل فالي السياسي، على شقيقه ميرشاه أويس وإعمائه إياه.

آ ـ فشل صوفي خليل، حاكم شيراز من الآق قويونلو (الخروف الأبيض) باحتلال هرمز الجديدة

و قد حاول صوفي خليل، حاكم شيراز من الآق قويونلو (الخروف الأبيض) في أثناء حكمه فارس، أن يحتل سلطنة هرمز. لكن تبين له أن موقع هرمز الجديدة في جزيرة جرون منيع، مثلما كان دوماً من قبل عند هجوم جيش تيمور الأعرج[1] عليها

(١) المجلة الآسيوية، ١٩٥٣/١، ص ١١١ ـ ١١٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة ٧٩١هـ/١٣٩٦م في عهد السلطان محمد شاه. ولم يتمكن صوفي خليل من نقل قواته إلى جزيرة جرون، لأنه لم يكن لديه مراكب، ولأن سلغرشاه الأول سبقه وصادر جميع مراكب الخليج. واستاء التجار، وتدخّل الوجهاء، فعزل صوفي خليل المتهور.

ب ـ فشل ملك اللار بتوحيد مملكة اللار وسلطنة هرمز

وكان لسلغرشاه الأول عدو أضعف من صوفي خليل، لكنه أعند منه، نعني به ملك اللار، الذي كان يترقب الفرص ليجمع مملكته وسلطنة هرمز في دولة واحدة، لأنهما متكاملتان اقتصادياً، ولأن كلتيهما تعيشان من تجارة الهند. وفي عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، حاول ملك اللار أن يستغلّ إحدى حركات الانفصال التي كانت تحدث كثيراً بين بدو الساحل العربي في الخليج. فبعث إلى جلفار المتمردة على سلطنة هرمز، برجل ثقته، الكارافانسالار (زعيم القافلة)، أبي بكر اللاري، الذي جمع ٦٠ مركباً بحرياً، وحشد فيها محاربين واتجه إلى جزيرة جرون التي أنقذها تدخل خواجا عطا، غلام سلغرشاه الأول: فقد فاجأ عطا المهاجمين في مرساهم على رأس ٦٠ محارباً، وأبادهم، ثم أرسل سلغرشاه رأس أبي بكر اللاري إلى حاكم شيراز.

ويعترف جاو دي باروس، الذي لا يحابي خواجا عطا، أن هذا الأخير اشتهر بإقدامه في حروب هرمز وفي فتحها. ويسميه نمديهي «رستم حلبة الشجاعة». وقد أبدى عبقرية ضد البرتغاليين في أواخر حياته، تثبت أن ما اتصف به من جرأة ومهارة طيلة عمله الغامض بالنسبة للبرتغاليين، لم يبالغ به. وخواجا عطا البرتغاليين هو خواجا عطا الذي روى نمديهي انتصاره على أبي بكر اللاري.

جـ ـ التعريف بخواجا عطا

خواجا عطا خصيّ أصله من البنغال (بنجالة) التي كانت تصدّر خصياناً سوقهم رائجة جداً على سواحل بحر الهند. اشتراه السلطان فخر الدين توران شاه الثاني، والد شاه أويس وسلغرشاه، وائتمنه على أسراره. ويشير باروس إلى نفوذه وقلّة محبة الناس له في عهد شاه أويس الذي دام خمسة أشهر، واتسم على حدّ قول نمديهي بالظلم البغيض. ويروي باروس أن الناس كرهت شاه أويس بسبب استبداد وزيره خواجا عطا الذي بقي إلى جانبه دون جميع الوجهاء الآخرين في أثناء القتال الذي انتصر فيه عليه شقيقه سلغرشاه. وقد عينه سلغرشاه وزيراً لقلهات، مما يدل على ثقته به.

وفي سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م، اغتيل سلغرشاه الأول على يد نجله توران شاه الثالث الذي قتل كثيراً من أشقائه، وأعمى باقي أعضاء أسرته المشكوك بولائهم له، جرياً على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العادة الهرمزية، وكان على عجلة من أمره لاستلام الحكم. لكن بعد عشرين يوماً من اغتيال سلغرشاه، قام عبد من عبيد سلغرشاه، المدعو محمد رئيس الحرس السلطاني، بقتل توران شاه الثالث، ونصّب على عرش هرمز أحد أنجال سيده سلغرشاه، وكان قد التجأ إلى المسجد عند اغتيال والده، وهو نصف معتوه. عندئذٍ ظنّ ملك اللار أن الفرصة مؤاتية له لمحاولة احتلال جزيرة جرون، إلا أن أحباش الحرس السلطاني طردوه من جزيرة القشم التي نزل فيها.

وبعد فترة وجيزة، سحق خواجا عطا الأحباش في جزيرية القشم. ولكي يقطع الطريق على تدخل اللاريين في شؤون سلطنة هرمز، نصّب على العرش طفلاً أعمى، ثمرة زواج سلغرشاه وكريمة ملك اللار، ويظن أنه واحد ممن أعماهم توران شاه بعد اغتياله والده سلغرشاه وتسلمه الحكم بعده.

وعندما تدعّم مركز خواجا عطا، ابتعد عن اللاريين، وأحلّ محلّ السلطان الطفل الأعمى، أحد أولاد عمه ـ وكان عمره يتراوح بين ١٠ و ١٢ سنة ـ المدعو سيف الدين بانضر، نجل شاه أويس. وكان شاه أويس الأعمى، ما يزال حياً، وأصبح صاحب نفوذ ومسموع الرأي في المجلس الاستشاري لأنه حمى خواجا عطا في الماضي.

د ـ حكم خواجا عطا المطلق ومقاومته الأطماع البرتغالية

ويذكر كستنهيدا أن خواجا عطا كان قد مضى ٢٠ شهراً على تسلمه الحكم، عندما وصل البرتغاليون إليها سنة ١٥٠٧، أي أنه استلم السلطة الفعلية فيها في آخر عام ١٥٠٥. ومهما تنوعت ألقاب عطا في النصوص البرتغالية: مثل الوزير أو الحاكم أو الوصي، فقد كان قطعاً سيد سلطنة هرمز الحقيقي. وكان حازماً، بعيد النظر، يحصر بين يديه جميع صلاحيات السلطة. ويستطيع أن يعبىء جنوداً بسرعة من ساحلي الخليج العربي، وأن يبقيهم في طاعته بأداء الرواتب لهم. وتخضع إدارة الضرائب لرقابته. ولما كان القسم الأكبر من الأسرة الحاكمة قد هلك قتلاً أو أعمي، فقد طبّق خواجاعطا الخصي البنغالي، باسم الرمز السلطاني، سياسة مركزية، دفعت من قبل إلى اتهام سلطاني هرمز الأخيرين «بالاستبداد». وأبقى عطا الطفل سيف الدين بانضر سلطاناً اسمياً في جميع ممتلكات سلطنة هرمز، لكنه عيّن خصيان لجباية الضرائب وتلقي الريع، وعرف كيف يحث الناس على احترام سلطتهم. وكان الزعماء المحليون وأسر كتّاب الديوان القديمة، الذين أضرّت مثل هذه السياسة بمصالحهم، يتململون من سلطته المطلقة، على حد قول كستنهيدا. وكان «الوزير» الرئيس نور الدين فالي، زعيم

جماعة آل فالي، شخصاً لا وزن له، سهل الانقياد لقلة ذكائه، في نظر الخواجا عطا، الذي كان يتحكم بلا عناء في هذا الخُلُق اللين المراس. إلا أن نجلي الرئيس نور الدين فالي، الرئيس ديلمي شاه والرئيس شرف الدين الذائع الصيت الذي سوف يثير مصاعب جمة في وجه البرتغاليين، عزما على إضعاف سلطة خواجا عطا عن طريق اغتيال سلطان هرمز الحدث (سيف الدين) الذي كان يستخدمه لتغطية استبداده. لكن أحبط تآمرهما، وأبعدا عن جزيرة جرون، واعتصما بـ «أراضي الشاه اسماعيل».

مع ذلك، تمثلت القضية الكبرى في أثناء وصاية الخواجا عطا، في مقاومة الأطماع البرتغالية. فمنذ عام ١٥٠٥م، فكّر دون مانوييل في فرض ضريبة على هرمز. فعيّن في تلك السنة ذاتها، د. فرانسيسكو دي ألميده، نائب ملك دولة الهند، وكلّفه بتنظيم الشبكة التجارية البرتغالية في عدد ضئيل من نقاط الارتكاز، بطريقة حبية وبمعاهدات، دون المسّ بأنشطة أهل البلاد التجارية التي لا تلحق الضرر باحتكار التوابل البرتغالي. ولم تتضمن التعليمات الملكية له اتخاذ أي إجراءات هجومية إلا في حالة الدفاع عن ذلك الاحتكار. وكان عليه في سبيل تحقيق هذه الغاية، أن يذهب إلى البحر الأحمر، ويشيد فيه قلعة قادرة على مراقبة مدخل مضيق باب المندب والملاحة فيه. وكان عليه أيضاً في إيابه أن يرسل بعض المراكب ضد كمباية وهرمز (أغراموز) لكي تلاحق سفن المسلمين التجارية. وأضاف دون مانوييل: «وإذا كان ملوك المدن المشار إليها وأسيادها يتقبّلون صداقتنا ويخدموننا، مع التزامهم بأداء ضريبة لنا والاعتراف بنا بدفع أتاوة سنوية، نستحسن أن توقّعوا معهم اتفاقاً يرضيكم على أحسن وجه، ويؤمّن لنا أفضل الخدمات جهد المستطاع، ويتضمن إلزامهم بأن يقدموا إلى قلاعنا، وحامياتها وسفنها الشراعية، لقاء أموالنا وبأسعار معقولة، جميع السلع والمواد الغذائية الضرورية للحياة اليومية وللحاجات الأساسية. مع ذلك، إذا استطعتم، بشأن الضريبة والأتاوة السنوية أن تجبروهم على تقديم شيء محدد من المواد الغذائية المشار إليها ومن السلع، فهذا الحل أفضل لخدمتنا.

ولم يذهب نائب الملك، ألميدا البتة إلى البحر الأحمر، ولم يرسل زواراً إلى هرمز. وفي منتصف شهر تشرين الثاني سنة ١٥٠٦، كان يستعد لتسيير نجله د. لورنزو إلى الخليج العربي، ومعه أسطول مؤلف من ستة مراكب (ناوس) ومن مركبي (غالية Galies) ومن سفينة واحدة بصاريين Brigantine. وفي آخر شهر كانون الأول، كان د. لورنزو ما يزال يتأهب للسفر. في النهاية، بقي في الهند، وعمل في مطلع سنة ١٥٠٧ (كما فعل مجدداً سنة ١٥٠٨) في مواكبة «سفن ساحل مليبار الشراعية» حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدنية شيول (صيمور).

مع ذلك، كان الخواجا عطا يعلم، قبل مدة طويلة من رسوّ البوكيركيه مقابل جزيرة جرون، أنه مضطر إلى التحالف مع البرتغاليين، إذا لم يُرْسَلْ أسطول مصري، طالب به مسلمو الهند منذ عدة سنين، ويدمّر قوة القادمين الجدد الضعيفة. فقد هاجم البرتغاليون سفناً هرمزية أو استولوا عليها. وعند وصول نائب الملك إلى جزيرة انجديف في شهر ايلول سنة ١٥٠٥، اضطرت سفنٌ هرمزيةٌ ملاحَقَةٌ أن ترمي نفسها على الشاطىء. وكان د. فرانسيسكو دالميدا متمسكاً بفكرتي التجارة السلمية والعلاقات الودية. فبعث إلى الخواجا عطا برسالة سلمية أولى بواسطة تجار هنور، ثم برسالة ثانية بواسطة أحد تجار كننور، وبرسالة ثالثة بواسطة الناخذاه قيصر، وكيل عطا التجاري في بندر بهتكال. لكن في مطلع عام ١٥٠٧، كان د. لورنزو ينهب ويحرق سبعة مراكب هرمزية تنقل الخيل، ثم استولى على سفينتين شراعيتين هرمزيتين كبيرتين وغنيتين في نهر سنجيسر. ثم جدد نائب الملك مبادراته السلمية مع الخواجا عطا للمرة الرابعة بواسطة معلم بحر هرمزي وقع أسيراً بأيدي البرتغاليين. فلم يجب خواجا عطا على عروض ألميدا الأربعة. وتضامنت هرمز مع سائر المدن في بحر الهند وبقيت في حالة ترقب.

ثانياً ـ هجوم البوكيركيه على سلطنة هرمز

آ ـ تذكير بمناعة سلطنة هرمز

سلطنة هرمز دولة مترامية الأطراف، يسيطر سلطانها في داخل الخليج العربي على ساحله الكرماني (موغ أشتان) حتى شيلاو الواقعة بين رأسي نابند وبردستان وعلى الجزر القريبة منه، وعلى ساحله العربي، بخاصة على البحرين ومصايد لؤلُئِها وعلى ساحل جلفار. يضاف إلى ذلك جميع واجهة عُمان المحيطية، بما فيه مدينتها الرئيسة قلهات. ولم يكن داخل البر يخضع لسلطتها إلا في نقاط منعزلة.

وكانت هرمز العتيقة عند مصبّ نهر ميناب وشريطها الساحلي محميين بتضاريسها الوعرة وفيافيها ومناخها الحار والجاف، وبسبعة حصون كبيرة منيعة جداً، تضاف إليها مجموعة حصون صغيرة أخرى.

أما مدينة هرمز الجديدة، فتقع في جزيرة جرون الجبلية الصغيرة على بعد ٣ أميال (٦ كم تقريباً) من ساحل كرمان. ويحميها البحر والأسطول العربي الفريد في قلهات وجلفار. وهي سوق كبيرة لمرور السلع في الخليج العربي، وعاصمة السلطنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسية التي تحمل اسمها. ويتجمع سكانها في شمالي جزيرة جرون على لسان بري، ترسو المراكب الكبيرة وطرادات تموينها على جانبيه. وجزيرة جرون مجدبة تماماً، تتلقى مدينتها هرمز الجديدة جميع أغذيتها ومياهها من البر القاري ومن الجزر القريبة منها ومن جلفار، ولا سيما جزيرة القشم الكبيرة. ويقع قصر سلطان هرمز في ضاحية هرمز الجديدة، على طرف الرأس الأرضي. ويمتلك هذا العاهل في جنوبي شرقي الجزيرة في تورونباك، بستاناً ترويه بضع آبار لا تكفي مياهها ولا مياه الصهاريج المحفورة في أرباضها الجنوبية لتزويد سكانها بمياه الشرب بسبب كثافتهم العالية، وعددهم الكبير الذي يتروواح بين ٤٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠ نسمة تقريباً.

وكان سلطان هرمز يخوض حروباً ضد جيرانه، مثل ملوك اللار على البر الفارسي. وكانوا يمارسون ضغوطاً عليه، فيقطعون الطرق، ويغيرون على ساحله وعلى جزره. وكانت التقاليد تقضي بأن يؤدي سلطان هرمز سنوياً إلى أسياد البر الأقوياء وإلى أقوى حاكم في فارس أحياناً، هبة متفقاً عليها محسوبة بدقة، تسمى المقررية، مقابل احترامهم حرية انتقال قوافل هرمز بأمان في أراضيهم. ولم يكن لهذه المقررية صفة الخراج السياسي، بل اتخذت شكل ضمان تجاري. وفي عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م، أتمّ شاه اسماعيل مؤسس السلالة الصفوية، احتلال فارس الغربية، وفرض على سلطنة هرمز الاعتراف به، ودفع مقررية قيمتها ألفَا أشرفي. وهذا مبلغ زهيد جداً حتى لو حسبت معه الهدايا العينية التي يقضي نظام التشريفات (البروتوكول) أن تضاف إليه. مهما يكن من أمر هذه المقررية، فقد كانت عاملاً أساسياً من مجموعة عوامل سمحت لهرمز بالمحافظة على استقلالها السياسي وحرية قراراتها. حتى حصلت المجابهة بينها وبين البوكيركيه.

ب ـ قوة أسطول البوكيركيه وخطته

ذهب آفونسو دي البوكيركيه سنة ١٥٠٦، إلى بحر الهند، مزوداً بتعليمات إضافية تتمّم التعليمات التي يفترض في د. فرانسيسكو دي ألميده أن يطبقها حتى عام ١٥٠٨. فأسس قاعدة بحرية في سقطرة، كان عليه أن ينظّم فيها قيادة جيش مستقلة ذاتياً في مؤخرة دار الإسلام الستراتيجية من رأس جردفون إلى جوزرات.

وتُطلعنا رسالة موجهة من دون مانوييل إلى ألميده، على ما تلقاه البوكيركيه من تعليمات عامة، عند مغادرته لشبونة. فقد كان ملزماً «أن يحرس مدخل البحر الأحمر وأن يستولي على سفن المسلمين، وأن يستفيد من جميع المغانم التي يحصل عليها،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقيم علاقات تجارية في الأماكن التي تبدو له مجزية، مثل زيلع وبربره وعدن، وأن يذهب أيضاً إلى هرمز وكمباية، ويستخبر عن جميع ما يتعلق بتلك الأرجاء». على هذا الأساس، تبدو مهمة البوكيركيه الأولى محددة بدقة: فكان عليه أن يتجول في خليج عدن، وأن يزور بنادره، متقيداً بسياسة العلاقات الجيدة التي يتبعها نائب الملك. وقد أنبأ فنسنزو كيريني، سفير البندقية، مجلس شيوخها بأن ملك البرتغال يتوخّى تحقيق هدفين رئيسين في الشرق سنة ١٥٠٦: هما احتكار تجارة الفلفل في مقاطعة مليبار، ومنع المسلمين من الذهاب إلى الهند لذلك بنى قلعة في جزيرة سقطرة.

لكن لم ينفّذ البوكيركيه هذه المهمة لا في سنة ١٥٠٧ ولا في سنة ١٥٠٨. فهل فسر كما شاء النص الذي أجاز له، حسب منطوق رسالة دون مانوييل إلى نائب الملك، أن يقوم برحلة استطلاعية إلى هرمز وجوزرات؟ فرسالة د. مانوييل، المقصود بها تغطية البوكيركيه، لم تحتو كل شيء، ولم تذكر بخاصة ما يشير إلى امتلاكه في صندوقه براءة تضمن له خلافة ألميده. فدون مانوييل لم يلح، فيما يبدو، على جانب من جوانب بعثة البوكيركيه، وعلى وجوب تنفيذ ما أمر به بروح تتفق مع ميول نائب الملك، ليؤمن حرية عمل البوكيركيه في قطاع يحرص ألميده على المحافظة على صلاحياته فيه، ويرى نفسه الآن مقصى عنه، إذ إن الملك يأمره بالذهاب إلى ملاقة وبناء قلعة فيها، «برضى أهل البلاد أو عدمه». وتأكد منذ ١٥٠٦، أن تعليمات دي البوكيركيه تترك له فعلاً حرية تطبيق سياسته الخاصة. وكان دون مانوييل قد قدّر أن «أسطول مدخل البحر الأحمر» قد يستخدم «لمحاربة الذين أمر بأن يُحَارَبُوا ممن لا يروقهم أن يصبحوا خدماً لنا». ويجيز بند من التعليمات لالبوكيركيه أن يبني قلاعاً في الأماكن التي يستطيع أن يبني فيها.

وتعدّ رسائل دي البوكيركيه ضعيفة جداً. فقد كلّفه دون مانوييل بقيادة ستة مراكب، تحمل ٦٠٠ رجل في الحد الأعظم. وكان مخططاً له أن ينضمّ أحد المراكب إلى هذا الأسطول مقابل ساحل افريقية الشرقية، لكنه لم يفعل. فتألف أسطوله في الواقع من خمسة مراكب وأربعة ناوسات:

- المركب الشراعي Cirne، وهو مركب القيادة.
- المركب الشراعي Rio Grande، وقبطانه فرانسيسكو دي ثافورا.
- المركب الشراعي Pequeno، وقبطانه مانوييل تيلس بريتو.
- المركب الشراعي Santo Esperito، وقبطانه انطونيو دي كبمو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وسفينة تافوريا اسمها São Jorge، وقبطانها افونسو لوبيس داكوستا.

وأبحر ترسيتاو داكونها مع البوكيركيه، قبل أن ينفصل عنه ذاهباً إلى الهند، وكان تابعاً له حتى الآن، فوضع تحت إمرته مركباً سادساً هو:

ـ السفينة Frol de La Mar، وقبطانها جواو دا نوفا الذي كان عليه أن يصحب البوكيركيه حتى ساحل كمباية، ثم يتركه ويبحر لينضم إلى تريستاو داكونها في مليبار.

وترك تريستاو داكونها الأسطول في حالة سيئة، تنقصه الأشرعة والعدد. ولم يكن وضع الطواقم أفضل من وضع الأسطول: فقد كان اختيارها ضعيفاً جداً في لشبونة بسبب وباء الطاعون، وأكمل عدد بحارتها من سجناء الحق العام. وتأثر معظم الملاحين بمناخ سقطرة الوخيم. فإذا قبلنا رقم ٦٠٠ رجل الذين وضعهم دون مانوييل تحت تصرف البوكيركيه، وجب أن نطرح ١٠٠ رجل بقوا في حامية قلعة سان ميكيل في سقطرة، وبقي معهم ١٢٠ مريضاً خطيراً ـ أي خمس العدد الكامل ـ بالتالي يكون البوكيركيه قد ذهب ليفتح سلطنة هرمز بـ ٤٦٠ إلى ٤٧٠ رجلاً تحملهم ستة مراكب فقط.

ويعلّل أصل الطواقم وسوء وضع الأسطول، وحالة القباطنة النفسية، تَعَرُّض مدن ساحل عُمان إلى تطبيق قوانين الحرب عليها، عندما رفضت الاعتراف بتبعيتها إلى دون مانوييل. فالمغانم مطموع بالحصول عليها، والحاجة ماسة إليها، يضاف إلى ذلك حقد دفين على المسلمين يعود تاريخه إلى زمن الحروب الأندلسية، استيقظ مباشرة عند أول احتكاك للبرتغاليين بالعالم الإسلامي في بحر الهند. وفي سنة ١٥٠٥ و ١٥٠٧، تحمّل سكان المدن الساحلية في افريقية الشرقية نتائج البغضاء المتأصّلة في نفوس الإيبيريين، والموروثة عن عهد فتح الأندلس. وتبدّى هذا الشعور بالنزوع إلى الانتقام أيضاً عند نزول البرتغاليين على الساحل العُماني، الذي تحوّل إلى عمل من أعنف ما أمر البوكيركيه بتنفيذه من الأعمال الحربية، إذ تغاضى عن ارتكاب الفظائع، وأمر هو شخصياً بإجراء بعضها. فأحرقت القريات ومسقط وخورفكان. وسلبت ودمّرت جوامعها. وفي منطقة مسقط لوحقت النساء والأطفال في حقول النخيل، وطوردوا في البيوت، وقتلوا بلا استثناء. وفي خورفكان، بقي بعض الأهالي أحياءاً، وأسرهم البرتغاليون، فاستعبدوا سليمي البنية منهم وشغّلوهم في الأسطول البرتغالي، وشوهوا آخرين منهم ببتر بعض أعضائهم. وحاول بعض الناس تبرير هذه الممارسات الشنيعة بالقول إن الرأي العام المعاصر آنذاك لم يصدر عنه أي رد فعل شجب. وصحيح أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الفظائع كانت شائعة في تلك الأيام. مع ذلك، خجل باروس، وفضّل أن يشير باحتراس إلى المساكين «المعلّمين بالحديد البرتغالي»، وأن يعترف بالتفريط في القسوة في شهر أيلول ١٥٠٧. ويصرّ براي دي البوكيركيه على القول إن أباه لم يكن سفاحاً، وإنه لم يكن ليأمر بتلك الأفعال لولا أن الارهاب كان السلاح الوحيد الفعال المتوفر لديه. وهذا هو تعليلهم الصحيح المرفوض أخلاقياً ودينياً. وقد بعث البوكيركيه إلى ألميده برسالة أكدّ فيها كثيراً على اعتباره انتصاراته «عجيبة»، مما يدل على أنه كان يعي جيداً التفاوت العظيم بين الوسائل المتوفرة له وبين ما يحتاجه تحقيق مشروعه الكبير. لذلك كان يرمي إلى شلّ روح مقاومة أهالي هرمز بأمثلة رادعة مستفظعة.

وفي آخر شهر تموز ١٥٠٧ أيضاً، ظن تريستاو داكونها أن البوكيركيه ذاهب إلى ساحل ديو وكمباية. لكن غادر البوكيركه سقطرة في ١٠ آب ١٥٠٧ قاصداً مسقط لا سواها. وعقد اجتماعاً لربابنته قبل الإبحار، على عادته الدائمة، لأنه كان يحب أن يعرف أو يستشف مشاعر من حوله، وأن يشرح لهم من مخططاته ما يستحسن أن ينبىء به المشرفين على تنفيذه. ولم يترك تريستاو داكونها «لأسطول مدخل البحر الأحمر» إلا مؤونة أسبوعين. ولم يكن لدى حامية سقطرة سوى احتياطي لأقل من ثلاثة أشهر. بالتالي، تقضي الحاجة بالذهاب بأسرع ما يمكن إلى ساحل يمكن الحصول على تموين منه. فقدّم البوكيركيه إلى مجلس الربابنة ثلاثة حلول تسمح بها إرشاداته الملكية: الذهاب مباشرة إلى جوزرات، أو الاتجاه إلى أحد بنادر مدخل البحر الأحمر أو الانطلاق إلى مضيق هرمز للحصول على تموين. فرفض الحلّين الأول والثاني لانطوائهما على المخاطرة، إذ لا يجوز التجول في أنحاء بحرية مجهولة مع طواقم مهددة بنقص الغذاء. ثم إن الرياح السائدة تمنع الدخول إلى خليج عدن في شهر آب، بينما تسمح في غضون بضعة أيام بالوصول إلى ساحل عُمان الذي يعرفه جيداً المعالمة المسلمون الذين أخذهم البوكيركيه من ملندي. وفي ٢٧ تشرين الأول ١٥٠٧، لخّص البوكيركيه وضعه على الوجه التالي: «لما أدركت أنني أواجه هذه الصعاب: أسطول بلا مؤن، فيه ١٢٠ بحاراً مريضاً ليس لدي طعام لهم، و ١٠٠ بحار أمرني الملك أن أبقيهم في سقطرة، تحتّم علي أن أعدّل رأيي من أجل إنقاذ الأسطول وخلاص قلعة سقطرة، وأن أتخلّى عن التوجه إلى كمباية، وأذهب إلى مضيق هرمز لأفتش عن مؤن».

فهل يعني هذا الكلام أن قرار احتلال هرمز اتخذ ارتجالاً، اعتماداً على المعلومات المجمّعة من ساحل عُمان؟ إن مزايا البوكيركيه من فكر عميق ومهارة في

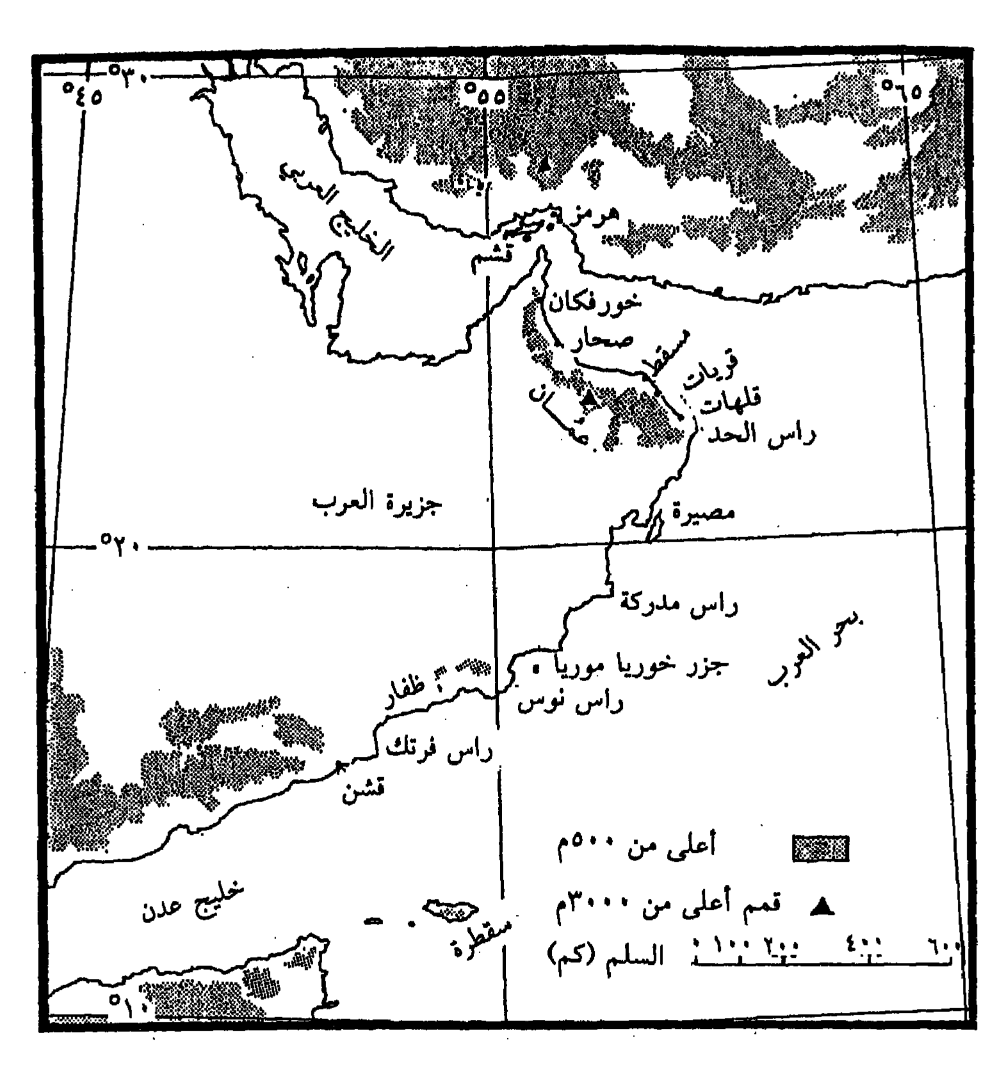
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التخطيط وحذر في التحرك، لا تستبعد انتهاز الفرص، الذي يعتبر احتلال جوة المفاجىء سنة ١٥١٠ أفضل مثال عليه بلا ريب. وهو يرى في أكثر من مناسبة من مناسبات مهنته، صرف النظر بغتة عن أحد أهدافه، والسعي وراء بلوغ غاية أخرى من مخططه المتعدد الأوجه. وفي عام ١٥٠٧، طبّق في هرمز قرارات متجانسة، تدلّ على وجود مخطط مهيأ مسبقاً، كشف عن خطوطه الكبرى في شهر شباط ١٥٠٨ في إحدى رسائله إلى د. فرانسيسكو دي ألميده: «نويت بعد تجوالي في مدخل البحر الأحمر، أن أذهب وأمضي فصل الموسميات في هرمز، وأجعل فيها إقامتي، وأبعث لك بالمراكب الكبيرة واحتفظ لنفسي بالسفن الصغيرة، لأنني قررت أن أمتطي الجواد وأحارب على البر، وأخضع لسلطة الملك الجزر المجاورة المفيدة لخدمته. ولتحقيق هذه الغاية، لا أحتاج إلى مال، بل إلى رجال فقط، لأنني آمل أن أحصل على ٥٠٠٠٠ أشرفي ذهب سنوياً من جزيرتي هرمز والبحرين». ولا يتحدث البوكيركيه إلا عن جولة بحرية واحدة في مضيق باب المندب، لا عن رحلة بحرية إلى جوزرات. ويبدو أن مخططه، بعد مجاراته ساحل جوزرات، تضمن الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر، مستفيداً من رياح كانون الثاني، ثم المجيء إلى هرمز في النهاية لتمضية الأشهر التي يمنع الطقس السيء الملاحة فيها ـ وهذا وارد في التعليمات الملكية ـ وأن يعمل في هذه الرحلة الإجبارية على تدعيم السيطرة البرتغالية على شاطىء الخليج العربي، إذ إن الضرائب المأخوذة من الهرامزة تغطي نفقات الفتح، الذي لن يكلّف خزينة دولة الهند شيئاً.

بالتالي، أدّى نقص المؤن فيها، فيما يبدو، إلى البدء بالهجوم على سلطنة هرمز قبل عدة أشهر من التاريخ الذي حدده له البوكيركيه. ولما كان قد احتفظ حتى شهر تشرين الثاني سنة ١٥٠٧ بسرية المخطط الرائع الذي صممه، فنحن لا نعرف متى حزم أمره. ونميل إلى الاعتقاد بأنه انتهز فرصة حاجة الأسطول، فرسا في عُمان، لكي يحقق بلا تأخير النقطة الأصلية الشخصية من بعثته، وأن قراره اتخذ في سقطرة. عندئذٍ نفّـذ حيلته، فقاد قباطنته نحو طريق جزيرة جرون المسدودة، دون حاجة إلى ذلك، وكانوا هم لا يحلمون إلا في اعتراض السفن وبحقهم بسلبها.

ولم يدرك قباطنة البوكيركيه إلا تدريجياً نواياه، التي مثّلت خلافاً أصلياً طبع بطابعه كل ما طرأ فيما بعد في الهجوم على هرمز. وأذكى خواجا عطا هذا الخلاف، فلم يثمر الهجوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



شكل ١١ ـ انتقال البوكيركيه من سقطرة إلى هرمز الجديدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ ـ هجوم البوكيريه على سلطنة هرمز وعلى ساحل عُمان

تأخر أسطول البوكيركيه ثمانية أيام مقابل رأس فرتك وظفار، تلبية لطلب قباطنته من أجل اعتراض سفن المسلمين الخارجة من البحر الأحمر في مثل ذلك الوقت من السنة، في طريقها إلى بنادر جوزرات ومليبار. إلا أن شدة الرياح الغربية مكّنت ثمانية مراكب تجارية عدنية ومكية من الإفلات من البرتغاليين، والوصول إلى قاليقوط ودابول، ودفعت أسطول البوكيركيه في الاتجاه الذي يرغب به، فتجاوز مرباط في ١٣ آب، مارّاً برأس نوس على مقربة من جزر خوريا موريا. وفي ١٥ آب قصد قلهات في ست جلبات، فوصل إليها في ٢٢ منه، وغادرها في فجر ٢٥ منه بعد يومين من المساومات الطويلة المترددة.

ويروي كستنهيدا أن شيخ قلهات تصرّف بحذر، فتحاشى الاصطدام بالبرتغاليين، وموّنهم، ولم يرسل مفاوضين إلى سفنهم إلا بعد أخذه رهائن، ولم يتعهد بدفع أي ضريبة أو أتاوة لالبوكيركيه، وعلّق تحديد مبلغهما حتى يتمّ الاتفاق عليها بين البوكيركيه وسلطان هرمز. وكل ما هنالك أن القلهاتيين حصلوا على صكّ أمان لسفنهم حصراً، صالح حتى تاريخ وصول البرتغال إلى جزيرة جرون، لا يشمل البتة المراكب غير القلهاتية مما اضطر مركباً عدنياً محملاً بالخيول والتمور في قلهات إلى دفع مبلغ من المال إلى البرتغاليين ليسمح له بمغادرة البندر. كذلك رفض البوكيركيه قبول تموين أسطوله مجاناً، وأصرّ على دفع ثمن ٦٠ كيساً من التمر و ٦٠ كيساً من الأرز و ٣٠ خاروفاً نقداً، ثم تبين له أن التمور شبه فاسدة. وقد استقبل القلهاتيون البرتغاليين استقبالاً عدائياً، وأهانوا مفاوضيهم، وأخفى ضباط البوكيركيه كل ذلك عليه، ولم يخبروه بشيء مما حدث إلا بعد إقلاعهم من قلهات، ووصولهم إلى عرض البحر.

ورفضت القريّات التفاوض مع البرتغاليين، فنهبها البوكيركيه، ثم ذهب إلى مسقط وبلغها في اليوم الثاني من أيلول. وقبل المسقطيون أن يدفعوا عينياً لالبوكيركيه الضرائب التي كانوا يؤدونها إلى سلطان هرمز، ووافقوا على تزويد أسطوله بالأرز والتمور. لكنهم أوقفوا تسليم المؤن، عند قدوم أحد شيوخ البدو من قبيلة بني جابر على رأس ألف مقاتل لنجدتهم. فهاجم البرتغاليون مسقط يوم الأحد ٥ أيلول، واحتلوها بعد معركة دامت ثلاث ساعات فقط، ونهبوها، ودام سلبها ثمانية أيام، ونقلوا إلى أسطولهم غنائم هائلة.

وفي ١٦ أيلول، رسا الأسطول البرتغالي مقابل صحار التي تقوم فيها قلعة منيعة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تستطيع أن تقاوم البرتغاليين مدة طويلة. ويبدو أن صحار اتعظت بما جرى في مسقط، أو أن قائدها كان مغضوباً عليه منذ عهد السلطان سلغرشاه. لذلك استسلمت برضاها، ورفعت العلم البرتغالي على برج قلعتها.

وفي ٢١ أيلول، ظهرت المراكب البرتغالية أمام خورفكان، فاستقبلت استقبالاً سيئاً، فاحتلها البرتغاليون، ولاحقوا أهلها في جميع الأماكن. واستعذب أسطولهم فيها، واستكمل تموينه بالأغذية، واستولى على أقلاس وعلى عُدَدِ سفن.

وفي تلك الأثناء، علم البوكيركيه أن قوات مسلحة غفيرة تتدفق على هرمز الجديدة من جميع جهات السلطنة، فتخلّى عن خطة دخول البنادر الواقعة شمالي خورفكان، وبادر إلى الذهاب بسرعة إلى جزيرة جرون. ويرجّح انه وصلها مساء ٢٦ أيلول، أي بعد أكثر من شهر من مروره بقلهات. فمكنت حركة البوكيركيه البطيئة الخواجا عطا من الاستعداد لمواجهته.

ويستغرب امتناع البوكيركيه عن الذهاب بأسرع ما يمكن إلى جزيرة جرون، بعد تزوّده مباشرة بالمؤن والماء. فلماذا تمسك بالرسو أمام كل بندر هام تابع لهرمز على ساحل عُمان، ولماذا هدد مرشديه من المعالمة المسلمين بإلقائهم في البحر وبعنقهم حجر ثقيل، إن هم خدعوه، متى تأكد من مكرهم برجوعه إلى خريطة المعلم عمر التي رسمها لفيسنتي سودريه عام ١٥٠٣. يظنّ أنه إما أدرك أن البون شاسع بين هدفه احتلال جرون وبين الوسائل المتوفرة لديه، فأراد أن يرسو في جزيرة جرون بعد إخضاعه أو تدميره جميع ممتلكات سلطنة هرمز في عُمان. ويجوز أيضاً أنه قصد إتاحة الفرصة لضباطه وبحارته لكي يغنموا الغنائم، فيثير أطماعهم بالمزيد ويضمن طاعتهم له.

من جهة أخرى، لو حدّ البوكيركيه من أماكن رسوه على ساحل عُمان، ووصل فجأة إلى جزيرة جرون، لما اختلف الوضع أبداً. فقد تؤدي سرعة وصوله إلى تدني عدد الرماة اللاريين والجلفاريين، المدافعين عن رملات جرون. لكن بالمقابل هل كان عدد محاربي البوكيركيه المحدود سيسمح له بالمحافظة على فتوحاته؟ قطعاً كلا. بالتالي الصعاب لا تتبدل في الحالين. وكان نجاح البوكيركيه الأوَّليّ ضرورياً. وأما تجميع المقاتلين الهرمزيين بكثرة، فقد آل إلى تراكم القتلى من ضحايا الهجوم البرتغالي على هرمز الجديدة.

وحدث أيضاً أن الخواجا عطا استغلّ على أحسن وجه تباطؤ تنقل أسطول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البوكيركيه فحشد في مياه جزيرة جرون جميع المراكب التجارية، فحرم البرتغاليين من الاستيلاء على وسائل نقل قواتهم المحاربة ومن السطو على حمولاتها واستخدام أثمانها في تمويل الحرب.

ثم إن هجوم البوكيركيه سنة ١٥٠٧، اختلف كلياً عن جميع الهجمات التي تعرضت لها هرمز من قبل، وجاءت من البر، لا من البحر، كما هي الحال الآن. مع ذلك، لم يذهب سدى لجوء خواجا عطا إلى الإجراءات التقليدية. فقد شكلت مراكب السلطنة الراسية أمام هرمز الجديدة حاجزاً ضد نيران مدفعية البرتغال، ومنعها من الوصول إلى هرمز الجديدة. وكان الخواجا عطا قد ملأ السفن بالمحاربين ونصب عليها المدافع. واستدعى المقاتلين من هرمز العتيقة ومن الساحل العربي، بخاصة من قلهات وجلفار. وأخذت القوات العربية تتحرك نحو جزيرة جرون منذ ١٠ ـ ١٢ أيلول. إلا أن هذه القوات نزلت تباعاً وليلاً في هرمز الجديدة بعد وصول البرتغاليين إلى جرون. وقدّرت المصادر البرتغالية أن عدد المحاربين العرب في جرون وعلى ظهور الطرادات بلغ بآخر أيلول، ٣٠٠٠٠ مقاتل، منهم ٤٠٠٠ من الرماة الجلفاريين واللاريين.

وقاد خواجا عطا نفسه هجوم المراكب الهرمزية على الأسطول البرتغالي. إلا أن ارتفاع عدد المحاربين العرب أربك سير المعركة.

د ـ انتصار البوكيركيه وتوقيع الصلح بين سلطنة هرمز والبرتغال سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م

وفي خريف سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م، أصبح وضع الخواجا عطا السياسي يشبه وضع البوكيركيه في نواحي عديدة، لا سيما خلافهما الخفي أو الظاهر مع حاشيتهما. وكان على كل منهما أن يفرض نفسه على أصحابه وعلى عدوّه بآن واحد. فالخواجا عطا حرص على الحدّ من أطماع من حوله: فممثلو السلالات التقليدية الذين أبعدوا عن مناصب السلطة دون أن يُقْضَى عليهم نهائياً، كانوا يترقبون ضعفه، ويضطرونه إلى الحذر. وتجلّى عداؤهم له ـ كوصي على العرش ـ ولضباطه في تردد سلطات قلهات ومسقط، الذي أدّى إلى خضوع صحار. وفي هرمز ذاتها، أقلق حشد المحاربين بعض الجهات، فارتابت به، وظنّت انه يناور لدعم سلطته. وتحاشى عطا حصول تآمر عليه بإشراكه الرئيس نور الدين فالي في اتخاذ قراراته. ويؤكد باروس أن عطا أبى أن يزجّ في معركته ضد البرتغاليين بالعرب أو الكرمانيين الذين يثق بهم. فلم تؤَلْ هزيمته إلى

انتشار الفوضى في هرمز الجديدة المحاصرة.

وبرّر خواجا عطا موقفه العدائي لالبوكيركيه بعد انكساره مباشرة، بإلقائه المسؤولية على بعض التجار وعلى الرأي العام الذي اضطره أن يذعن له.

وذكر كتاب التعليقات هذه الرواية دون أن يصدقها. أما غسبار كوريا، الأخباري الكثير الكلام الذي لا يوثق به إلا إلى حدّ معين، فيقول إن خواجا عطا ونور الدين فالي قبلا خوض المعركة ضد البرتغاليين، نزولاً عند إلحاح المشتركين الآخرين في المجلس السلطاني الذي نوقشت فيه قضية الاعتراف بسيادة دون مانوييل على سلطنة هرمز، رغم وجهة نظرهما المعاكسة. ولا تتنافى الحماسة، التي عارض بها عطا البوكيركيه في وقت لاحق، مع موافقته السريعة جداً على القتال. فسلوك الوصيّ الدائم المنتظم مستوحى من دافعين، هما حرصه على تأمين حرية تجارة هرمز البحرية، وتصميمه على تقصير وجود البرتغاليين في جرون إلى الحد الأدنى. فلا يستبعد أن يكون قد فكّر بفوائد الاتفاق الودي. مع ذلك يبدو أن تعبير كوريا عن أفكار الوصي عطا بتلك اللهجة المتشددة، تحريف لما قاله لالبوكيركيه ذلك الرجل المخادع البعيد النظر الذي يشكّ بداهة بصدقه.

وجمع خواجا عطا وجهاء مدينة هرمز الجديدة في قصر السلطان لإشراكهم في مسؤولية الاستسلام. وقام الرئيس نور الدين فالي نفسه بمفاوضة البوكيركيه على بنود اتفاق الصلح والتبعية، الذي كتب بالعربية والفارسية والبرتغالية، ووقّعه خواجا عطا والرئيس نور الدين فالي في ١٠ تشرين الأول سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م. ويبدو أن المعركة نشبت بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام على وصول البوكيركيه إلى جزيرة جرون. بالتالي، قطعاً، لم يتفق على بنود المعاهدة إلا بعد إجراء محادثات دامت عدة أيام. وقد طالب البوكيركيه في البدء بضريبة سنوية قدرها ٣٠٠٠٠ أشرفي، يضاف إليها دفع جميع نفقات أسطوله حتى يوم توقيع الوثيقة. واقترح خواجا عطا ٦٠٠٠ أشرفي ضريبة و ٥٠٠٠ نفقات أسطول. ورأى ضباط البوكيركيه أن عرضه معقول. ورضي البوكيركيه برقم نفقات الأسطول وحدّد الضريبة السنوية بـ ١٥٠٠٠ أشرفي. لكن ضاع أصل الاتفاق منذ القرن السادس عشر، فتعذّرت معرفة نصوصه بدقة، لاختلاف أخبار مصنفي الحوليات بشأنها. مهما يكن، توجّب دفع الضريبة السنوية في أول تشرين الأول «مما يتجمّع من ذهب وفضة ولؤلؤ من واردات سلطنة هرمز، على ما جاء في رسالة البوكيركيه المفقودة إلى دون مانوييل، وفي طبعة كتاب التعليقات لعام ١٥٥٧م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعفى السلع البرتغالية من أداء الرسوم في سلطنة هرمز. ولا تفرض على السلع التي يشتريها البرتغاليون من هرمز الجديدة ومن بنادر السلطنة، إلا الرسوم التي يدفعها الهرامزة أنفسهم. ويتبرع سلطان هرمز بالأرض اللازمة لبناء قلعة برتغالية في المكان الذي يختاره البوكيركه. وقبل إشادة هذه القلعة، ينبغي على السلطان أن يتنازل عن الأبنية التي تخصّص للوكالات التجارية البرتغالية. واتفق على أن يرسل سلطان هرمز سفيراً إلى بلاط دون مانوييل، إلا أن هذا البند لم يدرج في المعاهدة فيما يبدو، لأن لا أحد من الطرفين طالب بتنفيذه عند حدوث خلافات. بالمقابل، تضمّن اعتراف البرتغاليين بحكومة خواجا عطا. فقام البوكيركيه الظافر، نيابة عن ملك البرتغال، صاحب السيادة على سلطنة هرمز استناداً إلى حقّ الفتح، بإعادة السلطنة المذكورة إلى تابعه السلطان سيف الدين، وكلّف خواجا عطا والرئيس نور الدين "فالي، موقعي المعاهدة، بالوصاية على العرش وحراسة شخص السلطان وبخدمته بصدق تام وإخلاص.

وهكذا أضفى البوكيركيه صفة شرعية على سلطة خواجا عطا ونور الدين فالي، فاستغلّ عطا معاهدة الصلح بمهارة فائقة للقضاء على أهداف عدوّه. واعتبر البرتغاليون أن فرض أتاوة على سلطنة هرمز دليل قاطع على تبعيتها السياسية لبلادهم. وعلى النقيض، رأى الهرامزة أن المعنى تجاري للمقررية وللمستفيدين من منحهم بعض الإعفاءات الجمركية.

هـ ـ خلاف خواجا عطا والبوكيركيه على بناء قلعة في هرمز الجديدة

وقبل الهرامزة بمعاهدة ٩١٣هـ/١٥٠٧م، ووافقوا على دفع بضعة آلاف أشرفي، واعترفوا بالسيادة البرتغالية عليهم، لكي يؤمنوا حرية تجارتهم البحرية، مثلما أمّنوا حرية مرور قوافلهم في فارس من قبل باتفاق مماثل مع شاه اسماعيل سنة ١٥٠٤. لكن لم يفهم البرتغاليون حقيقة طبيعة المقرّرية، فرفضوا في السنوات اللاحقة أن تؤدي سلطنة هرمز مقرّريتين بآن واحد، إحداهما لشاه اسماعيل والأخرى لملك البرتغال. وكانوا مقدمين على حصول خلاف آخر مع هرمز حول موضوع آخر، وذلك بين شهر تشرين الثاني ١٥٠٧ وشهر شباط ١٥٠٨م.

وكان أسياد سلطنة هرمز دوماً شديدي الحرص على منع الدخول إلى هرمز الجديدة، فيتحفظون كثيراً، ويتخذون احتياطات كبيرة عند استقبالهم المندوبين المكلفين بقبض المقررية المستحقة لسلطات غريبة. ويفيد التذكير بصوفي خليل الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تتساهل معه سلطنة هرمز، ولم ترض بإقامة مراكز محصنة على مقربة من حدودها البرية. وإذا كان خواجا عطا قد قبل على مضض بوجود وكيل تجاري برتغالي دائم في هرمز الجديدة، فلم يسعه التسامح ببناء قلعة أجنبية في جزيرة جرون ملاصقة للقصر السلطاني. فاقترح بلا جدوى على البوكيركيه بإشادة قلعته في نابند، أو على البر، أو في جزيرة القشم، أو حتى في توررمباك. ويتهم المؤلفون البرتغاليون خواجا عطا بالتصرف على هذا النحو لحماية مصالحه الشخصية ونظامه المستبد. إلا أن مصالح عطا الخاصة في هذه الحال تعني بقاء سلطنة هرمز، مثلما ثبت، بعد ذهابه، من اضطرار سلاطينها ووزرائها إلى التنازل والاستقالة من مناصبهم، على مدى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. وتبين أن خواجا عطا مثّل البطل اللامع بين السياسيين الهرامزة الطليقي الأيدي، بل كان آخرهم.

وتحاشى خواجا عطا والبوكيركيه الدخول في صراع مكشوف، تلافياً لتغييرات الحظ المفاجئة. فتباريا بالتبجّح والتحايل والمكابرة. ويروي الأخباريون بإسهاب، بخاصة كوريا، تصرفاتهما الفظة الرامية إلى إرهاب بعضهما، وتفاصيل استفزازاتهما ومناوشاتهما. على الرغم من هذا السلوك، تجلّى بوضوح مسار مناورات خواجا عطا المتعرج، ونجح فيه بفضل مسايرة القباطنة البرتغاليين له، ووجّهه ببراعة نادرة على حدّ قول مصنفي الحوليات البرتغاليين.

وأطلع خواجا عطا على الخلاف الخفي الكامن بين البوكيركيه ومرؤوسيه منذ بداية الحملة البرتغالية ففي آخر شهر أيلول، عندما نزل البرتغاليون على الساحل العُماني، انتقد القبطان مانوييل تليس علناً ذلك العمل واعتبره قليل الفائدة كثير المصائب. "أما الآن وقد رفع العلم البرتغالي فوق قصر سلاطين هرمز، فقد حنق القباطنة البرتغاليون، لأنهم لم يغنموا شيئاً، وأمضوا فترة هبوب الموسميات وهم ينقلون الحجارة لبناء القلعة البرتغالية، أو يبحرون مقابل سواحل جزيرة جرون، بينما كانوا هم على عجلة من أمرهم لتحميل التوابل من مليبار (جاوو دا نوفا) أو لاعتراض المراكب مقابل رأس جردفون والاستيلاء على حمولاتها. فكان همهم الأكبر مغادرة جرون وبالتالي دفع البوكيركيه إلى إيقاف بناء القلعة، شأنهم في ذلك شأن خواجا عطا. وناشدهم البوكيركيه وطلب منهم إخفاء خلافاتهم معه لكي لا يستفيد عدوهم منها. وتوطّد التواطؤ الضمني بين الوصي على هرمز وبين ضباط البوكيركيه من جراء توفير خواجا عطا السند القانوني له بمهارة فائقة: فكلما بدرت نية سيئة من البوكيركيه، كان عطا يذكّره بأن سلطنة هرمز، حسب المعاهدة الموقعة بينهما، تابعة لملك البرتغال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإحدى ممتلكاته، وأن أي ضرر يلحق بها ـ اقتصاص أو حصار أو قصف ـ يضرّ بمصالح التاج البرتغالي. وقد حدّت هذه الحجة حرية ردّ البوكيركيه، لا سيما أن حساسية قباطنته أصبحت مرهفة لهذا الوضع الشرعي.

ودفع خواجا عطا مبلغ الخمسة آلاف أشرفي فوراً (تكاليف الأسطول البرتغالي). ثم سدّد الـ ١٥٠٠٠ أشرفي بعد بضعة أيام. وورد في كتاب التعليقات أن البوكيركيه تريّث في إرساء أسس القلعة حتى قبضه المقرّرية، ولم يبدأ بالبناء إلا في ٢٤ تشرين الأول، واستغلّ فترة الأسبوعين الفاصلين توقيع المعاهدة عن المباشرة بالأشغال لإصلاح مراكبه، وتجديدها تحسّباً لوصول أسطول المماليك.

ولم يحصل تفاهم مباشر بين خواجا عطا وقباطنة البوكيركيه قبل شهر كانون الثاني سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨. وانتشرت إشاعات كثيرة في بندر هرمز الجديدة، لم يختلقها أنصار عطا اختلاقاً بل ساهموا بإذاعتها بين الناس لتقوية معنوياتهم وإضعاف معنويات عدوهم. والحقيقة أن سلطنة هرمز كانت تخشى أسطول المماليك مثلما تتهيّب أسطول البرتغاليين الراسي في مياهها.

وحوالي آخر كانون الأول سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م، أَطْلَعَ أربعة قباطنة برتغاليين فارين خواجا عطا على خفايا الصراع بين البوكيركيه وضباطه. وبدا أن الهرامزة سوف يهاجمون البرتغاليين، فسحب البوكيركيه مقاتليه من هرمز واصعدهم إلى سفن أسطوله، وأخلى القلعة، وطلب من عطا تسليمه القباطنة الأربعة القارين، فصدّه. وبعد أخذٍ وردّ، قرر البوكيركيه قصف القصر السلطاني وتدميره. فلم ينجح لفساد ذخيرة قنابله. ولم يبق أمامه إلا قطع المياه والمؤن عن جزيرة جرون لإجبارها على الاستسلام. ففشل في هذا المسعى أيضاً. وخرج إلى عرض البحر، متجهاً إلى سقطرة في السادس من شهر شباط سنة ٦١٤هـ/١٥٠٨م.

ولم تنته الحرب بين سلطنة هرمز والبوكيركيه بانسحابه منها. وثابرت سلطنة هرمز على التمسّك بسياستها التقليدية التي دامت ثلاثة قرون، وتتلخّص بالاعتراف بسيادة كل قوي في البرّ أو البحر ودفع مقررية له دون السماح له باحتلالها عسكرياً أو بإقامة قواعد أو حصون على أراضيها. وسوف يعود البوكيركيه إلى مياه جرون في شهر أيلول سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م، كما سيأتي في جزء مخصص للحماية البرتغالية على سلطنة هرمز.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خـاتمـة

هرمز أو هرموز أو أرموز أسماء لمسمّى واحد هو «هرموزية» في اقليم «كرمانية» (كرمان). فهي إذن مدينة قديمة جداً. وقد ورد أول ذكر لها في وصف رحلة نيارخوس، أمير بحر اسكندر ذي القرنين، في شهر تموز من سنة ٣٢٥ق.م، حيث جاء ما يلي: وفي اليوم التالي أبحروا، عند الفجر، وقطعوا مائة ستاديون، ثم رموا مراسيهم عند مصب نهر أناميس (ميناب) في بلد تسمى هرموزية. وحوالي منتصف القرن الثاني للميلاد، قال بطلميوس إن مدينة أرموزة وراس أرموزة واقعان على شاطىء كرمانية. وفي سنة ٥٤٠ للميلاد، ذكر السمعاني أن هرمز نصرانية نسطورية، اسم مطرانها جبراييل، وحوالى سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م، افتتحت هرمز العتيقة، على حد قول البلاذري، وهاجر أهلها إلى مكران وسجستان، وحلّ محلهم عرب، أعطوا منازلهم وأراضيهم، فاستثمروها ودفعوا ضريبة العشر عنها[1]. وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، كانت هرمز العتيقة تضيق بتجارها الذين توزعوا على القرى المجاورة لها، أي أنها كانت الأعمال مزدهرة فيها. ولم يحدد تاريخ دقيق لنشوئها في الوثائق المكتشفة حتى الآن أو في تصانيف المؤلفين، بل اكتفى الأخباريون بالقول إن الملك الذي سكّ العملة هو الذي أسسها. أخيراً كانت واصلة إلى أوج تطورها في سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م، تشكّل دولة تشمل أراضيها ساحل كرمان وجزر الخليج العربي وساحل جزيرة العرب الشرقي من القطيف والبحرين إلى مدينة صور ورأس الحد، وإلى أبعد من ذلك في بعض الظروف. ولا يمكن أن تتشكل دولة مثل هذه الدولة المترامية الأطراف بين ليلة وضحاها، ولا بدّ أن تكوينها استغرق قرناً كاملاً في الحد الأدنى، هو القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في أضعف الاحتمالات.

---

(١) انظر هوبسن جوبسن مع الإحالات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخيراً، يجوز أن يتوقّع القارىء ظهور إيضاحات جديدة بشأن ماضي هرمز البعيد، الذي لم تدرس بدقة لا معالمه ولا أحداثه قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، رغم وجود وثائق مكتوبة بشتّى اللغات، ومنها اللغة العربية، تتعلق بهذاالموضوع. وتتطلب هذه الناحية جهداً دؤوباً قد يحتاج إلى سنين من التقصّي، لا سيما أن تقليداً هرمزياً قديماً ورد في حوليات تورانشاه يؤكّد ان المؤسس الأول «لدولة هرمز» كان يدعى درام ـ كو، ومعنى اسمه «ضارب العملة»، أو «درهم كوب»[1]. كذلك أرسى أسطول نيارخس، أمير بحر اسكندر الكبير، سنة ٣٢٥ق.م في بلاد «هرموزية»، وذكر بطلميوس في جغرافية (١٥٠ ميلادي) مدينة هرمز ورأس هرمز، على ساحل كرمان. فهل من علاقة بين ذلك الماضي البعيد، والتقليد الهرمزي القديم، وسلطنة هرمز التي تحدثنا عنها؟ المستقبل وحده كفيل بالإجابة عن هذا السؤال؟

مهما يكن، لم يحتل غريب سلطنة هرمز إلا احتلالاً مؤقتاً، ولم يدر شؤونها غازي من سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م إلى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، أي أنها أمضت ثلاثة قرون، تعاقبت عليها فيها أيام الترح وأيام الفرح، فترات عصيبة كئيبة وفترات رخاء وهناء، إلى أن وقعت تحت الحماية البرتغالية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي / العاشر الهجري، مثلما سوف يأتي في الجزء الثاني.

(١) كتاب دوراته بربوسه، الجزء الأول، ص ٩٩، حاشية ١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحـــق

- تمهيـــد -

وثائق تاريخية متفرقة خاصة بسلطنة هرمز والخليج العربي

تستعرض وثائق كثيرة تاريخ الخليج العربي وسلطنة هرمز من القرن العاشر حتى القرن ١٥ الميلاديين. يُجمِلُه بعضُها إجمالاً، ويكتفى بعضُها الآخر بنُبَذ قصيرة عنه. ولغة هذه المستندات عربية، أو فارسية، أو برتغالية، أو عثمانية، في معظم الأحيان. ويُظن أن بعضها مفقود، أو يعتقد حتى الآن أنه مفقود، لكن احتفظ ببعض نصوصه مؤرخون اطلعوا عليه ونقلوا عنه. على أن بعضها الآخر وصلنا كاملاً، إما في لسانه الأصلي أو مترجماً إلى لسان آخر. من ذلك حوليات وتصانيف قيّمة، اقتبسنا منها مقاطع مختارة محدودة. مثال ذلك:

١ ـ مخطوطة مجمع الأنساب لشبانكاري (فارسية): عن سلطنة هرمز وسلاطينها أو ملوكها.

٢ ـ مخطوطة حدود العالم من المشرق إلى المغرب، المجهولة المؤلف (فارسية مترجمة إلى الإنكليزية): عن اقليم كرمان وهرمز العتيقة على ساحله.

٣ ـ الكامل في وصف سواحل المحيط (١٤٣٣م/٨٣٧هـ) لماهوان (مخطوطة صينية مترجمة إلى الإنكليزية): عن هرمز العتيقة.

٤ ـ كتاب دوارته بربوسه عن هرمز العتيقة (مخطوطة برتغالية مترجمة إلى الإنكليزية): عن مملكة هرمز كاملة.

٥ ـ وصف الخليج العربي وسكانه سنة ١٧٥٦م (تقرير دبلوماسي هولندي).

٦ ـ مقدمة كتاب المحيط لعلي ريس (مخطوطة عثمانية): عن بحر الهند وسواحله.

٧ ـ ذكر سلطنة هرمز في تحفة النظار، لابن بطوطة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة الأولى ـ فارسية

سلاطين سلطنة هرمز
من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر

مقتطفات من مخطوطة مجمع الأنساب

تأليف

الشبانكاري، محمد بن علي بن الشيخ محمد بن الحسن بن أبي بكر

سلاطین هرمز

I

(A = Brit. Mus. Add. 16696; N = Ms. Saïd Nafiçy, Téhéran. Les deux textes sont altérés. J'ai renoncé à justifier les nombreux rétablissements de lecture nécessaires et ne donne que les variantes essentielles.)

ذکر ملوك خطهٔ هرموز بدانکه زمین هرموز اگرچه سواحل بحر عمان است از حساب زمین کرمان بر میگیرند و قدیماً بندرگاهی معتبر بود و شهری که آنرا نابند گفتندی آن بجایست [sic] اما نه پادشاه نشین است و هرموز کهنه گویند ولایات بسیار و نخلستان دارد چون ایاز که ترکی بود از غلامان امیر محمود قلاتی بر هرموز حاکم شد این جزیره را که امروز جرون است بساخت و دار الملك بآنجا برد و گویند اصل ملوك هرموز از ملوك کرمان است و العهده علي الراوی و در فهرست اسامی این ملوك بدو گروه نهاده‌ایم یکی قدیم و یکی جدید. اما مفصل قدیم نوشتن طولی دارد صورت احوال جدید بگویم ذکر ملوك جدید. هرموز بدانکه چون نوبت مملکت بملك شهاب الدین محمود بن عیسی[1] رسید و او ملکی بود به انواع خصال پسندیده و سیرتی نیکو و اعتقادی صافی داشت و مدتی حکومت کرد و خاتون او زنی محتشمه بود دختر بسیف الدین. انضبر [sic] که قرة العین و واسطه قلاده این خاندان بود و این زن‌را اعتباری تمام بودی و ملك محمود[2] که اورا قلاتی گفتندی بحکم آن که از جزیره قلاتو بود خویش این

(1) N عیسی : A علی — (2) A ajoute بن عیسی.

ملك محمود(1) بن عيسى بود و همتى بزرك داشت و پيوسته در انديشه مملكت
هرموز بودى گويند رسولان و نامها دركاركرد تا دل خاتون ملك شهاب الدين
بگردانيد و زهر بملك شهاب الدين داد. و هلاك گردانيد و تربيت ملك محمود
كرد وبحبالهٔ او در آمد ملك ركن الدين محمود قلاتى در شهور سنه سبع
و اربعين و ستمايه ملك هرموز شد ومردى عادل دانا بود و هرموزرا بعدل وكفايت
رونق داد و رعيت و لشكررا رهين بر ايادى گردانيد و قيس و بحرين و ظفار
از زمين عدن و قطيف و تزوين در مملكت داخل كرد و جودى فايض داشت
و مملكتش درازكشيد چنانكه سى و هشت سال ملك هرموز بود و دبر سنه
خمس و ثمانين و ستمايه [sic] درگذشت و اورا نه پسر بودند بدين تفصيل
قطب الدين تهمتن شهاب الدين بهمك معز الدين فولاد سيف الدين نصرت
تاج الدين مسعود شمس الدين تركانشاه امير سلجوقشاه امير عجمشاه (2)
ملك قطب الدين تهمتن بعد از پدر بملك نشست و سيرتى نيكو داشت
ميان او و بعضى برادران مخالفت افتاد و بى‌بى منظر(3) كه مادر سيف الدين
نسرت بود از براى پسر خود ميكوشيد تا مملكت از او متصرف كند ملك قطب
الدين التجا بتركان خاتون ملكهٔ كرمان كرد و او مربّى شد و ملك بر قطب الدين
تهمتن مقرر شد(4) و مدتى ملكى راند و شكار فنا شد و از وى دو پسر ماند
فخر الدين تورانشاه و مظفر الدين سليمان شاه الملك سيف الدين نصرت بن
محمود چون تهمتن نماند از پسران ملك محمود هيج(5) يك استعداد
پادشاهى چون او نداشت زيراكه از خاتون اصلى بوه بى‌بى مانضر(6) و بتدبير
پادر و تربيت او ملك شد پس مادرش تقرير داد كه برادران‌را همه بكش تا ملك
تو مستقيم شود نصيرت در اين تدبير بود قضاى خداى در آن نزديكى فرزندان
او همه بمردند وخود رنجور شد و از برادران او مسعود مستعدتر بود با

(1) N محمود : A محمد — (2) A عجمشاه : N عجبشاه — (3) N منظر : A با نقره — (4) N شد :
A مانقره : N مانضر (6) — A هر : N هيج (5) — A داشت

جمعی از نواب متفق شد و از راه بام بخانهٔ نصرت در آمد و برادررا با
وجود مرض بکشت و باتفاق برادران و سپاه ملك شدا لملك ناصر
الدین مسعود بن محمود اندك روزگاری ملکی کرده بسبب آنکه قتل برادر
مسلمان کرده بود حق تعالی اورا بر خورداری از ملك نداد و نصرت
نیز بجهت آنکه نیت قتل برادران کرده بود همین سبیل و سیف الدین
نصرترا نیز غلام ترك ایاز نام بود و ترکی دانای مستعد بود و زنی داشت
هم کنیز ترك از آن ملك محمود بود نام او مریم در آخر اورا بی‌بی مریم
گفتندی و این ترك از قتل خداوند خود عظیم غمکین بودی سالها در
پی تدبیر بود تا با جمعی از اکابر هرموز اتفاق کرد برآنکه کین ملك نصرت
بخواهد و بر ملك مسعود خروج کردند و در روز مصاف ملك مسعود از ایاز
منهزم شد و التجا بملوك فارس برد و شیخ جمال الدین ابرهیم که اول
ملوك قیس بود در آن روزگار ملك فارس بود با لشکری بمدد ملك مسعود
بدر هرموز رفت وایاز آن روز دار الملك تا بندررا خالی کرد و با جرون نقل
کرد و لشکری از فارس و شبانکاره مدتی بر در جرون ببودند و با جرون
چیزی نتوانستند کرد ایاز بشفاعت در آمد و جانب شیخ جمال الدین
تحف و هدایا و جرایر خود نیکو داشت [sic] و لشکری برفتند ملك
مسعود باز پناه بملوك کرمان برد ایاز ترکی کرپر بود و قبل وقوع الحاله سدان
رخنه کرده بود و ملوك سیرجان ملك مسعودرا در قید آوردند و همانجا
محبوس داشتند و ملك مسعود با خویشان و خدم و نوکران تقریر کرده
بود که شما همه از من دور شوید و هرگز پیش من نیاید مدتی چنین
بود و مسعود با ملوك سیرجان محبتی پیدا کرد و از وی ایمن شدند
واورا بند بر داشتند و در شهر آمد و شد کردی اما شهر بند بودی تا بتدبیر
اسپی بدست آورد و گریخت و روی بقلعهٔ از قلاع هرموز نهاد که آنرا قلعهٔ
کد (1) گویند که خود هرچند کوشید که خودرا در آن قلعه اندازد میسر

(1) A کد (voir p. 94, n. 3) : N سد

نشد از آنجا بازگشت و بدینه بازر شد (۱)؟ و شهر بشهر میگشت و از کس
بوی وفای نشنید عاقبت. چون این حدیث کهنه شد (۲) بشهر بسیرجان
باز آمد و از ملوك کرمان طلب وصلت کرد و با او وصلت کردند پارهٔ هم
از کرمان بوی دادند و باز بکرمان آمد و از وصلت ملوك کرمان دو پسرش
آمد یکی محمود و یکی سیاوش و او گاهی در کرمان بودی و گاهی در سیرجان
تا وقتی که وفات کرد و امروز پسرش سیاوش مانده و هم بکرمان (۳)
و هم بسیرجان مقام میکند و بهرموز گاه گاه رود و ملك قطب الدین
تهمتن خلد الله ملکه اورا تبجیل و ترجیب کند و الامیر بها الدین ایاز
ترکی مستعد بود و در عهد او هرموز مصر جامع شد و با ملوك فارس
و شبانکاره و کرمان طریق مصادقت داشت و همه‌را بیلاك و سوغات
فرستاد و با حضرت اردو هم استعانت کرد و هر سال مالی عظیم
بفرستادی تا از باس لشکر مغول ایمن شدی و در عهد او راهها ایمن بود
و ملکزادگانی که بودند هرکس‌را بر حسب مصلحت کار بساخت بعضی
بلطف و بعضی بعنف و زنش بی‌بی مریم در قلاتو مقیم بود و آنجا خود
حضرتی بود پسر خود و خزانهٔ خود آنجا گرد کرد و ایاز مملکتی بسلامت
راند تا وفات کرد الملك عز الدین کردانشاه چود ایاز نماند حق تعالی ملکی
بمرکز خود باز رسانید واین ملك از اجفاد و نبیره‌گان ملك محمود عیسی
بود از خاندان ملك سیف الدین با نضر [sic] که افتخار همه این
خاندان بدان با نضر است و ملك عز الدین کردانشاه ملکی مبارك قدم بر
خجسته طلعت بود و اهل هرموز بقدوم و جلوس او عظیم خرم بودند و او با
ملوك شبانکاره همان بسوابق حقوق محبت قدیم مرعی داشت و دایماً میان
ایشان مکاتبات و مراسلات و تحف و هدایا روان بودی و روزگارش

(۱) N بازر شد : A باز رسد — (۲) Dans A کهنه شد .. وشهربشهر manque. — (۳) N ajoute بودی

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسلامت بود تا زمانی که پسر بشیخ جمال الدین نام او عبد العزیز آنکه اورا
مالك عز الدین گفتندی نیك معتبر شد و فارس و سواحل همه با او تعلق
گرفت بخاطر او در آمد چنانکه قیس و بحرین و قطیف و بصره از آن من
است هرموز نیز باید که از آن من باشد و بر استخلاص آن یرلیغ حاصل کرد
تا لبشکر فارس و شبانکاره و ترکمان و لشکر آن حوالی روی بهرموز نهند مدتی
لشکر بدر هرموز فرود آورد قرب سه سال متواتر جنك بود هر زمستان باز لبشکر
بدر هرموز فرو آمدی وراهها قروق بودی و متاع هندوستان غلا گرفت پس عبد
العزیز حیلتی اندیشید و پیغام فرستاد که صلح کنیم بشرط آنکه ملك کردانشاه
با من در یك کشتی حاضر شود من تنها و او تنها بی سلاح تا با هم حکایتی
که باشد تمام کنیم بدین قرار دادند و کردانشاه با یك سواری بی سلاح به
کشتی در آمد و ملك عز الدین نیز همچنین با یك نوکر اما با نوکر ملك
خنجری بود چون هر چهار بکشتی در آمد ملك عز الدین اشارت بنوکر خود
کرد تا کردانشاه‌را با کارد بزد و بگرفت و در حال کشتی براند بطرف
قیس و آن ملك بزرگوار گرفتار آمد و اورا در قیس شهر بند کردند از قضای
خدا روزی کشتی از قیس بطرفی دیگر میرفت ملك کردانشاه خودرا بدان کشتی
انداخت چنانکه کسی اورا نشناخت چون اورا هنوز دولت درکار بود باد بر
کشتی زد و بطرف جرون برد و راست درکنار جرون بر ایستاد و این از
اتفاقات عجب ابست که ملك کردانشاه باز بجرون افتاد و اهل جرون‌را بقدم
او بشادی افزود و همه صدقات دادند و خرّمی کردند و ملك غر الدین در آن
زمستان بدر هرموز باز آمد تا میان مواضعه صلحی رفت و بمالی مقرر
کردند که هر سال کردانشاه بفارس میدهد و ملك کردانشاه بمدت
ده [sic] سال ملك بود چون وفات کرد از او چهار پسر ماند بدین تفصیل
بهرامشاه عجمشاه تهمتن[1] کیقباد و بعد از کردانشاه بهرامشاه بملکی

[1] N ajoute بردی

نشست و چون یك سال بگذشت یکی هم از خویشان ایشان شهاب الدین یوسف نام خروج کرد و بهرامشاهرا بقتل آورد و حکومت هرموز گرفت و پسران دیگر یعنی تهمتن[1] و کیقباد التجا بملوك قیس بردند برادران ملك عز الدین عبد العزیز و ملك جلال الدین عبد الکریم مدد شدند تا ملك از شهاب الدین باز ستدند و اورا بکشتند ملك عادل قطب الدین تهمتن ملکی خجسته طلعت عالم عادل متفطن بود و چون از ملکی او دو سال بگذشت میان او و ملوك قیس سابقه محبتی که از قدیماً بود خلل پذیرفت و ملك از ایشان بدست این ملك آمد و این چنان بود که چون امیر چوپان ملك عز الدین عبد العزیزرا سان رسانید و حکومت شیراز به امیر شرف الدین محمود شاه اینجو افتاد و ملك جلال الدین عبد الکریم که مردی مدبر صاحب رأی بود در جزیره قیس متمکن شد و سالها حکومت آن طرف راند و چون دولت ایشان روی به تراجع نهاد برادرش رکن الدین محمود که والی خنج و فال بود پیش برادرش عبد الکریم رفت بقیس و اهل قیس باوی اتفاق کردند و بر عبد الکریم خروج کردند و اورا بقید آوردند و قصد قتل کردند و میگفت مرا میل کشید تا نشینم[2] و تدبیر مملکت کنم نشنیدند و اورا بیگناه بکشتند و رکن الدین محمود شش ماه حکومت کرد و همان جماعت با برادرش فاضل اتفاق کردند و رکن الدین‌را بزهر کشتند و فاضل چهل روز ملکی کرد و بزحمت اسهال در گذشت و از احفاد جمال الدین غیاث الدین محمد و فخر الدین احمد پسران ملك فخر الدین احمد مانده بودند که بنام و لقب پدر بود و غیاث الدین محمد ملك شد و بعد از یك سال و چند ماه که ملك قطب الدین تهمتن بدفع لشکر کیج و مکران که تغلبی با هرموز میکردند[3] از

[1] N : تهمتن A : بهمن — [2] A : تا نشینم N : بنشینم — [3] N : که تغلبی با هرموز A : با هرموز تغلبی که ایشان با هرموز تغلبی

جرون غایب بود غیاث الدین محمد و فخر الدین اخمد اشهار فرصت نموده قصد جرون کردند و با لشکری که هر ده کس [sic] از ولایتی برچیده بودند بقصد جرون آمدند و خلقی‌را بکشتند مالی غارت کردند و جمعی از سپاه ملك قطب الدین که در جرون مانده بودند اتفاق کردند و ایشانرا براندند ملوك قیس باز گشتند و آوازه زدند که هرموزرا گرفتند و چون ملك قطب الدین تهمتن بهرموز باز آمد آتش غضبش زبانه زد و با لشکری گران بقیس راند اتفاقاً ملکان دوگانه نیز در قیس بودند و آنجا مسخر کرد و ملکان دوگانه بدست آورد و تمامت خزاین و دفاین که سالها آنجا مضبوط بود برد اشت و مجموع اولاد و احفاد شیخ جمال الدین‌را باسیری ببرد و کامران و کامیاب به جرون شده همان روز ملکان دوگانه‌را کار بساخت و جمال الدین ابراهیم پسر تاج الدین عبد الرحیم باسهال درگذشت و تاج الدین عبد الرحیم‌را پسری بود از دختر ملك سیف الدین محمد شاه شبانکاره و مردی با جگر بود و این معنی با عم خود ملك شمس الدین که در اردو بود باز نمود و او حکم پادشاه خاصل کرد که لشکر فارس و شبانکاره بدر هرموز روند و تدارك ملوك قیس کنند و ملك شمس الدین در سنه ثلاثه و ثلاثین و سبعمایه با لشکری بدر هرموز آمد امیر شرف الدین محمود شاه انجو که ملازم چوپان بود عرضه داشت کرد که ایشان یاغی بودند و ایلچیان که بطلب ایشان میرفتند موقوف میداشتند و حکم نمیشنودند و با ملك غدر کردند پیش دستی نمودند او نیز دفع شر ایشان از خاندان قدیم خود کرد فرمان حاصل شد که لشکر از در هرموز بر خیزند ملك شمس الدین باز اردو رفت و هم در آن سال وفات کرد و ملك زاده نظام الدین احمد که از دختر ملك شبانکاره بود تحمل نداشت و بهندوستان رفت والتجا بملك دهلی سلطان محمد جونه بکرد و دو سال آنجا بود بامید آنکه سلطان قیس‌را بستاند و باو باز دهد و از قضا پایمال اجل گشت

و این حسرت بخاک برد و چون قطب الدین تهمتن‌را دولت مساعدت نموه و شوکت وصولت از یکی هزار شد و قیس و بحرین همچنان داخل مملکت او است و در این عهد که شهور سنه ثلاثه و اربعین و سبعمایه است ترک شراب داده بطاعت مشغول گشت و هرموزرا معمور داشت و دست بانعام و احسان و اکرام برگشاد و درگاه قبلهٔ ارباب حاجات است خدا تعالی اوزا و مارا بتوفیق خیر و عدل کرامت کناد بمنّه و فضله ۞

II

Fihrist du *Majma'u-'l-Ansāb*, ms. Sulṭān al-Qurā'ī, Téhéran, et B. N., Paris.

ذکر ملوک هرموز اصل این ملوک هم از ساحل بحر عمان و زمین و نواحی کرمانست و جد بزرک ایشان مرد بوده از میان کرج [1] نام او درمکوه و مفصل اسامی آن ملوک قدیم العهد بوده‌اند در این فهرست نیامد اما مفصل احوال ایشان بدبست من است [2] و چون حکومت به ملک شهاب الدین محمود عیسی رسید که فرزند ملک سیف الدین با نضر [sic] بود ملکی بغایت بزرگوار بوده و نکو سیرت بوده زن او قصد او کرد و العهده علی الراوی و چون اورا بزهر از میان برداشت زن ملک محمود قلاتی شد و او هم از ملوک هرموز بود از خویشان با نضر [3] و هذا مفصل اسامیهم ذکر ملوک قدیم ملک درمکوه ملک کیقباد بن درمکوه ملک لشکری ملک کیقباد بن لشکری ملک سلیمان ملک شهاب الدین مغلبک [4] [sic] ملک سیف الدین با نضر [3] ملک شهاب الدین محمود عیسی ذکر ملوک جدید هرموز

[1] P [= Suppl. pers. 1278] کرج : S [= ms. Sulṭān al-Qurā'ī] کورخ — [2] S بدبست : P من انسخ — [3] P بانضر ; S با نصر — [4] P ajoute بن.

و این امیر محمود قلاتی امیر مملکت قلاتو بودی[1] در پی مملکت هرموز
بودی تا وقتی که این تمنی میسر شد ملک رکن الدین محمود قلاتی
ملک قطب الدین تهمتن[2] بن محمود ملک سیف الدین نصرت[3] بن
محمود ملک بها الدین ایاز مملوک سیف الدین نصرة ملک عز الدین کردانشاه
بن محمود عیسی امیر شهاب الدین یوسف امیر شهاب الدین بهرامشاه
[بن] کردانشاه ملک قطب الدین تهمتن بن کردانشاه ۞

[1] P ajoute ici: و قلاتورا از زمین بریه عرب نهند و از جزایر خالدات و او مدنی برد — [2] تهمتن : P تهمن ; S بهمن — [3] نصرت : P نصز ; S نظر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة الثانية ـ فارسية

(تاريخها ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م)

اقليم كرمان ومدنه

(ص ١٢٣ ـ ١٢٥)

مخطوط حدود العالم من المشرق إلى المغرب

مجهول المؤلف

نقله إلى الإنكليزية

أ. مينورسكي

ترجمة

إبراهيم خوري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كـــرمـــان

الفقـــرة ٢٨

يحدّ السند اقليم كرمان شرقاً، و«البحر الأعظم» جنوباً، واقليم فارس غرباً، ومفازة سجستان شمالاً. وتقع أرجاء هذا الأقليم القريبة من اليمّ في المنطقة الحارة (جروم)، وسكانها سمر، وفيها يقيم التجار، وتنتشر القفار. ومحاصيلها المحلية الكمون والتمور والنيل وقصب السكر والفانيد. وغذاء أهلها خبز الذرة البيضاء. أما نواحيه البعيدة عن البحر (الصرود) والقريبة من صحراء سجستان، فداخلة في المنطقة الباردة، ومزدهرة ولطيفة جداً، ويتمتّع أهلها بصحة جيدة، وفيها جبال كثيرة تحتوي على مناجم ذهب وفضة ونحاس ورصاص وحجر مغنطيس.

١ ـ السيرجان: مصر كرمان، ومقرّ السلطان (الباديشاه). وهي مدينة كبيرة ومصيف التجار. ومياهها من القنى الباطنية. وتشرب قراها من الآبار. والأشجار فيها قليلة، وأبنيتها آزاج.

٢ ـ بافت وخبر[١]: قريتان مزدهرتان ونزهتان.

٣ ـ جيرفت: مدينة بعداها نصف فرسخ بنصف فرسخ. وهي مزدهرة جداً، وطيبة الهواء. ويخترقها نهر شديد الجرية. وله جَلَبَةٌ[٢] غزير المياه، يدير ستين رحى، ويعثر في أقنيته على رمل فيه ذهب.

٤ ـ الميـزان[٣]: موضع على سفح أحد الجبال، تحمل منه عامة الفواكه والحطب والثلج إلى جيرفت.

---

(١) أحسن التقاسيم، ص ٤٦٨ س ١: ناجت وخير. صورة الأرض: ص ٢٦٨: باخنة وجبر.
(٢) نهر هرى روذ.
(٣) ميزهان عند برتولد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ ـ مغون، ورشجرد، كومين[١]، بهروجان، المنوجان: قرى كبيرة وصغيرة، تنتج النيل والكمون وقصب السكر والفانيد. وغذاء سكانها الذرة البيضاء (الجاورش)، ولديهم فيض من التمور، ولهم سنّة لا يرفعون من تمورهم ما تسقطه الريح، ويأخذه الضعفاء والمساكين.

٦ ـ البلوص: قوم ينزلون في الصحراء بين القرى السابقة وبين جبال القفص. حرفتهم قطع الطرق. وهم أصحاب نعم وشجعان، ومتعطشون لسفك الدماء. وكان عددهم كبيراً جداً، إلا أن البويهي فنا خسرو قضى عليهم بحيل متنوعة.

٧ ـ القفص: سكان جبال، نازلون في جبال القفص. وهم سبعة أجيال، لكل جيل رئيس منهم. وهم أيضاً قطاع طرق محترفون وزرّاع، وجبال القفص جبال بينها وبين إقليم مكران مفازه. وبين جيرفت والمنوجان شريط جبلي مزدهر جداً ونزَه يسمى قوهستان أبي غانم، تقع غربيه قرية روذبار، وغابات وأشجار ومروج.

٨ ـ هرموز: تبعد هرموز نصف فرسخ عن البحر الأعظم، وهذا الموضع الحار جداً متجر اقليم كرمان.

٩ ـ سوروا: قرية على ساحل البحر فيها صيادو السمك.

١٠ ـ السورقان، مرزقان، كسبان، رايين، خبروقان: مدن فيها العديد من الآبار التي تشرب منها وتسقي زروعها. وتكثر فيها اللباقات، ومناخها لطيف.

١١ ـ كاهون، خشناباذ: مدينتان صغيرتان على طريق فارس.

١٢ ـ كفتر، وهج: مدينتان على جبل بازجان، يحمل منه إليهما ما ينتجه.

١٣ ـ ده جوز، دارجين: مدينتان بين بمّ وجيرفت، مزدهرتان جداً، ومن دارجين تأتي القرفة.

١٤ ـ خواش، ريقان: قريتان واقعتان بين المفازة وبين السند وكرمان.

١٥ ـ شامات، بهار، خنّاب، غبيرا، كوغون، رايين، سروستان، دارجين: مدن بين السيرجان وبمّ، داخلة في الصرود، مناخها جيد ومزدهرة، ونزهة جداً. فيها مياه جارية وكثافة سكان.

---

(١) صورة الأرض: ص ٢٧٣، س ١٧ : كوميز وابهرزنكان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٦ ـ بـسـمّ: مدينة مناخها صحي. وفي وسطها قلعة منيعة. وهي أكبر من جيرفت. وفيها ثلاثة مساجد جوامع: هي مسجد الخوارج، ومسجد جامع لأهل الجماعة، ومسجد جامع في القلعة. تعمل بها ثياب من قطنهم فاخرة، وعمائم وحجب نسائية. ولديهم تمور.

١٧ ـ نرماســير: مدينة غنية، مزدهرة ونزهة. فيها تجار.

١٨ ـ بـاهـر: تقع على طرف اقليم كرمان، على المفازة. ويمرّ بها المسافرون إلى سجستان.

١٩ ـ ســبه: مدينة في المفازة، بين باهر وسجستان. وهي من عمل كرمان.

٢٠ ـ فردير، ماهان، خبيص: مدن نزهة جداً، مناخها صحي، يقع بعضها في الجبال وبعضها في البادية.

٢١ ـ بردسير، خيزروذ: قريتان على طريق هراة وقوهستان، طبيعتهما جيدة، لكن سكانهما قلائل.

٢٢ ـ كوت ميزان، كوت ردجان، أنار: قرى نزهة جداً على طريق فارس إلى روذهان.

٢٣ ـ ويقع بين السيرجان وبين بردسير شريط جبلي غني جداً ونزه، فيه ٢٦٠ قرية مزدهرة ونزهة وكثيفة السكان.

وعلى وجه العموم، لا يعثر في اقليم كرمان على نهر عريض يصلح للملاحة. ويعيش في جباله شعب صحته جيدة وأعمار أبنائه طويلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة الثالثة ـ صينية

(تاريخها ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م)

ينغ ـ هاي ـ شنغ ـ لو
أو
الكامل في وصف سواحل المحيط

تأليف

مــاهـــوان

نقله عن المخطوطة الصينية وحققه

فنغ ـ شنغ ـ شون

كتب مقدمته وحواشيه وملحقاته

ج. ف. ج. ميلــز

بلاد شو ـ لو ـ مو ـ سو (هرمز)

(ص ١٦٥ ـ ١٧٢)

ترجمة

إبراهيم خوري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بـــلاد هـــرمـــز

إذا انطلقت السفينة من بلاد كولي (كاليكوت)، واتجهت إلى الشمال الغربي، تصل إلى بلاد هرمز بعد سفر خمسة وعشرين يوماً بريح مولمة. وتقع عاصمة هذه البلاد قرب البحر وعلى سفح الجبال.

وتأتي إلى هرمز سفن من جميع البلدان. ويجيء إليها تجار غرباء يسافرون في البر، ويذهبون جميعاً إلى السوق، ويشتركون في البيع والشراء. لذلك أهل هذه البلاد أثرياء.

ويدين سلطان هرمز وأهلها بالإسلام. وهم وقورون ودقيقون وراسخو الإيمان. يصلّون خمس مرات في اليوم، ويتوضؤون ويصومون. وتقاليدهم طاهرة وشريفة. وليس لديهم أسر فقيرة. وإذا افتقرت أسرة من أسرهم وهبوا لها الثياب والغذاء والمال. وأقالوا عثارها. وأوصالهم ووجوهم نقية ووسيمة، وبنيتهم قوية، وشكلهم جميل، وثيابهم وملابس رؤوسهم حسنة ومتميزة وأنيقة. ويطبقون مبادىء الإسلام في زواجهم ودفن موتاهم.

وإذا أراد رجل منهم أن يعقد زواجاً على امرأة، أرسل وسيطاً يحدد بنود الاتفاق بين الطرفين. ثم تقيم أسرة العريس حفلة تدعو إليها الشيخ ـ ينفذ الشيخ أصول الشرع في الزواج ـ والمهتمين بالزفاف والوسيط الأقارب المسنين. وتخبر الأسرتان بعضهما بعضاً عن أصلهما ونسبهما لثلاثة أجيال. ومتى أنجز توقيع وثائق الزواج، يحدد يوم تنفيذ العقد. فإذا لم ينفذ، اعتبرت السلطة النكول عنه زنى، واقتصّت من المذنب.

وإذا توفي رجل منهم، ألبسوه ثوباً أبيض، ثم أخذوا إبريقاً مليئاً بالماء النظيف، وغسلوا جثمانه من الرأس إلى القدمين مرتين أو ثلاث مرات. وبعد تطهيره، يملؤون فمه وأنفه بالمسك والكافور. ثم يكفّنونه ويضعونه على محمل ويدفنونه.

ويبنى القبر من مداميك حجارة، ويفرش في أسفله خمسة أو ستة تسونات (ستة

إنشات تقريباً) من الرمل النظيف. وينزلون الجثمان وحده فيه. ثم يسقفونه بالحجارة ويردمون تراباً فوقه.

ويستخدم أهل هرمز السمن في غذائهم ويخلطونه، ويطبخونه مع طعامهم، ويبيعون في الأسواق لحم الغنم مشوياً وغيره من اللحوم، وفراريج مشوية، وفطاير، وهرايس، وجميع مآكل الحبوب. ولا تطبخ بعض الأسر القليلة العدد، المؤلفة من شخصين أو ثلاثة، بل تشتري طعامها من السوق.

ويسكّ ملكها عملة فضية، تسمى ديناراً، قطرها ستة فنات (سبع إنش) وعلى ظهرها كتابة، ووزنها أربعة فنات (٠,٠٤٧٩ أونسة). وتداولها عام.

ويكتبون خطوطهم بالأحرف العربية.

وتضمّ أسواقهم جميع أنواع المخازن، وفيها جميع أصناف السلع. لكن ليس لديهم خمارات، لأن من يشرب الخمرة يقضي القانون بإعدامه.

ويتفوّق فيها الموظفون المدنيون والعسكريون والأطباء والمنجمون على أمثالهم في البلدان، وفيها خبراء في جميع الفنون والمهن.

ولا شيء غير مألوف في شعوذاتهم وبهلوانياتهم، سوى تسلق الماعز عموداً خشبياً. فهذا العرض طريف إلى أقصى حدّ. ويستعملون فيه عموداً يبلغ طوله حوالي شنغ واحد (١٠ أقدام وإنشان). ولا يتسع رأس العمود إلا لوضع أظلاف الماعز الأربعة. ويركزون العمود في الأرض، ويثبتونه. ثم يقود رجل جدياً أبيض. ويصفق بيديه، وينشد أغنية رتيبة. فيثب الجدي على دق الطبل، ويقترب من العمود.

وبعد ذلك، يضع الجدي قائمتيه الأماميتين على العمود، ثم يقفز بسرعة، ويضع قائمتيه الخلفيتين عليه. عندئذٍ، يتناول الرجل عموداً آخر، ويميله قدّام قوائم الجدي، فينقل الجدي قائمتيه الأماميتين، ويضعهما على رأس العمود المائل، ويرفع قائمتيه الخلفيتين بعجلة ويثبت الرجل هذا العمود الثاني. فيصبح الجدي واقفاً على أعلى العمودين، ويعرض وضعات، ويقوم بحركات رقص. ويتناول الرجل عموداً ثالثاً. ويضيف خمسة أو ستة أطوال متتالية حتى الأعلى. فيزيد الارتفاع حوالي شنغ واحد (أي يصبح تقريباً ٢٠ قدماً). ومتى انتهى الجدي من الرقص، يقف على العمود الأوسط الذي يدفعه الرجل، ويتلقى الجدي بين يديه.

ثم يأمر الجدي أن ينبطح على الأرض، ويتظاهر بالموت، فيفعل. ويأمره أن يمدّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قائمتيه الأماميتين، فيمدّهما. ثم قائمتيه الخلفيتين، فيطيع أيضاً.

عندئذٍ، يأتي رجل يجرّ وراءه حماره الأسود العريض، الذي يبلغ علوه حوالي ثلاثة شيحات (٣٦,٧ إنش). ويعرض ألعاباً بارعة بطرق شتى. ثم يطلب من أحد الحضور أن يأخذ منديلاً ويطويه عدة مرات، ويعصب به بشدة عيني حماره. ويطلب من رجل آخر أن يضرب الحمار خلسة على رأسه ويختبيء بين المشاهدين. بعد ذلك، ينزع الرجل العصابة عن عيني الحمار ويطلب منه أن يفتش عن الشخص الذي ضربه على رأسه. فمهما كان عدد الجمهور كبيراً، يذهب الحمار رأساً إلى الرجل الذي ضربه، ويشير إليه. فهذه اللعبة من أعجب الأمور.

وينطوي مناخ هرمز على فصل بارد وفصل حار. وتتفتح الزهور في الربيع. وتتساقط الأوراق في الخريف. ويحصل صقيع عندهم لكن لا تثلج. ومطرهم نادر، لكن نداهم غزير.

وعندهم جبل واحد كبير. تؤخذ من سفوحه الأربعة أربعة مواد. فمن أحد السفوح، يستخرج ملح يشبه ملح البحر. لونه أحمر. ويقتلع أهل هرمز قطع الملح بمجرفة حديد مثلما تقتلع الحجارة. ويزن بعضها ٣٠ أو ٤٠ شين (٣٠ شين = ٣٩,٤ ليبرة). ولا رطوبة في هذا الملح ويطحن مسحوقاً قبل استهلاكه. ويؤخذ من السفح الثاني تراب أحمر لونه كلون الزنجفر. ويعطي السفح الثالث تراباً أبيض كالكلس تطرش به الجدران. وفي السفح الرابع تراب أصفر يشبه لونه نبات الكركم.

في جميع الأحوال، يشرف مسؤولون على مقالع ذلك الجبل. ويأتي التجار من جميع الأقطار لشراء هذه المواد وبيعها.

ومن محاصيل أرضهم الرز والقمح لكن بمقادير ضئيلة. ويشريان أيضاً من أماكن متفرقة، وينقلان إلى هرمز حيث يباعان بأسعار زهيدة إلى أقصى حد.

وعندهم من الثمار والخضار: الجوز واللوز والصنوبر والرمان والأعناب والدراق المجفف، والتفاح والتمور والبطيخ الأخضر والخيار والبصل والكراث والقفلوط والثوم والبطيخ الأصفر وغيرها. ويكثر عندهم الجزر الأحمر، ويبلغ حجمه حجم جذور النيلوفر. والبطيخ الأصفر كبير جداً، وعلو بعضه ٢ شيح (٢٤,٤ إنش). وقلب جوزهم أبيض، وقشره رقيق يكسر باليد. وطول حبة الصنوبر حوالي تسون واحد (١,٢ إنش).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأعنابهم ثلاثة أو أربعة أصناف، يشبه أحدها التمر الجاف، ولونه أرجواني. والصنف الثاني بحجم بزرة النيلوفر، لا بزرة فيه ويجفف. والصنف الثالث بحجم حبة الفاصولياء البيضاء ولونه أبيض. ويشبه لوزهم الجوز، وهو مروّس وطويل وأبيض، وللبّه نكهة ألذّ من نكهة الجوز. وحجم رمانهم بحجم كأس شرب الشاي. وحجم تفاحهم بحجم قبضة اليد، وهو لذيذ وله أرج.

والتمور الفارسية عندهم على ثلاثة أصناف أيضاً. يسمى النوع الأول الدشب، وحبته بحجم الإبهام وعجوته صغيرة. ويربى مثل سكر النبات. وحلاوته عالية جداً، فلا يستساغ أكله. ويهرس النوع الثاني، ويحوّل إلى ٢٠ أو ٣٠ قطعة كبيرة. وله طعم مثل طعم البرسيمون المجفف الجيد والتمر الممتاز. ويشبه النوع الثالث العنّاب. إلا أنه أكبر منه، ومذاقه حامض، ويقدم علفاً للحيوانات.

وتجلب إلى هرمز جميع السلع النفيسة من جميع الجهات.

ولدهيم يواقيت زرقاء وحمراء وصفراء، والذراح والزمرد وجواهر «عيون القط» والماس واللؤلؤ الكبير بقدر حبة الأيدع، ووزنه شين واحد وفنان أو ثلاثة (٦٩ قمحة) والمرجان ـ عقود وأغصان وجذوع ـ والعنبر الأصفر وحب العنبر وخرز المسابح، والعنبر المائع والعنبر الأسود (الأصهب) وأواني اليشب والكريستال، وعشرة أصناف من قطع المخامل المطرزة والمزهرة (طول زئبرها فن أو فنان، طولها شنغهان، والعرض شنغ واحد: (١ فن = ١,٠ إنش، ١٠ شنغ = عشرة أقدام وإنشان). ونسيج صوف من جميع الأصناف، والسحل، واللباد، والكريب، والكريب المزأبر، والشاش المزأبر، وجميع أنواع المناديل الأجنبية المطرزة بالحرير الأزرق والأحمر وغيرها. وتباع كل هذه السلع في هرمز. وعندهم كثير من الإبل والخيول والبغال والثيران والماعز.

وماعزهم أو غنمهم أربعة أجناس. الجنس الأول ضخم الألية، ويزن الحيوان الواحد منه ٧٠ ـ ٩٠ شين (٩٢ ليبرة). ويزيد عرض اليته عن شيح واحد (١٢,٢ إنش)، وتنجر على الأرض، وتزن أكثر من ٢٠ شين (٢٦,٣ ليبرة) وللجنس الثاني ذنب كذنب الكلب، ويشبه ماعز الجبل، ويزيد طول اليته عن شيحين (٢٤,٤ إنش) والنوع الثالث العنز الناطح، علّوه شيحان و ٧ أو ٨ تسون (٣٣ إنش). وشعره طويل وينجر على الأرض في مقدمته، وهو نظيف في مؤخرته. ويشبه الغنم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برأسه ووجهه وعنقه وجبهته. وتنعكف قرونه وتستدير نحو جبهته. ويعلق بها جرس حديد صغير يسمع صوته عند مشي الحيوان. ويبتهج هذا الجنس بطبيعته عندما يناطح. ويربيه هواة النوادر في بيوتهم ليناطح ماعز غيرهم ويراهنون عليه بالمال.

ويعيش في بلاد هرمز نوع من الحيوان يسمى الوشق. وحجمه بحجم القط الكبير. وجسمه مرقط تماماً كذيل السلحفاة والذراح. وأذناه مروستان وسوداوان. وهو وحشي لكنه لا يؤذي. وإذا رأته الأسود أو الفهود أو غيرها من الوحوش سجدت أمامه على الأرض لأنه ملك الحيوانات.

وأخذ سلطان هرمز مركباً أيضاً، وحمّله أسوداً وزرائف وخيولاً، ولآلىء وحجارة كريمة وغيرها. وذكرى لعرش الصين مكتوبة على ورق من ذهب. وأرسل رسله الذين صحبوا مراكب الكنوز التي بعث بها الامبراطور، وكانت عائدة إلى الصين من المحيط الغربي. وذهبوا إلى عاصمة الصين وقدموا هداياهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة الرابعة ـ برتغالية

كتاب دوارته بربوسه
وهو
وصف البلدان المطلة على بحر الهند
والتعريف بسكانها

حرّره دوارته بربوسه، وأنجزه حوالي سنة ١٥١٨م (٩٢٤هـ)

ونشرته باللغة البرتغالية لأول مرة سنة ١٨٢٢م (١٢٢٧هـ) الأكاديمية الملكية للعلوم في لشبونة في المجلد الثاني من سلسلة وثائقها المتعلقة بتاريخ أمم ما وراء البحار وجغرافيتها

ونقله إلى الإنكليزية وعلّق عليه منسل لونغورث ديمس

المجلد الأول

يتضمن سواحل افريقية الشرقية وجزيرة العرب
وفارس والهند الغربية حتى مملكة فيجايانغار

سلطنة هرمز

ص ٦٧ ـ ٨٧ و ص ٩٠ ـ ١٠٥

ترجمة

إبراهيم خوري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سـلطنة هـرمـز

الفقـرة ٣٩ ـ صور

بعد صور، يتوالى العديد من القرى المسلمة الصغيرة على طول ساحل بحر الهند في جزيرة العرب. ويقطن في الداخل، خلف الساحل العديد من القبائل العربية. ويستمر وضع الساحل والداخل البشري على هذه الحال حتى رأس الحد، الذي تبدأ عنده مملكة هرمز وسلطنتها. وهنا تقوم قلعة لسلطان هرمز. وتسمى قلعة صور. وينعطف الشاطىء بعدها، ويأخذ بالاتجاه نحو موقع جزيرة هرمز.

الفقـرة ٤٠ ـ سلطنة هرمز في جزيرة العرب

وتكثر القرى والحصون التابعة لسلطان هرمز[١] على الساحل العربي، وتدوم حتى مدخل الخليج. ويسيطر هذا السلطان على العديد من المعاقل والمدن، وعلى الكثير من الجزر التي تقع في الخليج المذكور، على مقربة من الجانب العربي، ويتوطّنها مسلمون من علية القوم. ويعين فيها ولاة وجباة تجبي له الضرائب. وتتعاقب تلك المدن على الوجه التالي.

أولاً، **قلهات**. وهي مدينة مسلمة كبيرة، دورها رائعة وحسنة البناء، ويقيم فيها العديد من أصحاب الحوانيت وتجار الجملة وغيرهم من الأثرياء.

تليها، بعد تجاوزها، مدينة أخرى تسمى طيبي. وهي ليست كبيرة جداً. لكن لديها مياه وافرة تقصدها السفن الجارية في تلك البحار لتستعذب منها.

ثم مدينة أخرى على الساحل، ليست بعيدة جداً، تدعى القريات، يعمرها أناس

(١) كانت السلطنة المسماة سلطنة هرمز إمارة عربية، مرتبطة في تلك الحقبة، بمملكة فارس الصفوية الحديثة العهد. وكانت تمتد على ساحل جزيرة العرب من حدود حضر موت إلى عُمان، فمضيق هرمز، فجنوبي الخليج (حاشية المترجم ديمس). (ارتباط هرمز بالصفويين غير دقيق ـ ابراهيم خوري).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثرياء يروّجون لسلع تجارتها مزدهرة. وهنا في أماكن قريبة منها، تكثر الأغذية والخيول الممتازة جداً، التي تربى فيها، ويأتي مسلمو جزيرة هرمز لشرائها وأخذها لأنفسهم أو لتصديرها إلى الهند.

ومتى تجاوز المرء مدينة القريات، يصل إلى مدينة أخرى يسمونها «أيتم»[1]، فيها قلعة لسلطان هرمز.

وبعد هذه القلعة مباشرة، تقوم مدينة تدعى مسقط، يسكن فيها كثير من أصحاب المكانة الرفيعة، وتتميز بتجارتها العظيمة وبمصايد سمكها الواسعة إلى أقصى حدّ، التي يصاد منها سمك وافر وكبير يملّح ويجفّف. وتباع هذه الأسماك إلى بلدان عديدة.

وبعد المرور بمسقط، والاستمرار بالاتجاه نحو جزيرة هرمز، تصادف، على الساحل، مدينة أخرى، يقال لها صحار، تليها مدينة أخرى تسمى «التارسكة»[2]، فيها قلعة رائعة عائدة إلى سلطان هرمز، الذي يحتفظ بها ليتمكن من الانطلاق منها لقمع ثورة الأماكن الأخرى عليه.

ثم تأتي قلعة تدعى مايل[3] بعد قلعة التارسكة، وتليها قرية صغيرة تسمى خورفكان تحيط بها بساتين ومزارع كثيرة يمتلكها مسلمون من علية القوم، يتنزهون فيها، ويجنون ثمارها ومحاصيلها.

ومتى تجاوز المرء قرية خورفكان، يصل إلى قرية تدعى جلفار، يقطن فيها قوم أثرياء وبحارة ماهرون وتجار جملة. وقربها تقع مصايد سمك واسعة جداً، تكثر فيها مغاصات اللؤلؤ الصغير والكبير على حد سواء. ويأتي إليها مسلمو جزيرة هرمز لشراء اللؤلؤ وحمله إلى الهند وإلى بلدان عديدة أخرى. وتدرّ تجارة جلفار واردات هائلة على سلطان هرمز، الذي يجني دخلاً عظيماً من جميع المراكز البشرية الأخرى أيضاً.

وتتوزع قرى أخرى على طول الساحل وراء خورفكان، منها قرية رأس الخيمة التي تقع خلفها كلبا. وفي هذه الأخيرة أشاد سلطان هرمز قلعة لحماية ممتلكاته، لأن مسلمين كثراً شبيهين بالاعراب الخاضعين لحكم اسماعيل شاه يعيشون في أراضي ممتدة في الداخل وراء أراضيه، وينطلقون منها، فيغيرون على قراه، ويقاتلونها، ويخرجون عن طاعته.

---

(١) لم يتوصل الباحثون العرب ولا المستشرقون إلى تحديد مقابلها على ساحل عُمان.

(٢) الحاشية السابقة.

(٣) هكذا كتب إملاءها بعض المستشرقين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفقـرة ٤١ ـ سلطنة هرمز في فارس (كـرمـان)

ويمتلك سلطان هرمز نفسه قرى عديدة وأراضي عامرة، على طول ساحل فارس (يقصد كرمان). وسوف استعرضها هنا افرادياً، ثم أتحدث عن جزيرة هرمز، وعن المدينة القائمة فيها وعن السلطان وعاداته.

فعلى ساحل فارس المتجه نحو الهند، يسيطر سلطان هرمز على مدينة هامة تسمى بيام[١]، أهلها قوم جلّة. وهي مركز ولاته الذين يجمعون له منها واردات ضخمة. وتليها مدينة أخرى تقع على الساحل أيضاً، وتدعى ديفكسار[٢]، ثم مدينة أخرى تعرف باسم سكيون[٣].

وتعقبها، على الساحل أيضاً قرى صغيرة كثيرة، منها نابند، التي تحمل منها سفن صغيرة، تدعى طرادة، كميات كبيرة من الماء العذب وتنقلها إلى جزيرة هرمز لتزويد مدينتها بمياه الشرب، لأن هذه الجزيرة محرومة منها. كذلك، لا بدّ أن يحمل إلى هرمز من نابند ومن محال أخرى، شتى أنواع الأغذية واللحوم والثمار، وأن تعرض فيها بكميات وافرة. وتأتي بلدة غاندا بعدها. ومن هنا تتتابع محالّ كثيرة، يمتلكها سلطان هرمز أعني. . . (هنا تذكر ١٣ محلة تتوزع على ساحل جزيرة العرب من البحرين إلى شط العرب وعلى ساحل فارس من شط العرب إلى لنجا). وتنتشر بين هذه المحالّ قرى أخرى تجارتها نشيطة رغم صغرها. ولن أشرحها هنا لأني لم أحصل على أخبار موثوقة عنها. فاكتفي بالقول إنها جميعها عامرة وأهلها أثرياء، وإن تجاراً مليئين يقيمون بينهم.

ويمتلك سلطان هرمز قلاعاً كثيرة أيضاً، يستخدمها في الدفاع عن سلطنته من ناحية البر. وجميعها على الساحل الفارسي (يقصد الكرماني)، مزودة جيداً بمقادير كبيرة من اللحم والقمح والشعير وشتى الثمار والأعناب والتمور المعروفة في تلك الأماكن. وبشرة جميع الناس جميلة في تلك المحالّ رجالاً ونساءاً، وهم مهذبون، ويرتدون ثياباً طويلة قطنية وحريرية، وثياباً أخرى مصبوغة بالقرمز ومصنوعة من الوبر. وكل هذه الأراضي غنية جداً.

---

(١) النقاش طويل ومسهب حول هذه الأسماء والأسماء التالية، لا لزوم لذكره هنا الآن.

(٢) الحاشية السابقة.

(٣) الحاشية السابقة.

الفقـرة ٤٢ ـ جـزر مملكة (سلطنة) هرمز

تقع الجزيرة الحالية التي تقوم عليها مدينة هرمز بين ساحلي جزيرة العرب وفارس، عند مدخل الخليج. وتنتشر في هذا الخليج جزر كثيرة، يمتلكها سلطان هرمز، وتخضع لحكمه. وهي التالية:

أولاً، قشم. وهي جزيرة كبيرة خصبة، يؤخذ منها إلى هرمز الكثير من الفواكه الطازجة والأعشاب الطبية والعطرية. وتضم أرضها قرى كبيرة.

ثم جزيرة أخرى تدعى هندرابي، وأخرى بوشير، ولارك، وطمب وفرور. وتأتي بعد جزيرة فرور جزيرة كبرى تسمى البحرين، يقيم فيها تجار كثر وأناس أجلاء غيرهم. وموقع هذه الجزيرة جيد في وسط الخليج فتقصدها سفن عديدة حاملة إليها كميات كبيرة من السلع. ويعثر في المياه حولها على كثير من اللؤلؤ الصغير والكبير الممتاز أيضاً. ويعنى تجار البحرين أنفسهم بالغوص على هذه اللآلىء، ويجنون منه أرباحاً طائلة. ويأخذ سلطان هرمز من البحرين مقادير ضخمة من الواردات والضرائب. ويجيء إليها تجار هرمز لشراء اللآلىء الصغيرة والكبيرة، وينقلونها إلى الهند ويبيعونها هناك وتدرّ عليهم أرباحاً ضخمة. ويقصد هؤلاء التجار مملكة نارسنغا وأرجاء جزيرة العرب وفارس لشراء اللآلىء أيضاً. ويعثر على هذه اللآلىء وعلى الصغير منها في جميع أرجاء الخليج من البحرين إلى جانب هرمز الداخلي، إلا أنها تتوفر بكثرة في البحرين.

الفقـرة ٤٣ ـ ممتلكات اسماعيل شاه[١]

بعد مغادرة جزر البحرين في وسط الخليج والتوغّل قدماً، نلقى مدناً ومحالّ كثيرة، أهلها مسلمون أثرياء، وأراضيها خصبة وغنية. ولا يمتلكها سلطان هرمز الذي تنتهي سلطنته عندها. وهنالك سلطنات أخرى، لا أعرف شيئاً عنها، ولست واثقاً من أخبارها. وكل ما أعلمه انها تخضع لحكم اسماعيل شاه.

وهو شاب مسلم وصل منذ عهد قريب[٢] إلى هذا المنصب الرفيع، وأخضع لحكمه جانباً كبيراً من جزيرة العرب وفارس والعديد من الممالك والسلطنات

---

(١) مؤسس الدولة الصفوية، ملك من سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م إلى ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م، أي بعد وفاة أحمد بن ماجد بسنتين (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م).

(٢) تحرر كتاب دوارته بربوسه سنة ١٥١٨م/ ٩٢٤م، أي بعد ١٦ عاماً من بدء حكم اسماعيل شاه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمة. ولم يكن ملكاً، ولا سليل ملك، بل نجل شيخ يرتفع نسبه إلى علي بن أبي طالب. وكان طفلاً عندما توفى الله أباه، فأخذه راهب أرمنيّ ليربيه. فلما بلغ الثانية عشرة، هرب منه، مخافة أن يذبحه لأنه مسلم، وذهب إلى إحدى المدن الكبرى وأقام عند أحد علمائها، ونال حظوة كبيرة عنده، حتى إنه عمل منه فارساً، وولاه منصباً رفيعاً. ومنذ ذلك الحين، أخذ يكسب تأييد الشباب المسلم، ويجمع حوله كثيراً من الناس. وشرع رويداً رويداً بالاستيلاء على القرى، وتوزيع ما يجده فيها من خيرات وثروات على أتباعه في مجازفاته دون أن يبقي شيئاً لنفسه. ولما رأى أن أموره نجحت نجاحاً أولياً جيداً، قرر أن يتخذ شارة خاصة لحركته، فتبنى حياكة القبعات الحمر القرمزية، ووزعها على أفراد طائفته. وهكذا تجمع حوله عدد كبير من الأتباع، وبدأ يحتل المدن الكبيرة، ويخوض العديد من الحروب.

رغم ذلك، لم يشأ أن يسمي نفسه ملكاً، ولا أن يبقى في مملكة واحدة. وكان يوزّع غنائمه الحربية على الذين يساعدونه على الانتصار. وإذا وجد أناساً لا يستثمرون ثرواتهم، ولا يفيدون أحداً بها، انتزعها منهم، وفرقها على المستحقين في جيشه الذين يعرف أنهم بحاجة إليها. وكان يبقي لأصحاب الثروة الأصليين نصيباً يعادل ما يهبه لأحد جنوده. لذلك لقبه بعض المسلمين بـ«المساوي بين الناس». إلا أن اسمه الحقيقي اسماعيل شاه.

وكان من عادته أن يبعث بسفارات إلى جميع ملوك المسلمين، ويطلب منهم ارتداء شارته من القبعات الحمر. وإذا لم يرتدوها، أنذرهم بأنه سوف يلاحقهم، ويأخذ أراضيهم، ويضطرهم إلى الإيمان به.

وعلى هذا النحو، أرسل سفارة إلى السلطان الأعظم وإلى زعيم الأتراك. فتشاورا، وحمّلا سفراءه رداً مهيناً، ضمّناه عزمهما على الدفاع عن نفسيهما ومؤازرة بعضهما. فلما رأى اسماعيل شاه جوابهما، استعد للهجوم على الأتراك بجيش عرمرم من المشاة والخيالة. وتحرك سلطان الترك بدوره على رأس جيش ليس سيء التنظيم في جميع الأحوال. ونشبت بين الفريقين معركة طاحنة، انتصر فيها الأتراك بفضل مدفعيتهم القوية التي جلبوها معهم، وكان الصفويون يفتقرون لها ويقاتلون بقوة أذرعهم. وقتل في المعركة كثير من جيش اسماعيل شاه، فهرب. ولاحقه الجيش التركي، وأمعن في التقتيل بجنده إلى أن أعاده إلى فارس ورجع هو إلى تركيا. فكانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الهزيمة أول انكسار يمنى به اسماعيل شاه[1] الذي حزن حزناً شديداً وصمّم أن يعاود قتال الأتراك لكن مزوداً بالمدفعية وبقوة أعظم من القوة السابقة.

ويحكم اسماعيل شاه بابل وأرمينية وكل فارس وجانباً عظيماً من جزيرة العرب وقسماً من الهند وكمباية. وهو معتمد على السيطرة على بيت الله الحرام في مكة. وقد أرسل سفارة إلى نائب ملكنا[2]، وحمّلها شتى الهدايا، وعرض عليه التحالف والسلام. فاستقبلت سفارته بحفاوة بالغة، وردّ عليها بإرسال سفارة برتغالية وهدايا[3].

الفقـرة ٤٥ ـ مدينة هرمز العظيمة

إذا عبر المرء مضيق هرمز متوغلاً في الخليج، وجد قرب مدخله جزيرة صغيرة الحجم (جرون)، تقوم عليها مدينة هرمز التي لا تبدو كبيرة بقدر ما هي جميلة، بمنازلها الشامخة المبنية بالحجر والبلاط، المسطحة السقوف، والكثيرة النوافذ. ولتحاشي حرّ هذه الجزيرة الشديد، شيدت جميع بيوتها بطريقة تجعل الهواء يندفع عند اللزوم من طوابقها العليا إلى السفلى. وموقع هذه المدينة جيد جداً. وفيها شوارع وكثير من الساحات العامة. وينتصب بجوارها تلّ فيه ملح وبعض الكبريت. ويشكل الملح كتلاً تضاهي الصخور الكبيرة في تلال مجلودة. ويسمى هذا الملح، الملح الهندي، يؤخذ مباشرة عن وجه الأرض، عندما يكون ناصع البياض وناعماً.

وتشتري جميع السفن القادمة إلى هرمز هذا الملح لحفظ توازنها، لأنه سلعة ثمينة مطلوبة في أماكن عديدة. وتجار هذه المدينة عرب وفرس. ويتكلم الفرس اللغة العربية ولغة أخرى تسمى الفارسية. وهم طوال القامة بحسن وبهاء، وصحة وأناقة رجالاً ونساءاً. وهم شجعان ويعيشون في رخاء، ومسلمون يرفعون عالياً شأن الإسلام. لكنهم يتساهلون في عدة أمور، حتى إنهم يقتنون غلماناً لأغراض بغيضة. ويجيدون الموسيقى، ولديهم آلات عزف متنوعة. أما العرب، فبشرتهم داكنة وهم أقرب إلى السمرة.

ويقطن تجار أثرياء في مدينة هرمز الجديدة. وفيها كثير من المراكب الكبيرة جداً. ولها ميناء جيد جداً، يتاجر بشتى أنواع البضائع المحمولة إليه من جهات عديدة. ويقايضها بسلع كثيرة جداً من أرجاء الهند ويستورد تجارها التوابل بأنواعها

---

(١) إشارة إلى معركة جالديران في سهل أذربيجان سنة ١٥١٤م/ ٩٢٠هـ.

(٢) المقصود البوكيركه.

(٣) لم يحكم اسماعيل شاه سلطنة هرمز، بل كان يتقاضى منها أتاوة (مالية) تسمى المقرّر.

وأصنافاً أخرى، أي الفلفل، وكبش القرنفل، والزنجبيل، وحب الهيل، والألوة، والصندل، وخشب البرازيل، والإهليلج، والتمر الهندي، والزعفران، والنيلة، والشمع والحديد والسكر والأرز (بمقادير هائلة) وجوز الهند، وكميات وافرة من الحجارة الكريمة، والخزف واللبان. ويجنون أرباحاً طائلة من بيع جميع هذه السلع. وعندهم أيضاً كثير من أكسية كمباية وشول ودابول. ويجلبون من البنغال موسلين سنباقوس رفيعاً، وهو قطني رقيق جداً ومرغوب جداً عندهم لصنع العمائم والقمصان. ويحمل إليهم من عدن، النحاس والزئبق والزنجفر وماء الورد والثياب المطرزة والتفتة وقماش الوبر. ويأتيهم من ممتلكات اسماعيل شاه مقادير كثيرة من الحرير والمسك الجيد جداً وراوند بابل. وتزودهم البحرين وجلفار باللآلىء الصغيرة والكبيرة، ومدن جزيرة العرب بكثير من الخيول التي ينقلونها إلى الهند بأعداد كبيرة، تبلغ ألف حصان وألفين في بعض السنين، يباع الواحد بحوالي ثلاثة أو أربعة آلاف كروزيدوس، حسب الطلب عليها. وتوسق السفن، الناقلة الخيول، بكميات وافرة من التمور والزبيب والملح والكبريت، واللآلىء الصغيرة الخام المرغوبة عند مسلمي نارسنغا.

ويخرج مسلمو مدينة هرمز مرتدين جلابيب القطن الناصعة البياض، الرقيقة جداً والطويلة، وتحتها سراويل القطن. ويلبسون أيضاً ثياباً حريرية نفيسة وغيرها من الخملات المصبوغة بالقرمز. ويتمنطقون بالمآزر ويحملون فوقها خناجرهم المعقوفة المزينة بدقة بالذهب والفضة حسب منزلة الشخص. ويحملون أيضاً تروساً عريضة مستديرة ومغطاة بالحرير الناعم، ويمسكون بأيديهم أقواساً تركية ملونة بألوان رائعة (لها أوتار حرير) يرمون بها رميات بعيدة جداً. ويصنعون هذه الأقواس من خشب مصقول بالبرنيق ومن قرن الجاموس. ويحمل بعضهم فؤوساً صغيرة ودبابيس حديد لها أشكال متنوعة، مزخرفة بالرسوم الدمشقية المتموجة المنمنمة.

وأمثال هؤلاء الرجال أثرياء ومهذبون ولهم أناقة. ويولون لباسهم عناية فائقة وكذلك غذاؤهم الذي يبهّر جيداً جداً ويتوفر بكثرة ويشمل اللحم وخبز القمح والأرز الجيد جداً، والمحفوظات المتنوعة، والفواكه الطازجة، والتفاح والرمان والدراق وكميات كبيرة من المشمش والتين واللوز والعنب والبطيخ، والفجل، وخضار السلطة التي لها مثيل في اسبانية، وأنواع التمور والثمار غير المعروفة في اسبانية. وهم يشربون خمرة العنب سراً، لأن دينهم يحظر شربها. ويمزجون ماء شربهم بقليل من صمغ المصطكى، ويضعونه في مكان بارد، ويستعملون طرقاً عديدة لتبريده وحفظه بارداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويأخذ هؤلاء النبلاء والتجار الكبار معهم حيثما يذهبون، على الطرقات، وفي الأماكن العامة أو الشوارع، غلاماً يعمل في خدمتهم، ويحمل برميل ماء صغيراً (كيغ) أو قنينة ماء مزخرفة بالفضة، ويظهرونها في العرض والاستعراض وفي طريقة حياتهم المترفة. وتكره النساء هذه الفئة من الناس كرهاً عظيماً، لأن معظمهم يصطحب معه عبيداً من غلمان الخصيان ويضجع معهم.

ويمتلك هؤلاء المسلمون من أصحاب المناصب الرفيعة دوراً ريفية على البر الرئيس، يذهبون إليها بخاصة في فصل الصيف، ويلهون فيها.

ومدينة هرمز غنية إلى أقصى حد، ومزودة جيداً بشتى أصناف الطعام، إلا أن الحياة فيها غالية جداً، لأن كل شيء يأتيها من خارجها، أي من جزيرة العرب وفارس ومن أماكن أخرى توصل إليها جميع الحاجات بسرعة. ولا يمكن أخذ شيء من الجزيرة ذاتها (جرون) ما عدا الملح.

وحتى ماء الشرب يجلب إليها من خارجها، من الجزر الرئيسة ومن الجزر القريبة منها، نقلاً بسفن صغيرة يسمونها طرادات، كما قلت من قبل. وتكثر في ساحاتها العامة جميع الأغذية والحطب (يحمل إليها من الخارج أيضاً). وتباع جميع السلع موزونة بأسعار محددة بقواعد دقيقة. ويجازى بصرامة شديدة كل من لا يفي الميزان ويخالف الأسعار المفروضة والأوامر المعطاة بشأنها. ويبيعون اللحم مطبوخاً أو مسلوقاً أو مشوياً وبالوزن، وكذلك أصناف الطعام الأخرى. ويعدّ الطعام حسب الأصول وبنظافة، حتى إن أناساً كثيرين لا يطبخون في بيوتهم بل يشترون غذاءهم من البازار.

وفي مدينة هرمز يقيم سلطانها على الدوام وفي أحد القصور الكبيرة التي يمتلكها قرب البحر، والمقامة على أحد الرؤوس الطبيعية. ويحتفظ بكنوزه فيه. ويعين ولاته وجباة ضرائبه في مدن ساحل فارس ومدن ساحل جزيرة العرب وفي جزر الخليج العائدة لسلطنته، مثلما أشرت من قبل. وللسلطان في مدينة هرمز والٍ عام يحكمها ويحافظ على تطبيق القانون فيها. وهو أعلى من جميع ولاة السلطنة الآخرين، ويأمرهم.

ويحتفظ هذا الوالي العام بالسلطان على مقربة منه في القصر المذكور، ضمن حصن مخصص لهما. ولا يحكم السلطان من هذا الحصن، ولا يعرف شيئاً عن السلطنة، لكنه يخدم جيداً ويحرس جيداً. أما إذا أراد السلطان أن يتدخل في شؤون

الحكم والخزينة، أو رغب في الحصول على حريته، فإنه ينقل من الحصن، ويقضى على بصره، ويوضع في منزل خاص هو وزوجته وأنجاله، إن كان له أولاد، ويبتلى ببلية عظيمة، ولا يقدم له سوى الطعام. ثم يؤخذ شاب من الأسرة المالكة، مثل نجله أو شقيقه أو ابن أخيه أو أحق أنسبائه بالملك، ويوضع في الحصن والقصور المشار إليها سابقاً، ويصبح سلطان هرمز الجديد، لكي يتسنى للولاة أن ينظموا السلطنة ويحكموها باسمه بلا نزاع وبسلام تام. ومتى كبر باقي ورثة السلطان، وبلغوا سناً تخوّلهم تسلم زمام الأمور، يأخذ الوالي العام كل من تراوده نفسه منهم بالتدخل في شؤون السلطنة، ويقضي على بصره، ويضعه في منزل فاقدي الرؤية، الذي يحوي باستمرار ما يتراوح بين عشرة واثني عشر من السلاطين العميان. ويخشى كل سلطان وهو في السلطنة أن يلقى المصير ذاته. ويظلّ رجال مسلحون، مشاة وخيالة، يراقبون السلطان ويحرسونه، ويدفع لهم مرتبات ضخمة. ويذهبون إلى البلاط مدججين بالسلاح على الدوام. ويرسل بعضهم قيمين على مناطق السلطنة على البر الرئيس متى اقتضت الحاجة.

وتسكّ عملة ذهبية وفضية في مدينة هرمز. وتسمى العملة الذهبية الأشرفي. وهي مستديرة مثل عملتنا. وتسبك من الذهب الجيد جداً، وتنقش أحرف عربية على وجهيها، وتساوي حوالي ثلاثمائة رييس. ومعظم العملة الذهبية أنصاف أشرفي، يعادل النصف منها مائة وخمسين رييس. أما العملة الفضية، فمتطاولة مثل حبة الفاصولياء، وقد نقشت أحرف عربية على وجهيها، وتساوي القطعة الواحدة منها حوالي ثلاث فنتمات، ويسمونها تنغا، وفضتها نقية جداً. والعملتان الذهبية والفضية متوفرتان بكثرة في مدينة هرمز، حتى إن أصحاب السفن القادمة إليها محملة بالسلع، يستطيعون أن يقبضوا ثمن بضائعهم بهما، وأن يشتروا بهما الخيول وغيرها مما يريدون حمله معهم، وأن يأخذوا معهم ما يزيد من النقود إلى الهند لأنها متداولة فيها وقيمتها عالية هناك.

وذهب أسطول سيدنا الملك إلى مدينة هرمز، بقيادة آفونسو دالبوكيركه، الذي أراد أن يعقد معها صلحاً يتناول جميع الأمور، لكنها رفضت، لأنها رأت أن آفونسو دالبوكيركه بادر السلطنة بالحرب في بنادرها على وجه التخصيص، وألحق بها أضراراً فادحة. لذلك توجه دالبوكيركه على رأس الأسطول لاحتلال مدينة هرمز من الميناء، حيث خاض معركة طاحنة مع أسطول من المراكب الكبيرة جداً، المليئة بالجنود الشجعان الحسني التسليح. إلا أن آفونسو دالبوكيركه هزم أسطول هرمز، واستولى على العديد من سفنه وأغرقها، وأحرق مراكب أخرى كانت راسية قرب أسوار المدينة. ولما

شاهد سلطان هرمز وواليه العام القضاء على الشعب والسفن، وأدركا عجزهما عن الانتصار عليه، طلبا عقد صلح مع آفونسو دالبوكيركه، فقبل شريطة أن يسمح له ببناء قلعة في مكان معين من هرمز، فوافقا. إلا أن المسلمين ندموا عندما بدأ البناء، ورفضوا أن تستمر إشادة القلعة. عندئذٍ ألحق آفونسو دالبوكيركه أضراراً بالغة بالمدينة، وأمعن في تقتيل أعداد كبيرة من أهلها، إلى أن جعلها تابعة لسيده ملك البرتغال، وفرض عليها دفع ١٥٠٠ أشرفي سنوياً. وقد أدّتها دائماً.

وبعد مرور عدة أعوام، بعث سلطان هرمز وولاتها سفيراً وحاشية كبيرة إلى ملك البرتغال. وعاد آفونسو دالبوكيركه إلى هرمز على رأس أسطول هام جداً، ومعه جواب جلالته. فاستقبلوه استقبالاً سلمياً، ووافقوا على السماح له بإنجاز القلعة التي باشر العمل في أعلاء صرحها من قبل. فأمر أن تنهى، وتوسع كثيراً، وتجعل منيعة جداً، كما لو أن بناءها بدأ من جديد.

وفي ذلك الوقت، كان سلطان هرمز حدثاً[1]، يدرك مدى تحكم الوالي العام به ويخشى أن يقوم بعمل شخصي لتحرير نفسه. لكنه وجد وسيلة لإبلاغ القائد العسكري البرتغالي العام (أي آفونسو دالبوكيركه) أنه لا يتمتع إلا بحرية محدودة جداً، وأنه شبه سجين لدى والي مدينة هرمز العام، الذي انتزع منه حكم السلطنة قسراً، وكلّف به آخرين يتولونه. وأخبره أنه علم أن بعض الرسائل وجهت إلى اسماعيل شاه، تعرض عليه تسليم سلطنة هرمز له.

فلما اطّلع القائد العسكري العام البرتغالي على هذه الأخبار، أبقاها سرية، ورتّب لقاءاً بينه وبين سلطان هرمز، واتفق معه على أن يجتمعا بتاريخ معين في احدى الدور الواسعة القريبة من البحر. وفي الموعد المحدد، دخل آفونسو دالبوكيركه المنزل المتفّق عليه يرافقه عشرة أو اثنا عشر من ضباطه، بعد أن ترك وراءه رجاله مرتبين خارج الدار، وبعد أن نظّم كل شيء كما يجب، ثم أتى سلطان هرمز وواليه العام مع جمع غفير من الأتباع. وعندما دخل سلطان هرمز الدار، وقبل أن يدخله أي شخص آخر، أغلقت البوابات الخارجية فوراً. وبعد دخول الوالي العام وغيره، أمر آفونسو دالبوكيركه بقتله طعناً بالخناجر المعقوفة. فلما شاهد سلطان هرمز هذا العمل، غضب، إلا أن آفونسو قال له ألا يجزع، وأنه قصد بما أمر بفعله أن يجعله سلطاناً حراً مثل سائر سلاطين المسلمين. وانه لن يقبل أن يتعرض السلطان بعد الآن إلى تحكم أي

---

(١) المقصود السلطان سيف الدين وكان عمره ١٩ عاماً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان به. وسمع الرجال الباقون خارج المنزل الجلبة بداخله، فضجوا، وتجمع بعض أشقاء الوالي العام وأتباعه وأقربائه في حشد كبير. وكانوا مسلحين تسليحاً جيداً. عندئذٍ اضطر آفونسو دالبوكيركه أن يأخذ بيد السلطان ويصعدا معاً إلى سطح المنزل وهما مسلحان، علّ السلطان يستطيع أن يتحدث إليهم ويهدئهم. لكنه لم يتمكن من ذلك، لأنهم طلبوا أن يسلّم شقيقهم وسيدهم لهم. ثم اتجهوا إلى قصر السلطان وحصنه قائلين بأنهم سوف ينصبّون سلطاناً جديداً عليهم. وتحدّث إليهم آفونسو دالبوكيركه لتخفيف روعهم، ودام اتصاله بهم دون جدوى ردحاً من النهار. فحاول سلطان هرمز أن يخرجهم بالقوة من حصنه، فلم يفلح. في النهاية، أدرك مثيرو الصخب أن آفونسو دالبوكيركه صمّم أن يهاجمهم، فقبلوا التخلي عن الحصن، شريطة أن يغادروا هرمز والجزيرة (جرون) آنياً مع زوجاتهم وأبنائهم وممتلكاتهم، وأن يبعد جميع أقرباء الوالي المقتول أو أشقائه. وتمّ تنفيذ هذا الشرط فوراً. ثم رافق آفونسو دالبوكيركه سلطان هرمز إلى قصره وحصنه بأبهة كبيرة وظفر عظيم، وصحبه جمع حاشد من البرتغاليين ومن شعبه. وسلّمه آفونسو إلى والٍ جديد شغل هذا المنصب من قبل، واستقر السلطان في القصر والحصن ومدينة هرمز بحرية تامة، وطلب من الوالي أن يخدمه بكل احترام، ويتيح له الفرصة لكي يحكم سلطنته حسبما يشاء، ويقوم بتقديم النصح له كما هي الحال في الممالك المسلمة الأخرى. وهكذا أعاد آفونسو دالبوكيركه لسلطان هرمز حريته. ثم عيّن بيرو دالبوكيركه قائداً للقلعة البرتغالية في مدينة هرمز، وأفرز له العديد من الجنود البرتغاليين والسفن الحربية لحماية سلطان هرمز الذي امتنع عن اتخاذ أي إجراء دون استشارة قائد القلعة، وأصبح تابعاً لسيدنا ملك البرتغال هو وكل سلطنته.

ولما أدرك آفونسو دالبوكيركه أن جميع الأمور أصبحت خاضعة له وواقعة تحت إمرته، بادر إلى نشر تعميم يوجب التشهير باللواطيين وإبعادهم عن هرمز وعن الجزيرة (جرون)، حاملين أسهماً تخترق أنوفهم. وابتهج سلطان هرمز بهذا الإجراء.

كذلك أرسل دالبوكيركه من جاء بسلاطين هرمز العميان ـ وكان عددهم يتراوح بين الثلاثة عشر والأربعة عشر، وأبحر بهم على ظهر مركب كبير، ونقلهم إلى الهند، وأسكنهم في جوة سندابور. وأمر أن يطعموا على حسابه، ويبقوا فيها، لمنعهم من إحداث الفوضى في سلطنة هرمز وتمكينهم من العيش بسلام وهدوء.

انتهى نص وثيقة بربوسـه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة الخامسة ـ هولندية

وصف سواحل الخليج العربي وسكانه سنة ١٧٥٦

وثيقة لاهاي (دن هاغ)

ويلم م. فلـور[1]

ترجمة

إبراهيم خوري

(١) مجلة برسيكا، ١٩٧٩، ص ١٦٣ ـ ١٨٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عـرب سـواحـل الخليــج

في سنة ١٧٥٢م (١١٦٦هـ) اقترح جاكوب موسّيل، المدير العام لشركة الهند الشرقية الهولندية (فوك) التخلّي عن مؤسسة فوك في جميع أنحاء فارس. لكنه بعد مضي سنة واحدة، ساند مشروع خارك، الذي وضعه تيدو كنبيهاوزن. واعترضت صعوبات جمة جاءت من قبل سلطات مدينة البصرة فون كنبيهاوزن، عندما كان فيها مسؤولاً عن متجر فوك. ثم اضطر أن يغادر البصرة واتجه إلى باتافيا (جاكارتا). فطلب منه شاهبندر ريغ، مير ناصر وغائي، أن يؤسس متجراً في جزيرة خارك. وألحق بهذا الطلب طلباً خطياً لجاكوب موسّيل بالمعنى ذاته. وفي باتافيا، تمكن فون كنبيهاوزن أن يبرىء نفسه من الاتهامات التي وجهتها له سلطات البصرة، واستطاع أيضاً أن يقنع موسّيل بأن حيازة جزيرة خارك تقوّي مركز شركة فوك في الخليج العربي. وعارض بعض أعضاء المجلس الأعلى لشركة فوك في باتافيا مشروع جزيرة خارك، إلا أن موسّيل توصل إلى إقناع الأغلبية أن تقرّه. وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٧٥٣م (١١٦٧هـ)، نفذ فون كنبيهاوزن مشروع جزيرة خارك، الذي صدف أن مدراء فوك لم يصادقوا عليه، عندما وصل هو إلى خارك ومعه ثلاث سفن، ليؤسس أربح وآمن مركز في الخليج العربي.

وأجهل أنا سبب كتابة «وصف الخليج العربي»، إذ إنه لم يذكر في أي من المراسلات اللاحقة العائدة إلى هذه الحقبة. والواقع أن نسخة واحدة من التقرير قد حُرِّرت، وهي لا تحمل لا تاريخاً ولا اسم كاتبها. وقد حصل عليها قسم محفوظات الدولة الهولندية في مزاد علني سنة ١٨٨٩. بالتالي، لا يمكن أن يمثّل جزءاً من محفوظات شركة فوك التي ورثتها الدولة الهولندية سنة ١٧٩٥ عندما أفلست هذه الشركة. مع ذلك أمكن معرفة تاريخ «الوصف» ومؤلفيه، اعتماداً على قرائن ذاتية وردت فيه.

فالتقرير يشير فيما يشير إلى عدة أحداث تسوّغ تعيين تاريخ دقيق له. فأولاً، هو

يلمح إلى وجود عرض لفتح البحرين، ويبيّن ثانياً أن قضية إدارة بندر ريغ لم تسوّ بعد. وكتب عرض الفتح في أول شهر تشرين الثاني ١٧٥٤، وسوّيت قضية إدارة البندر في ٦ حزيران سنة ١٧٥٦ بقتل مير حسين على يد شقيقه مير مهنّى، الذي أصبح شاهبندر بندر ريغ: وهذا يعني أن التقرير كتب بين التاريخين السابقين. وورد في التقرير أن هجوم ملا علي شاه على لافت حصل في العام الماضي. ما دام هذا الحدث قد حصل في شهر أيار سنة ١٧٥٥، يتحتّم أن يكون التقرير قد حرّر سنة ١٧٥٦.

ويُرَجَّح أن التقرير كتب لتهدئة خواطر المجلس الأعلى بشأن نتائج اقتراح فتح البحرين. وسبق لكنبيهاوزن في شهر تشرين الثاني ١٧٥٤ أن طمأن جاكوب موسّيل بشأن أمن مؤسسة جزيرة خارك بإبرازه انه يعزّز علاقات الصداقة مع الحكام المحليين وشعبهم، وأن جميع حكام الخليج العربي مختلفون فيما بينهم. ولعلّ معارضة اقتراح البحرين الذي يدعمه موسّيل، أقنعت فون كنبيهاوزن بضرورة إعطاء المجلس الأعلى في باتافيا فكرة أكمل عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الخليج العربي، لأجل التغلب على رفضه له. وهذه الناحية واردة أيضاً في رسائل بعث بها فون كنبيهاوزن إلى مدراء فوك في هولندة، يطلب فيها منهم تأييدهم لمشروع البحرين. وقد حرّر إحدى هذه الرسائل جان فان در هولست، وكيل فون كنبيهاوزن، وأرسلها إلى جان كلكلوين، عمدة مدينة أمستردام ومدير فوك، وأشار فيها إلى أن فون كنبيهاوزن ينوي تقديم معلومات إضافية عن مشروع البحرين، يوضح فيها أن فتح هذه الجزيرة جذّاب إلى حد كبير. وقد يقوم فان در هولست برحلة إلى القطيف، ويعرّج في طريقه على البحرين، ليجمع تلك المعلومات. وما دامت معلومات اقتراح البحرين عن الوضع السياسي والعسكري في الخليج العربي، تقتصر على جملتين مختصرتين، وما دام التقرير لا يتحدث عن البحرين ذاتها، بل يحيل القارىء إلى اقتراح البحرين، فقد اقتنعت بصحة التحليل السابق. ودفعتني الوقائع المذكورة إلى الاستنتاج بأن تيد وفون كنبيهاوزن وجان فون در هولست حرّرا التقرير في النصف الأول من عام ١٧٥٦.

وصف سواحل الخليج العربي وسكانه

موّجه إلى:

صاحب السعادة والفضيلة، الماجد الآمر الواسع، السيد جاكوب موسّيل، قائد مشاة لوردات القيادة العليا، قائد ولايات هولنده المتحدة، وبالنيابة عنها، ومدير عام شركة الهند الشرقية المسجلة العامة، الحاكم العام للهند الهولندية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاحب السعادة، الآمر الواسع، الجزيل النبل والاحترام.

يعرف كل إنسان معرفة كافية أن شمالي الخليج خاضع لسلطة مملكة فارس، وأن العرب يتوطنون القسم الجنوبي منه. من ناحية ثانية، لم يتمتّع الفرس بأدنى المؤهلات أو الميول إلى الملاحة منذ العصور القديمة. لذلك نجد مستوطنات عربية قائمة في جميع الأماكن على الساحل الشمالي لهذا البحر. إما لملاءمة موقعها الطبيعي أو لوجود جدول أو نهر صغير يصب في اليمّ ويصلح لاستقبال السفن ويعيش هؤلاء العرب من الملاحة أو من صيد اللؤلؤ أو الأسماك. ويصرفون بعض دخلهم على أود حياتهم، وينفقون ما يفيض عن شراء حاجاتهم على مراكبهم، لأن الخشب نادر في الخليج العربي، وبالتالي غالي الثمن.

وكل ما يملكه العرب من الأسلحة هو سيف عريض النصل جيد وترس، يحسنون استعمالهما جيداً جداً وبمهارة، وبندقية فتيل يعرفون كيف يطلقونها بشيء من الدقة إلى مسافة قصيرة. وفيما عدا ذلك، فهم يتغذون بالتمر كالفقراء، والملح وخبز الشعير. كذلك مستوطناتهم ومنازلهم تعيسة. وهم يعتبرون أن الأرض الجافة والمجدبة التي يسكنون عليها لا تستحق بيوتاً أفضل. وهذا التصرف ليس سيئاً بالنسبة لهم، لأنهم لن يخسروا شيئاً على الساحل، ويستطيعون مغادرة مستوطناتهم متى أزعجهم النبلاء الفرس والموظفون بفرض حصة نسبية عليهم وغيرها من الضرائب. فينزلون إلى سفنهم تصحبهم زوجاتهم وأولادهم، ويذهبون إلى أقرب جزيرة إلى أن يفكروا أنهم يستطيعون أن يعيشوا بأمان في مستوطناتهم السابقة.

ويُعَدُّ نادرشاه[1] أول ملك فارسي يقدم على تأسيس أسطول، اشترى قِطَعَهُ بأموال باهظة من سرت[2] وبمباي، وجلبه له إلى بلاده بحارة هنود مسلمون. وأراد أن يستخدم فيها الملاحين العرب الذين يختلفون عن الفرس، وبخاصة في تقاليدهم وطبيعتهم وطائفتهم الدينية، ويشعرون بكره فطري حيالهم. لكنه فشل على الدوام، لأن البحارة العرب كانوا ينفذون الأوامر المعطاة لهم تنفيذاً رديئاً، أو لا يأخذون بها إطلاقاً، حتى إن الفوضى عمّت الأسطول في النهاية. وكان العرب يقتلون أمير البحر النبيل أو آمر البحرية، ويستولون على القطعة البحرية، ويذهبون بها إلى الساحل العربي

(١) كان نادرشاه جمّالاً، ثم دخل في خدمة حسين الصفوي. ولما سقطت أصفهان بيد الأفغان، ثار عليهم وبويع بالملك (١٦٨٨ ـ ١٧٤٧).

(٢) بندر في جوزرات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقابل. ورأى نادرشاه أن آماله قد خابت، وأنه لن يتمكن أبداً من جعل العرب يطيعونه طاعة تامة، ويخدمونه بإخلاص في البحر. فقرر تنفيذ مشروع، لا يجرؤ ملك آخر غيره، يحبّ جميع المآثر المستحيلة ظاهرياً، على تبنّيه، وهو نقل جميع العرب المقيمين على الساحل الفارسي، مع نسائهم وأطفالهم، إلى ساحل بحر قزوين، واستخدامهم هناك في الأسطول ضد الروس، ثم نقل السكان المقيمين على سواحل بحر قزوين إلى سواحل الخليج العربي، لأنهم كانوا يفضلون الروس على الفرس. إلا أن وفاة نادرشاه أحبطت هذا المخطط الذي يمكن أن يعتبر دليلاً على عظمة تفكيره.

ولا يحتمل أن يحكم فارس بعد نادرشاه ملك مثله في غضون القرون العديدة الآتية. كذلك الأمل ضعيف برؤية أسطول فارسي في الخليج العربي في مستقبل الأيام. أما السفن التي بناها نادرشاه بمبالغ طائلة، فلم يبق منها إلا قطعتان تعومان فوق الماء. إلا أنهما في حالة سيئة جداً، لا يمكن معها إصلاحهما البتة. وكانت إحداهما راسية في بندر ريغ، وهي من أفضل السفن التي ضمّها الأسطول الفارسي، لكنها غرقت العام الماضي، ولا سبيل لتعويمها وترميمها.

ونحن (يعني الهولنديين)، نعيش الآن هنا في جزيرة خارك، ونجد أنفسنا مضطرين إلى التعامل مع سكان الساحل في معظم الأحيان، والاختلاط بهم يومياً. لذلك رأيت أنه لا بدّ من جمع أدق المعلومات عنهم، وآمل أن أنجح في إعطاء فكرة كاملة عنهم.

يبدأ الخليج العربي من رأس الحد، على يسار ساحل الهند من الجهة المقابلة. ولكي نتحدث بشيء من الترتيب عنه، سوف نبدأ من الجانب الأيمن منه، ثم ندور مجاورين شواطىء البحر إلى أن نعود من جديد إلى رأس الحد حسب التسمية العربية.

وتعتبر غوادار أول مدينة بحرية في الخليج العربي على الساحل الشمالي. وسكانها طائفة من العرب يسمون البلوش[(١)]، يرأسهم الشيخ نور محمد، الذي يتبع «الأغانم»[(٢)]؟ في قلهات، ويدفع لهم أتاوة. وهذه الفئة من الناس كثيرة، وتمتلك سفناً كبيرة جداً، تبحر فيها إلى ساحل الهند حتى مقاطعة مليبار، ثم تعود إلى مسقط. وفي كل سنة، يدخل الخليج العربي عشر إلى اثنتي عشرة من سفنهم، تقصد جزيرة خارك أو البصرة محمّلة بالأرز والسلع الهندية الرديئة. وترجع موسوقة بالقمح والتمر.

---

(١) تستعمل هذه التسمية في أنحاء الخليج للدلالة على الذين تتكلم والدتهم اللغة البلوشية.

(٢) ما يزال الباحثون يتساءلون عن هذه القبيلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبلوش قوم مسالمون، يتمنطقون بالسيوف العريضة ويحتمون بالتروس ويشهرون الرماح. ولديهم قليل من بنادق الفتيل أو لا يعرفونها.

وينزل البلوش في شريط من الأرض يمتد حتى جَلَق، المسمى رأس جاسك على خارطاتنا (يقصد الخارطات الهولندية)، الذي يبدأ وراءه ساحل كرمان عند مدينة ميناب[1]. ويعيش سكانها من الزراعة، وليس من الملاحة (لأنهم لا يملكون إلا عدداً قليلاً من الزوارق المسطحة القعر). إضافة إلى ذلك هم حالياً (أي في عام ١٧٥٦) رعايا كرمان، فلا يجوز إدخالهم في عداد ملاّحي الخليج العربي. ونحن نغفل ذكر جمبرون أو بندر عباس وجزيرتي هرمز[2] ولارك، لأننا نعرف هذه الأماكن منذ سنين عديدة، ونعرف أيضاً جزيرة صري[3] التي يسكنها صيادون أقوياء البنية، وتشتهر بوجود ضريح رجل صالح مسلم فيها. . ويمتد ساحل فارس من جمبرون وجزيرة القشم إلى رأس بردستان. وتقطن جماعة من العرب، يطلق عليها اسم **الحولة العام**، في جميع الأماكن الصالحة لرسو السفن. وعدد هذه السفن القوية ٤٠٠ سفينة، منها الكبيرة ومنها الصغيرة. ويجري الواحد منها ١٠ إلى ٥٠ رجلاً. وتستطيع أن تنقل ٦٠٠٠ مقاتل، نصفهم مسلح ببنادق فتيل. وتحمل سفنهم الكبرى مدفعين إلى أربعة مدافع، وزن قذائفها باوندان إلى ثلاثة. ووزن قذائف المدافع الصغيرة باوند إلى نصف باوند من الحديد. وهؤلاء العرب شجعان ومقدامون، لا ينهزمون أمام عدد مماثل لهم من الأوربيين إذا كانوا مسلحين بالسيوف العريضة. إلا أنهم لا يستطيعون عمل شيء ضدنا (أي ضد الهولنديين) بالبنادق، لأنهم يحركونها ببطء شديد.

ولولا عيبان يضعفان العرب على وجه التخصيص، لأصبحوا أقوياء جداً في الخليج. العيب الأول خلافهم على من يحكمهم. والثاني فقر زعمائهم أو شيوخهم الذين لا يستطيعون أبداً أن يمدّوا أتباعهم بالغذاء والذخائر مدة طويلة. ويصعب عليهم دفع أنصارهم إلى العمل في البحر. وإذا نجحوا في ذلك، يتعذّر عليهم إبقاءهم معاً، لأنهم إذا احتاجوا إلى شيء ما، وهذا يحصل كثيراً، يتخلى كل واحد منهم عن شيخه، ويسعى لكسب أسباب عيشه من الصيد أو الغوص أو في تجارة الشحن.

---

(١) في الأصل: ساحل فارس، والصحيح ساحل كرمان. وميناب في كرمان على بعد ٥٠ ميلاً شرقي بندر عباس الحالي.

(٢) هرمز جزيرة تبعد ١١ ميلاً شرق جنوب شرق بندر عباس.

(٣) قرب جزيرة قيس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعدّ لنجة[1] (قرب بندر لنجة القديم الشهير المدمّر كلياً حالياً) أول مكان يسكنه الحولة بعد جمبرون، وقد احتلها البرتغاليون فترة من الزمن. وهي تقع خارج البقعة التي يشار إليها بالاسم العام «أرض الحولة» ويسمى سكان لنجة المرزوقيين. وهم يملكون ٥٠ سفينة كبيرة وصغيرة، وقوتهم مؤلفة من ٧٠٠ رجل، نصفهم مسلّح ببنادق فتيل. وهم فقراء، يعيشون من بيع الحطب والفحم المتوفرين بكثرة على مقربة منهم، في جميع أنحاء الخليج. ويسمى زعيمهم الحالي الشيخ سعيد. وهو صديق حميم لنا (أي الهولنديين).

وجزر فرور وطمب ونابي خالية من السكان، تمتلكها قبيلة المرزوقيين العربية التي تحتمي فيها في الأيام العصيبة.

وتوصل مجاراة الساحل من لنجة إلى جزيرة خارك، وتسكنها عشيرة من الحولة التي يتردد ذكرها بكثرة، ويسميها بعضهم العلي. ويسيطرون أيضاً على جزيرة خصبة ونزهة تقع بالجوار قرب الشاطيء، حيث ما تزال الأسوار الخارجية لإحدى القلاع البرتغالية القديمة قائمة. وتدعى هذه الجزيرة كيش على خارطاتنا (أي الخارطة الهولندية)، ويسميها العرب قيس وهي تمتلك ٦٠ سفينة كبيرة وصغيرة وقوة قوامها ٨٠٠ إلى ٦٠٠ رجل، نصفهم في الحد الأدنى مسلح ببنادق فتيل وسيوف عريضة. وتعد هذه العشيرة أشجع عشائر الحولة، وتكاد حروبها مع غيرها لا تنتهي، واسم زعيمها الشيخ شمره. وتربطنا بهم صداقة وثيقة جداً، وهم يزودوننا طيلة العام بالحطب المتوفر بكثرة في جزيرة خارك. ويكاد نقل الحطب يكون سبب رزقهم الوحيد. وتخضع لهذه العشيرة جماعة أخرى أضعفتها الحروب كثيراً جداً، لا تمتلك أكثر من ٢٠ سفينة، ويتراوح عدد رجالها حوالي ١٥٠ رجلاً، وهي تنزل قرب خارك في موغو[2] في جزيرة هندرابي، ويتزعمها شيخ يدعى الشيخ أحمد، إلا أنها تابعة كلياً إلى العشيرة السابق ذكرها.

ويلقى من يستمر في اتباع الساحل جزيرة نخيلوه، التي تمتلك جزيرة الشيخ شعيب، المسماة جزيرة أبي شعيب[3] على الخارطات، ثم جزيرة شتوار[4]. ويزيد

---

(١) لنجة بندر يبعد ٩٦ ميلاً عن بندر عباس من جهة الغرب.

(٢) قرية واقعة غربي لنجة على بعد ٢٣ ميلاً.

(٣) تبعد جزيرة شيخ شعيب أو أبو شعيب عشرة أميال عن نخيلو.

(٤) تبعد جزيرة شتوار ميلاً واحداً عن شيخ شعيب.

سكان نخيلوه على ألف من الرجال الأقوياء البنية، أكثر من نصفهم مسلح، وهي تمتلك ٦٠ سفينة، ويحكمها شيخان بآن واحد، هما محمد بن زيد ورحمة بن شاهين. ويعيش أهاليها من غوص اللؤلؤ بصورة رئيسية، وقد استخدمنا ٤٠ منهم في تجارة اللؤلؤ في جزيرة خارك على سبيل التجربة.

وتأتي نابند أو رأس نابند على الساحل بعد تلك الأماكن، وتضم عسلوه[١] المجاورة لها التي يسكنها الهرمس، الذين احتلوا جزيرة البحرين مدة من الزمن، وجلوا عنها مكرهين منذ ثلاثة أعوام، تحت ضغط الشيخ ناصر بوشير، بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة. لذلك ضعف الهرمس حتى قدّرت قوتهم بـ ٤٠ سفنية و ٣٣٠ مقاتل فقط. ويحكمها شيخان، هما عبد الرحمن ومحمد بن ماجد الذي قتله أحد الطاهريين غيلة. ويظن أن لمصرعه نتائج وخيمة على جزيرة البحرين، إذ يقال بأن شيخ صور[٢] سوف يثأر له.

وتقع الطاهري وشيلو على الساحل بعد عسلوه، ويسكنهما جماعة من الحولة، تسمى نصّور؟ الذين يملكون ٥٠ سفينة و ٩٠٠ مقاتل فقط، أكثر من نصفهم مسلح. ويسمى زعيمهم الشيخ حاتم، وهو أغنى جميع الحولة على الساحل، مما يعطيه بعض النفوذ. إلا أنه مكروه لكبريائه وغروره. وقد جنحت سفينة حربية فارسية هنا، فمكّنته من بناء جلبة، حبته قوة ونفوذاً، هي وأداء زعيم بوشير له ١٤٠٠٠ روبية سنوياً من واردات البحرين، حسب الاتفاق بينهما.

وهنا يصل المرء إلى كنجون، آخر مستوطنات الحولة. ويسمّون عرب نصّور أيضاً، مع أنهم مستقلون كلياً ولا علاقة لهم بعرب نصّور المشار إليهم من قبل. ويقدر أنهم يملكون ٦٠ سفينة وأن عندهم حوالي ألف مقاتل. وهم أكثر الحولة ميلاً إلى المسالمة. ويعيش هنا بعض اليهود والبانيانيين، ويشترون السلع، ويتاجرون مع داخل البلاد. فأنعشوا المكان، وأسهم في إنعاشه أيضاً زعيمهم الشيخ حجر، المسنّ والمسالم الذي بذل أقصى جهده في سبيل تحقيق هذه الغاية.

وأودّ أن أبدي بعض الملاحظات عن الحولة قبل أن أختتم الحديث عنهم، لكي يُعرفوا على أفضل وجه.

---

(١) تقع عسلوه شمالي نابند على بعد أربعة أميال.

(٢) مبارك بن الصباح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هؤلاء القوم عرب من أنصار عمر بن الخطاب[1]، يكرهون الفرس كرهاً عظيماً، فلا يتزوجون منهم، بل من جماعتهم، فيحافظون على معتقدهم وعلى تقاليدهم. وأفضل طريقة لكسب صداقتهم، هي التعامل معهم بحبّ ومودّة. فالوجه المتجهّم والمتغطرس يستدعي الاحترام والرهبة عند الفرس، أما عند العرب، فيثير الحقد والكره.

وزعماء الحولة مستقلون بعضهم عن بعض، كما قلنا من قبل، ومختلفون على الدوام. لكن لا يحكم أحدهم مستوطنته حكماً مطلقاً، ولا يستبدّ فيها، ولا يقوم بعمل دون تعاون المسنين والوجهاء وموافقتهم. وفيما عدا ذلك، فهم لا يجمعون حصة نسبية أو مساعدات من أفراد عشيرتهم، لكنهم يعيشون من دخل سفنهم. وقد يمتنع رئيس القبيلة عن فرض رسوم الاستيراد والتصدير في مستوطنته، إلا إذا قام بهما الأجانب. وإذا فقدت جماعته الثقة به، نحّته عن الزعامة، وأعطتها إلى أحد أفراد أسرته، وفقد هو الاحترام والسلطة.

وبعد كنجون، يندفع رأس بردستان في البحر. وهنا يسكن الفرس الشاطىء الرملي. ويعيشون من الزراعة وراءه، ولا يملكون سفناً. وهم قوم نهب وسلب، يخاف الناس الرسو عندهم. والوضع مماثل على جانب الرأس الآخر: ففيه غديران، وخور زيارات، وخور خوير، وجون هليلة، وسكانه فرس كسائر السابقين، يعيشون من السلب، ولا يملكون أي سفينة.

وتقع قلعة الملك[2] في نهاية جون هليلة. وقد بناها البرتغاليون، ثم تهدّمت بعد انسحابهم من الخليج العربي، واحتلها الفرس في وقت لاحق ورمّموها. ثم هجرت من جديد، وهي خراب الآن، لأن أخشابها المصنّعة أخذت منها، ولم يبق من آثارها سوى الأسوار الخارجية المبنية باتقان.

وتبعد بوشهر ساعتين عن قلعة الملك. وهي مستوطنة عربية أيضاً. لا لقبيلة الحولة، بل لعشيرة عربية تنزل وراء مسقط، وتسمى البومهير[3]. وقد ازدهرت بوشهر بعد بناء نادرشاه الأسطول وإقامة أمير البحر فيها (كان دوماً نبيلاً فارسياً). وبعد وفاة نادرشاه، لم يتلق هذا القائد أي مال لدفع الرواتب وصيانة السفن، فغادر بوشهر،

(١) يعني أنهم سنّة.

(٢) قلعة الملك قرب ريشهر.

(٣) يقول آخرون أن الشيخ ناصر المدور في بوشير ينتمي إلى عرب المطارش في عُمان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبقيت السفن، من جلبات ودنجات راسية في بندرها، وخالية من ربابنتها وبحارتها. وفي البدء خطر للشيخ ناصر المذكور الذي يتصف بالطموح والبخل، أن يستفيد مما بقي من الأسطول ليستولي على جزيرة البحرين. إلا أنه وجد أن قوته لا تكفي وحدها، لأنه لا يستطيع أن يعتمد على أكثر من ٤٠٠ مقاتل من قومه في الحد الأعظم، فاتفق مع مير ناصر وفائي الذي كان في بندر ريج[1]، ويسعه أن يجند حوالي ٥٠٠ مقاتل. فجهزا ثلاث سفن وثلاث جلبات، واحتلا البحرين، وانتزعاها من الهرمس، ولم يتكبّدا إلا خسائر طفيفة جداً.

وتذرّع مير وفائي ببعض الحجج، ونجح في إقناع زعيم بوشهر بالعودة إلى مدينته في البدء. ثم وجد انه يسيطر وحده على البحرين، فامتنع عن إعطائه شيئاً من وارداتها، ولم يقبل إلاّ أن يعيد له ما تكلّفه من نفقات الحملة. وهذا أحد أسباب عداثهما المميت.

في تلك الأثناء، اضطر مير ناصر وفائي أن يحتفظ معه بأفضل رجاله ومعظم مقاتليه ليستمر في احتلال البحرين. ففكر زعيم جنابة، قائد حيدر، ان يستغل هذا الوضع ليفتح بندر ريج. فلما بلغ هذا الخبر مير ناصر، اضطر أن يغادر البحرين، ووصل في الوقت المناسب لإنقاذ مدينته المحاصرة.

وبذا تمكّن الهرامسة من استعادة البحرين، والبقاء فيها آمنين أكثر من عامين. في غضون ذلك، تمكّن شيخ ناصر المذكور أن يقنع العتوبي (عرب العتب)، وهم عشيرة عربية سوف نتحدث عنها فيما يلي، بمساعدته في فتح البحرين. وقد شجعهم على ذلك بوعده إياهم بأنهم، إذا آزروه، سوف يسمح لهم بالغوص في أرصفة اللؤلؤ دون أن يؤدوا الضرائب العادية. وكان لهذا العرض أهمية ليست صغيرة بالنسبة لهم لأن معظمهم تقريباً غوّاصون.

وقوي الشيخ ناصر المذكور بهذا التحالف، فحاصر جزيرة البحرين بسفينتين وجلبتين، لكنه اصطدم بصعاب لم يكن يتوقعها، لأن الهرمس تلقوا دعماً بالمقاتلين من بعض زعماء الحولة وساندتهم جلبة ملا علي شاه، حاكم جمبرون (بندر عباس)، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً مريراً، وخرجوا من القلعة فجأة، فحاصروا ٢٠٠ مقاتل من مقاتلي الشيخ ناصر المذكور، وأجهزوا عليهم مع أنهم استسلموا وألقوا سلاحهم.

---

(١) ريج مرفأ شمال غرب بوشير، على بعد ٣١ ميلاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد مضي ستة أشهر، فقد ناصر المذكور ٣/ ٤ قواته، وتعذّر عليه تنفيذ مخططه، واضطر أن يعد زعيم الطاهري بأن يدفع له ١٤٠٠٠ روبية من واردات البحرين سنوياً، أقنعه بها أن يتخلى عن الهرمسُ ويدعمه. فوجد الهرمس أنفسهم أنهم ضعفوا بهذه الطريقة، فاستسلموا له، وغادروا الجزيرة. وبذا أصبح زعيم بوشهر سيد البحرين. فوضع أحد أشقائه فيها ومعه ٣٠ إلى ٤٠ مقاتل، يتلقون راتباً شهرياً من البحرانيين. فيما عدا ذلك، تعطيه الجزيرة أقل من ربع الوارادات التي كانت تؤديها من قبل، لأن عرب العتب لا يؤدون الضرائب العادية استناداً إلى اتفاق الغوص الداخلي، ولأن الحولة أيضاً لا يدفعون شيئاً نظراً لمطالبتهم بحق حيازة جزيرة البحرين بأجمعها. بالتالي، يبقى أن تجبى الضرائب من سكان البحرين والقطيف فقط.

من ناحية أخرى، يظل غواصو اللؤلؤ من عشيرة العتبي والحولة أربعة أشهر يغوصون على مرأى من جزيرة البحرين، وينزلون يومياً إلى ساحلها، ويقطعون أشجار نخيل التمر، ويخربون الحدائق القريبة من الشاطىء، فلا يجني أصحابها شيئاً منها، فلا يستطيعون دفع ضرائبهم. بالتالي يهجرون أراضيهم، ويهربون إلى القطيف أو البصرة أو أي مكان آخز بينهما. ولا يستطيع الشيخ ناصر المذكور إيقاف هذه الغارات، التي يشترك ببعضها حلفاؤه، وببعضها الحولة الذين ينبغي عليه احترامهم. وليس لديه في البحرين قوة أو سفينة تخيف هؤلاء القوم.

وتشاهد في بوشهر في الوقت الحاضر جميع السفن الباقية من أسطول نادرشاه، إما غارقة أو مقلوبة، باستثناء سفينة واحدة، ينزح الماء منها كل يومين أو ثلاثة أيام. ولم تعد مضخات تلك السفن تعمل، ولا يقدر أحد على إصلاحها. ووضعها سيء جداً، وتجهيزها رديء جداً، حتى ليستحيل إجراؤها في البحر من جديد. وبقيت جلبة واحدة فقط يمكن أن تمخر عباب البحر، ودنجتان ينقصهما السطح، فلا يمكن استعمالهما إلا للشحن. وفي بوشهر، يتوزع هنا وهناك ما يقرب من ٤٠٠ مدفع من المعدن أو الحديد على الشاطىء (نصفها مغمور بالرمل) ليس لعشرة منها متراس ملائم وسليم. على أن نقص السفن والذخائر أخف مشاكل الشيخ ناصر مذكور. فهو بحاجة إلى مقاتلين بالدرجة الأولى، لأن بعض أفراد عشيرته قتلوا في معركة البحرين، وتفرّق بعضهم هنا وهناك، وانتقل آخرون إلى أماكن أخرى.

في النهاية، لا يمكن أن يجتمع لديه حتى ١٢ سفينة و ٧٠ بحاراً أقوياء البنية. ومدينة بوشهر مليئة إلى حد مقبول بالتجار الفرس وبائعي المفرق والحرفيين، وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانوا كلهم ليسوا أقوياء الأبدان ولا يصلحون للعمل في البحر.

وأراد الشيخ ناصر مدكور أن يحظى برضى النبلاء الفرس الذين كانوا في الأسطول في بوشهر، فصار شيعياً، على مذهب فارس، فكرهه العرب كرهاً عظيماً. ثم إن بندر بوشهر أحد أفضل بنادر الخليج العربي، ويمكن أن تصل السفن إلى بيوتها في أثناء المدّ، إذا تراوح غاطسها بين ١٢ و ١٣ قدماً.

ويصبّ نهر صغير في البحر بين بوشهر وبندر ريج (وراء لسان من الأرض الوطيئة)، ويدعى شط بني تميم[1]، الذي تقوم عليه مدينة بهيلة، التي استولى عليها الشيخ ناصر المذكور، لكنها الآن مستقلة عن بندر ريج. وهنا يعيش من الزراعة ٢٠٠ إلى ٣٠٠ أسرة عربية وفارسية، لا تملك سفناً إطلاقاً. ومن هنا يصل المرء إلى بندر ريج الذي يعدّ مستوطنة عربية لعشيرة تدعى الزعاب، تسكن نصف إحدى الجزر الواقعة عند رأس مسندم، وتسمى الجزيرة الحمراء. ولا تمتلك هذه المدينة (أي ريج) بندراً جيداً شبيهاً ببندر بوشهر. وتضطر السفن أن تبقى في المكلاء، المقبول إلى حدّ معين. إلا أن وجود جزيرة صغيرة متطاولة مقابل هذه المدينة، يجعل السفن الممكن أن ترسو هنا قليلة، لأن عمق الماء في أثناء المدّ بين هذه الجزيرة وبين تلك المدينة، يتروح بين ٧ و ٨ أقدام فقط.

ومنذ حوالي مائة عام (سنة ١٦٥٦)، كان في بندر ريج عدد كبير من السفن والملاحين. وفي ذلك التاريخ تقريباً، وضع سكان خارك تحت حماية مير حمد، بعد أن كانوا يتمتعون بالاستقلال منذ ذهاب البرتغاليين. وكان مير حمد حاكماً، فوعدوه أن يدفعوا له سنوياً ٢٤٠ روبية، شريطة أن يقبلهم ويحميهم من غارات الملاحين العرب. وتقيّد زعماء بندر ريج بالجزء الأول من الاتفاق بدقة جيدة جداً. أما الجزء الثاني، فكان تطبيقه سيئاً جداً. فهؤلاء السكان المساكين، ظلوا، منذ الاتفاق وحتى وصولنا، يتعرضون إلى الاعتداءات اليومية. وهم سعداء جداً الآن، لأنهم تخلصوا منها. وبعد وفاة مير حمد، انحطّ بندر ريج كثيراً جداً بسبب اغتيال خلفائه واقتتالهم ونشوب الحروب بينهم. ودام ذلك الوضع حتى جاء مير ناصر إلى السلطة، ثم عادت ريج إلى الازدهار من جديد بفضل سياسته البارعة وسيطرته الدقيقة على عشيرته وسماحته وكرهه حيال جميع التجار والغرباء. والآن، بعد مدة قصيرة على وفاته، رجع بندر ريج

(١) شط بني تميم جون اشتق اسمه من اسم العرب الذين يقطنون فيه، وينتسبون إلى بني تميم واسم النهر الصغير رود هله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى حالته القديمة، ويبدو أنه يتجه إلى الخراب الكامل.

وقد غرقت في هذا الشتاء سفينة أسطول نادرشاه المشار إليه، وكانت راسية في بندر ريج، وبدنها كامل، وفي حالة جيدة لسنتين خلتا. وما تزال جاثمة في مكانها، وتلفت جميع أدقالها المتوسطة وعارضات أشرعتها وحبالها. وبقي حتى الآن جلبتان في حالة متوسطة، لكنهما سوف تصبحان عديمتي الاستعمال في مستقبل قريب جداً، بسبب إهمالهما. وهنالك حوالي ٣٠ سفينة كبيرة وصغيرة وحوالي ٣٠٠ بحار أقوياء البنية.

وبعد اعتناق والد مير ناصر المذهب الشيعي، تزوجت ذريته من أسر زعماء فرس يعيشون في الداخل، فلم يعد بالإمكان اعتبارهم منتمين إلى العرب.

وتقع جنابة فوق بندر ريج، في جون، عند مجرى ماء لا يصلح كثيراً لرسو السفن. ويسكنها فرس يعيشون من الزراعة، يصعب جداً الاعتماد عليهم، وهم جشعون. واسم زعيمهم قايد حيدر الذي يستبد بشعبه، ويسعى لاستغلال انحطاط بندر ريج، باجتذاب الملاحين إلى مدينته. وهو يجهل تماماً شؤون الملاحة هو وعشيرته. ويعمل على شراء السفن وعلى جعل مجرى الماء الواقعة مدينته عليه أفضل ملاءمة لرسو السفن. ويبذل كل ما في وسعه ليجتذب التجار المحليين ويغريهم بالمجيء إلى مدينته. وسوف يعرف في المستقبل إذا كان سوف يستمر في هذا الاتجاه وإذا كان سينجح. وفي عشيرته ٣٠٠ مقاتل مجهزون جيداً جداً ببنادق الفتيل حسب الطريقة المحلية، وميّالون كثيراً إلى الغزو والسلب، مثلما فعلوا على الساحل حواليهم.

وينتهي جون جنابة بحافة بنج الناتئة، التي يقع خلفها بندر ديلم. وهو مستوطنة عربية لعشيرة تسمى الحليفة، التي ما تزال تدين بدينها وتحافظ على تقاليدها. وهم فقراء، يعيشون من الملاحة وغوص اللؤلؤ وصيد الأسماك. ومدينتهم ليست سيئة جداً بالنسبة للتجارة، لأنها واقعة على مسيرة يوم واحد من بهبهان، المدينة الفارسية الغنية جداً، التي تظل الطريق منها إلى أصبهان سالكة دوماً تقريباً. مع ذلك يخشى كل تاجر أن يذهب إلى بندر ديلم، لأن عامة الشعب فيه ميالة كثيراً جداً لسرقة الغرباء وإزعاجهم، نظراً لفقرها. ولا ينصف أحد في بندر ديلم، الذي يترأسه عدة زعماء مستقلين بعضهم عن بعضهم، يعيشون في خلاف دائم ويتحاربون في الغالب. ولبندر ديلم ثلاثة شيوخ في الوقت الحاضر، أولهم الشيخ غنّام، وهو فقير لكنه يتمتع بشعبية كبيرة، لأنه يسمح لكل إنسان أن يسرق وأن يزعج التجار والغرباء حسبما يشاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشيخ الثاني الشيخ طعّان، وهو غني وحسّاس وتاجر، وبالتالي يحاول اجتذاب التجار بجميع الطرق والوسائل، ويحول دون إساءة معاملتهم، مما يدفع عامة الناس إلى كرهه. والشيخ الثالث الشيخ حامد، وهو فقير وضعيف النفوذ. وتمتلك مدينة ديلم ٤٠ سفينة كبيرة وصغيرة، ولديها ٤٠٠ بحار مسلّح. وفي هذا الجانب من الخليج العربي، تعدّ ديلم آخر مدينة فيها ملاحة. ومن يجيء من ديلم يصل إلى هنديان، حيث يصب في البحر نهر عريض بعض الشيء، مليء بالقصب.

وتقطن هنديان جماعة من أدعياء العرب، تسمى جرجس، تعيش من الزراعة (ومن تربية الأبقار في معظمها). وهنا تصبح الأرض خصبة جداً. ويحكم هذه الجماعة ملا طاهر جلّه، الذي يأمر ٥٠ من الخيالة وأكثر من ٢٠٠ من المشاة المسلحين ببنادق فتيل، لكنهم لا يمتلكون سفناً، ولا يمتهنون الملاحة.

ومن هنا، متى تجاوز المرء بندر ماشور (منذ بضع سنين كان يقيم فيه لصوص يصعدون في مراكب صغيرة في نهر البصرة ويمعنون بالسلب، لكنهم أبيدوا كلياً الآن)، يصل إلى نهر درق[١] الذي يصب في البحر على مسافة قريبة جداً من نهر الفرات. ونهر درق ليس عميقاً، بل عريضاً، فلا ملاحة فيه باستثناء ٣ أو ٤ سفن صغيرة، لا تذهب إلى أبعد من هذا المكان أو إلى بوشهر، وتموننا بالأرز والسمن المتوفرين بكثرة هنا. ويحكم درق شيخ خاص بها، يرتبط بحكومة البصرة، ويتوجب عليه دفع أتاوة لها.

وما دمنا الآن وصلنا إلى مصب الفرات، يجب علينا أن نذكر البصرة، التي لا يمكن قول أي شيء خاص عن ملاحتها. ولا يجرؤ ما يسمى بقوادس الباب العالي على عمل شيء وعلى الذهاب إلى مصب الفرات العريض نوعاً ما، لأنها عندئذٍ تنشطر حتماً من شدة جري الماء. بالتالي لا هدف لها إلا استيفاء الرسوم من الفلاحين على النهر إسمياً. ويعجزون أحياناً حتى عن تحصيلها. ويعيش البحارة في جميع الأماكن تقريباً بين مصب الفرات وبين البصرة، وينقلون التمر بسفنهم إلى أرجاء الخليج العربي، ويصلون إلى مخافي اليمن. مع ذلك بنيتهم ليست دوماً قوية، ولا يملكون بنادق فتيل، وتجهيزهم سيء بالأدقال والعارضات والأشرعة والحبال، يستدل به من بعيد على أن السفينة بصرية. وبعد مغادرة الفرات ومجاراة الساحل الغربي، يصل المرء

---

(١) خور درق فرع من خور موسى، وهو جون في البحر شرقي شط العرب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى جزيرة فيلكة وإلى القرين[1]، مقابلها على الشاطىء. وفي فيلكة والقرين تسكن قبيلة عربية تدعى العتب، التي تحدثنا عنها من قبل، وتتبع شيخ الصحراء[2]، وتدفع له أتاوة ضئيلة جداً. وهم يملكون حوالي ٣٠٠ سفينة، معظمها صغيرة، يستخدمونها فقط في صيد اللؤلؤ الذي يعيشون منه ومن صيد السمك في الموسم السيء. ولديهم ٤٠٠٠ مقاتل، كلهم تقريباً مسلحون بالسيوف العريضة والتروس والرماح. لكن يندر أن يجهزوا ببنادق الفتيل، التي لا يعرفون حتى كيف يستعملونها.

وتتنازع قبيلة العتب دوماً مع الحولة الذين تعتبرهم أعداءها اللدودين. لهذا السبب ولصغر حجم سفنهم أيضاً، لا تتعدى أسفارهم البحرية أرصفة غوص اللؤلؤ في البحرين من جهة، ورأس بردستان من جهة ثانية. ويتزعمها عدة شيوخ، يتعايشون معاً في وحدة مقبولة. وأهمهم مبارك بن الصباح. وهو فقير، وما يزال حدثاً. ويدعى أحد أولئك الشيوخ محمد بن خليفة، وهو غني ومحترم، ويمتلك سفناً كثيرة.

وبعد الخضراء، تشاهد خرائب قلعة بناها البرتغاليون في غابر الزمن، ثم لا يعثر على مكان مأهول حتى القطيف[3]. وهذه البلاد صحراء جافة، تقع مقابلها في البحر، بمنأى عن الأنظار ست جزر صغيرة أو رقوق خالية من السكان، لم توضع على خارطاتنا.

وقد استولى البرتغاليون على القطيف في الماضي، وما تزال قلعتهم قائمة فيها، وقد حوفظ عليها جيداً. والقطيف الآن مدينة حسنة البناء على الطراز المحلي، وبها يتمّ أول شراء لؤلؤ من الغواصين مباشرة. وبعد انحطاط البحرين، هجرها جميع تجارها والأغنياء من سكانها، وقصدوا القطيف التي تبعد خمسة أميال عنهم. وتنشط في القطيف إلى جانب تجارة اللؤلؤ تجارة المفرق وتجارة أصناف السمك التي تحمل منها إلى الصحراء وإلى مدن نجد والأحساء.

ويحكم شيخ الصحراء القطيف، ويعين أعظم وجيه فيها نائباً له، ويسمح له بالإقامة في القلعة. وله فيها أيضاً وكيل ومفوض شرعي يقوم بتحصيل الرسوم والضرائب. وأهالي القطيف شيعة مثل البحرانيين. وليس لديهم من يحميهم. وهم جبناء وبعضهم غواصو لؤلؤ، ويمتهن الباقون الزراعة. وأراضيهم حول القطيف خصبة

---

(١) القرين اسم آخر للكويت.

(٢) المقصود شيخ بني خالد الذي سمح للعتب بالإقامة في الكويت.

(٣) القطيف: المدينة الرئيسية في واحة القطيف، على بعد ٢٦ ميلاً شمالي غربي البحرين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جداً. ومدينة القطيف وخيمة، بخاصة في الربيع والخريف ويصاب الغريب فيها بالحمى، إن لم يكن معتاداً على هوائها. ويقوم الملاحون العرب بإساءات كثيرة في القطيف. وغالباً ما يزور هذا الشيخ أو ذاك بساتين النخيل والفواكه في مناسبات شتى، فيقطعون النهر المبنية عليه القطيف عن تلك المدينة متذرعين ببعض الحجج الواهية، ولا يعيدون فتح الماء إلا بعد دفع أهالي القطيف بضعة آلاف من الروبيات.

ومتى تجاوز المرء البحرين التي تحدثنا عنها في مناسبة أخرى، نقول فقط إن أرصفة اللؤلؤ تصل إلى صور عند رأس مسندم. وتقع ثلاث مدن بين القطيف وبين صور على الساحل، هي السر وجوهر والشارقة، وتتألف كل واحدة منها من بضعة بيوت فقط، ويحمل إليها التمر والأرز من البصرة لتبيعهما لعرب الصحراء وغواصي اللؤلؤ.

وصور مدينة حسنة البناء حسب الطراز المحلي، ومزودة ببعض المدافع. وتسكنها فئة من السكان يسميها الحولة القواسم. وكانت تابعة لإمام مسقط في ماضي الأيام، لكنها لا تعترف بسلطته عليها الآن. مع أنه حاول بلا جدوى أن يخضعها إلى حكمه. وقام بعدة حملات فاشلة عليها في هذا السبيل. فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ضد شيخ القواسم المسمى كايد القاسمي؟ أو رحمة بن مطر، الذي تدعمه عدة عشائر من البدو أو عرب الصحراء.

ويعتبر الشيخ رحمة بن مطر في الوقت الحاضر أقوى زعماء الحولة. ولديه حوالي ٤٠٠ مقاتل مسلحون ببنادق الفتيل، كلهم من عشيرته، وله مرفأ جيد، يمكن أن تدخله أكبر السفن. وفيها ما يزيد على ٦٠ سفينة معظمها كبيرٌ ومجهّزٌ تجهيزاً جيداً، وتبحر حتى مخا. وفي صور نفسها تنشط تجارة اللؤلؤ وتجارة بعض السلع وضرورات الحياة. التي تحمل إلى الصحراء.

وتقع قرب صور قطعة كبيرة من البر تندفع في البحر، وتتحول إلى جزيرة في أثناء المدّ، ويسميها العرب الجزيرة الحمراء، وتقطن فيها عشيرة تدعى الزعب، تعيش من غوص اللؤلؤ. وعددهم كبير، ويمتلكون كثيراً من السفن الصغيرة. وعليهم أن يخضعوا لشيخ القواسم، وأن يدفعوا له أتاوة ليست ضئيلة. وفي العام الماضي (١٧٥٥)، احتل رحمة بن مطر قرية لافت[1] وجزيرة القشم، وساعده في ذلك أمير

(١) لافت قرية تقع على الجانب الغربي من النتوء الكبير الخارج من الساحل الشمالي لجزيرة القسم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحر جمبرون ملا علي شاه الذي تربطه به صلة قربى زواج. وطرد منها عشيرة من الحولة تدعى بني تميم، كانوا يحوزونها منذ حكم نادرشاه. ودام حصار لافت التي كان فيها أقل من ٢٥٠ مقاتل ستة أشهر، رغم وجود سفينتي ملا علي شاه وكل قوة الشيخ رحمة الذي اصطحب معه بعض البدو لدعمه. وما كانت لتستسلم لولا وفاة عبد الشيخ الطارئة، وكان حاكمها.

والقادم من صور ورأس مسندم، يدخل في أرض إمام مسقط، الذي كان غنيّاً جداً وقوياً في غابر الزمن. لكنه ضعف كثيراً جداً جداً بسبب سوء تصرف أسلافه، وثار عليه رعاياه بسبب إسرافه في الشراب وسوء حكمه. وحاصروه في مسقط. فترك ٤٠٠ من عبيده الزنوج في حامية قلعتها، وأخذ الباقين في أكبر سفينة عنده، وذهب إلى جمبرون ليستقدم مساعدة أسطول الفرس ضد رعاياه. واستغل أمير البحر محمد تقي خان الشيرازي هذه الفرصة استغلالاً جيداً جداً، فدمّر معظم المدن التي يمتلكها الإمام واستولى على كثير من الغنائم من البلاد، واحتفظ بمسقط. في غضون ذلك، توفي الإمام من شدة الغمّ. ثم تخلّى الفرس عن مسقط عقب وفاة نادرشاه بعد سنوات قليلة. وكان الإمام المالك حالياً[1] نائب سلفه في صحار طيلة حياته. وكان حاد الذكاء وطيّب السريرة، فأحبّه الناس، حتى إنه عمل عوضاً عن الإمام الراحل ضد مصلحة أبنائه الأحياء حتى الآن. وحافظ على نفسه بفضل لطفه الخاص، لكنه كانت إطاعته سيئة والخوف منه ضئيلاً. في غضون ذلك، اعترفت به عُمان كلها من رأس مسندم إلى رأس الحد. وهي تضمّ عدداً كبيراً من القرى يسكنها صيادو السمك والبحارة. وفيما عدا مسقط، ليس فيها مدن تستحق الذكر سوى صحار، ومطرح[2] وبركة[3] التي يعيش فيها بعض الأغنياء.

ويعرف الأوربيون مسقط جيداً. فهي واقعة في أول الخليج، وموقعها جيد جداً لبيع السلع. وتحمل إليها السفن الأهلية من الخليج العربي التمر والقمح وعرق السوس وماء الورد والأعناب واللوز والتبغ وما شابهها من البضائع التي تنقل إليها بالسفن المحلية من الساحل المقابل لها ومن مليبار، أي الكتشرى[4] والأرز وجوز الهند وصوف كابوك والخيزران ألخ... وتشمل تجارة مسقط الرئيسة جميع هذه الأصناف.

---

(١) أحمد بن سعيد مؤسس سلالة البوسعيد.

(٢) بركة: مدينة تبعد ٤٣ ميلاً غربي مسقط.

(٣) من قبائل البانتو في جنوبي افريقية.

(٤) مطرح: مدينة على بعد ميلين غربي مسقط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما في الأرياف التي يعيش فيها البدو أو عرب الخيم، فلا يكاد يحمل إليها أي سلع أخرى، غير ضروريات الحياة، باستثناء بعض الرصاص والقصدير والحديد وثياب الكتان الخشنة الرمادية الضاربة إلى الزرقة، مثل ثياب ديول السند. وفي غضون ذلك، إذا رأى التجار ـ المطلعون جيداً جداً على أسعار البضائع في الخليج ـ انهم يجنون أرباحاً جيدة، يشترون أيضاً جميع أنواع السلع الأخرى، ويحملونها إلى الخليج حتى البصرة. مع ذلك، لا يشترون سلعة يقدرون أنهم يربحون بها أقل من ٢٥٪.

وما يزال إمام مسقط يمتلك قلعة في ممباسة انتزعت منذ أمد بعيد من البرتغاليين على ساحل افريقية، وتنقل إليها سفينة في كل عام التمر والقمح والمنسوجات الخشنة، وتعود محملة بجوز الهند والصوف وأنياب الفيلة والرقيق والعنبر. وللأسباب المذكورة سابقاً، يرسل نائب الإمام له شيئاً قليلاً جداً من واردات ممباسه، ونادراً ما يتقيد بتنفيذ أوامره.

ويتألف أسطول الإمام من سفينتين صغيرتين في الوقت الحاضر، إحداهما لا تصلح للاستعمال، وقد أصاب بشرائه سفينة جديدة جميلة حمولتها ٦٠٠ طن من بومباي. ولديه أيضاً جلبتان. ويشتهر رعايا الإمام بأنهم جنود سيؤون. لذلك يتألف جيشه من الكفار أو الزنوج الافريقيين من ممباسه التي يعدّ أهلها بارعين جداً في الحرب. وفي الماضي، كان جيش الأئمة يضم ٤٠٠٠ مقاتل منهم، إلا أن الإمام الحالي لم يتمكن من جمع أكثر من ٥٠٠ منهم جميعهم مسلحون ببنادق فتيل وسيوف مستقيمة يبرعون في استعمالها. وهذه كل قوته.

ويلم م. فلور — دن هاغ (لاهاي)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة السادسة ـ عثمانية

مخطوطة كتاب المحيط

تأليف

علي ريّـــس

حمد وسپاس وشکر بی قیاس اول مبدع ارض وسما
وخالق جملهٔ اشیایه که آنوڭ بحار مصنوعاتندن فلك
فلك بر ذره ودریای عظمتندن بحر محیط بر قطره در دکلد
زهی نادر که کمال قدرتی برله بر بندن جملهٔ کاینات کتم
عدمدن ظهوره کتوردی وزمرهٔ انسانی اشرف مخلوقات
ایدوب بحر نعمتنه غرق وقلزم الطاف وکرمنه مستغرق
ایلمشدر جل جلاله وعم نواله وتحیات طیبات وصلوات
صلوات اول سرور کائنات وبهتر وبهین موجودات
اوزرینه اولسون که آنوڭ وسیلهٔ شفاعتی وواسطهٔ
عنایتی ایله غریق بحر معصیة اولان عصات اشتلوفان
عصیان وکرداب طغیاندن الساحل نجاته چقوب

خاتم پیغمبران اولدی صلی الله علیه وعلی آله الطیبین واصحابه
الطاهرین مدح پادشاه اسلام پادشاه اسلامه دعا
ایتمک نیجه عزیمتدر لا اقل واجبدر بلکه واجب و الزمدر
خصوصا سلطان سلاطین جهان و خاقان زمین و
زمان شهنشاهان قدیم و شهریار هفت اقلیم سلیمان
عظمت و سکندر شوکت و رستم شجاعت و فریدون حشمت
و نوشیروان عدالت و حاتم همت و سپهر اقتدار و گردون
وقار سلطان البر و البحر صاحب المن و النصر سلطان
ابن سلطان و خاقان ابن خاقان اعنی صاحب قران زمان
حضرت سلطان سلیمان خان ابن سلطان سلیم خان
ابد الله تعالی عمر دولته و ابد سلطنته الی غایة الزمان
و نهایة الدوران همیشه سریر سلطنتده و مسند
خلافتده کامکار اوله و آیات اوج عزتده و برج رفعتده ماننده
آفتاب عالمتاب سعادت مدار اوله آمین یا رب العالمین
باعث ترجمه کتاب بو کتابک ترکیه ترجمه اولنمسنه

باعث اولدیکه بو داعی دیرینه و بنده کمترینه کاتبی
الحروف الفقیر اعنی سیدی علی بن حسین الحقیر
قدیم الایام مدت عمرم دریایه طالب و امور تحصیل
و تکمیلنه جان و دلدن راغب اولوب و سعادتلو پادشاه
عالمپناه اعز الله انصاره حضرتلری ایله رودس فتحی
بیله اید و باولدن زماندن الی یومنا هذا دریای مغربده
واقع اولان جمیع غزالرده و فتح اولنان قلعه لرده
مرحوم و مغفور خیر الدین پاشا و سنان پاشا ایله علیهما
الرحمة والغفران و سائر قپودانلر ایله انواع خدمتلر
قیلوب و کلیا دریای مغربک اطراف و اکنافی کشت اولنوب
و علم دریایه متعلق جمیع امور غریبه تحصیل و تکمیل
قلنوب و حفظ و ضبط اولندقده اتفاق پادشاه گردون
اقتدار لشکر انجم شمار و سپاه دشمن شکار و ظفر
آثار ایله اسب همته سوار اولوب دار السلطنة
محروسه قسطنطنیه دن سعادت و اجلال و عزت و

اتباع ايله سنه ستين وتسعمائه رمضاننك اواسطنده

ديار شرقه عزيمت ايدوب قشلماق اچون محميه حلبه

متوجه اولدقلرنده بو كمينه يدنده معزه ما يرن

خدمتي لازم اولمغين عزم اولنوب محروسهٔ حلبه

وارلدقده سنهٔ مزبوره ذي الحجه سنك اواخرنده

بو بنده يه مصر قپودانلغي خدمتي صدقه بيوريلوب

مقدما ديار مصردن ولايت بصره يه ارسال اولان

كميلرك موجود اولانی مصر جانبنه وارمق امر اولنوب

بر موجب فرمان عالی سنه احدی و ستين وتسعمائه

محرم الحرامنك اوائلنده عزم ايدوب بندر بصره يه

وصول بولدقده موجود اولان اون بش قطعه كميلرك

ممكن اولديغنه مهماتی كوريلوب سنهٔ مزبوره شعباننك

اوائلنده مصره وارلمق اميديله درياي هرمزه

چقلوب اما تدبير تقديره موافق دوشميوب يعنی

ديار مصره وارلمق ميسر اولميوب بالضروره ولايت

هند دریاسنده اولوبان کیفیتی ذکر اولنه صکره دن معلوم
تفصیلی کتاب مرآة الممالکده ذکر اولنمشدر کتابه نو
علمده نکارایداولنوب بابنه تلمیذی ایله اولنمه موسم
زمانده دک بنی آدم بصره ده ناچار توقف اولنوب و بلاد
مصر دن دیار هنده واصل اولنجه اوقات شماله غایة
شماله دک تمام اوج آی اولوب و بالجمله ذکر اولنان سکون
آیده کیلرده اولان متعلقات رنابلز الله تعذوین علم
دریایه متعلق منهیاتنده دن بر آن شالی اولنیوب فارسی و
هولنی و هندوستان معلمرینک قدماسندن لیث بن
کهلان و محمد بن شادان و سهل بن آبان متقدمادرنای
هنده طریق البحر ایتکلری معلوم ایدیلیر و
متاخرینندن ولایت عماندن ملغازده ن احمد بن ماجد
و دیار جرزده شهر نام شهردن سلیمان بن احمد تألیف
ایتدکلری کتابلردن فواید و حاویه و تحفة الفحول و عمده
و منهاج و قلادة الشموس نام کتابلر جمع اولنوب وهو

بنی تبع قلنوب فی الواقع دریای هندده اثلرسز غایت مشکل اولوب انا قیعده اثلرو رئیسلر وکشتی بانلر اولنعلیله حضرتانا ولنوب آنا مطالعه محتاج اولوب کنندولرک وقوفلری اولمادوغی اجلدن موفقین واجب ولازم اولدیکنه ذکرا ولان کتابلر انتخابا ولنوب وترجمه قلنوب ترکی دلده بر لطیف کتاب ترتیبا ولنه که هر زمانده منه احتیاج اولیوب ذکر اولان کتابه مراجعه ایدنلر مراده واصل اولوب منلردن مستغنی اولله اولیه بوخصوص ایله حضرت مسبب عنایتنه توکل وانبیای عظام واولیای کرامک همتلرینه توسل ایدوب لهامات ربانیه ایله بیان ودلدن ترجمه مباشرت قلنوب تیسیر توفیقی ایله ذکری الحاق اولنوب زمان تیسیرده بعنایه الملك القدیر اختتام بولوب وذکرا ولان کتاب علم دریانک جمیع احوالی عربیه سن احاطه قلنوب تا بحر محیط قولزمی تعمیم ذکر قلنمله ایدن اخوان صفا واقع

اولان خبط وخطالرن قلم عفو ايله اصلاح قيلنور وايند
دكه درياده اننده مستفيد اولنلر بو كيننگ دعاي خير
ايله ياد ايدنلر اما بعد بو كتاب اون باب ايله اللي فصلي
مشتملدر اوّلكي باب افلاك وكواكب وضمن
واسملرن وعناصرك ترتيبن وآنلرك متعلقاتن بيان
ايدر واول التي فصلدر اوّلكي فصل افلاك وكواكب
وضمن وعناصرك ترتيبن بيان ايدر ايكنجي فصل دايره
فلكك تقسيمن بيان ايدر اوچنجي فصل اصابعي ومابين
لرناني بيان ايدر دوردنجي فصل اسامي لرنان ايله
قياس ايچون استعمال اولنان كواكبك بعدلري وبعضينك
قطب شمال ايله مقدار مابيني بيان ايدر بشنجي فصل
قياس اولنيجق آنلرك وضعن بيان ايدر آلتنجي فصل
كواكبك سا بابله غايه ارتفاعن كي بيان ايدر ايكنجي
باب عند الجمهور استعمال اولنان آتي سنيني
بيان ايدر واول يدي فصلدر اوّلكي فصل ايام سنه

قرينهٔ وشهورنڭ بيان ايدر ايكنجى فصل اتى سنهٔ قمرية
بيان ايدراوچنجى فصل اتى سنهٔ شمسية ورومية و
قبطية بيان ايدردوردنجى فصل سنهٔ شمسيه بلكى بيان
ايدربشنجى فصل سنهٔ روميه بلكى بيان ايدرالتنجى
فصل سنهٔ قبطيهٔ بيان ايدريدنجى فصل سنهٔ فارسيهٔ
بيان ايدراوچنجى باب ازوام وترفاتى وحقيقة
دينهٔ وبوسلهٔ بيان ايدرواول دورت فصلدراولكى
فصل ازواجى بيان ايدرايكنجى فصل لغنان مابينده
اولان ازوام موضوعهٔ بيان ايدراوچنجى فصل
ترفات لغنانى بيان ايدردوردنجى فصل حقيقة
دينهٔ وبوسلهٔ بيان ايدردوردنجى باب سوق
التريجات وتحت التريجات وجزيرولرك دينولرن وبكى
مملكتك احوالن بيان ايدرواول بش فصلدراولكى
فصل فوق التريجات دينولرن بيان ايدرايكنجى فصل
منطقه اولان دينولرى بيان ايدراوچنجى فصل تحت

تجربیه موافق اولنلرك حقتنی بیان ایدر ایکنجی فصل

١٣٠

محذوراتی و طوفانی بیان ایدر اوچنجی باب

افلاکك و کواکبك وضعی و اسملرینی و عناصرك ترتیبی

و انلرك متعلقاتی بیان ایدر و اول ایکی فصلدر اوّلکی

فصل افلاکك و کواکبك وضعی و اسملرینی و عناصرك

ترتیبنی بیان ایدر اولا معلوم اولاکه افلاکك کلیه جمله

کریة الاشکال و مضیئة الاستداره در تحدیباً و تقعیراً

و بسیط و شفاف و متحرکدر حرکت بسیطه ایله و نه خفیف

و نه ثقیلدر و نه حاردر و نه بارددر و نه رطب و نه یابسدر

و نه قابل خرق و التیامدر حکما مذهبی او در اینه امّا

علمای شریعت قتنده قابل خرق و التیام اولدوغی امر

معتقددر و هر بری ایکی سطح متوازی محیطدر مرکزلری

مرکز عالمدر و عددی طقوزدر که انلره افلاك کلیه

دیرلر و اهل شرع یاننده سما دیرلر زیرا کلام قدیمده

سبع سموات دیو بیورلشدر و فلك ثوابت کرسیدر که


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة السابعة ـ عربية

ذكر أحد سلاطين هرمز

من
تحفة النظّار في معرفة الأمصار وعجائب الأسفار
لابن بطوطة
صفحة ٢٨٢ ـ ٢٨٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلطان تمهتن توران شاه

وهو السلطان قطب الدين تمتهن طوران شاه[1] (وضبط اسمه بفتح التاءين المعلوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون). وهو من كرماء السلاطين، كثير التواضع حسن الأخلاق. وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف، ويقوم بحقه. ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيّأً للحرب، مشغولاً بها مع ابني أخيه نظام الدين. فكان في كل ليلة يتيسر للقتال. والغلاء مستول على الجزيرة. فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن علي، وقاضيه عماد الدين الشونكاري، وجماعة من الفضلاء. فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب. وأقمنا عندهم ستة عشر يوماً. فلما أردنا الانصراف، قلت لبعض الأصحاب: كيف ننصرف، ولا نرى هذا السلطان؟ فجئنا على الوزير، وكانت داره في جوار الزاوية التي نزلت بها، فقلت له: إني أريد السلام على الملك. فقال: بسم الله، وأخذ بيدي، فذهب بي إلى داره، وهي على ساحل البحر، والأجفان مجلسة عندها. فإذا شيخ عليه أقبية دنسة، وعلى رأسه عمامة، وهو مشدود الوسط بمنديل. فسلم عليه الوزير، وسلمت عليه، ولم أعرف أنه الملك. وكان إلى جانبه ابن أخته. وهو علي شاه بن جلال الدين الكيجي، وكانت بيني وبينه معرفة، فأنشأت أحادثه، وأنا لا أعرف الملك، فعرفني الوزير بذلك. فخجلت منه لإقبالي بالحديث على ابن أخته دونه واعتذرت. ثم قام، فدخل داره، وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة. ودخلت مع الوزير، فوجدناه قاعداً على سرير ملكه، وثيابه عليه، لم يبدلها، وفي يده سبحة جوهر، لم تر العيون مثلها، لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه. فجلس أحد الأمراء إلى جانبه، وجلست إلى جانب ذلك الأمير، وسألني عن حالي ومقدمي، وعمن لقيته من الملوك، فأخبرته بذلك. وحضر الطعام، فأكل الحاضرون، ولم يأكل معهم، ثم قام، فودعته وانصرفت. وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه، أنه ركب البحر مرة من مدينته

---

(١) الصحيح: تمهتن توران شاه.

الجديدة، برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها. وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه. فخالف عليه أخوه نظام الدين، ودعا لنفسه، وبايعه أهل الجزيرة، وبايعه العساكر. فخاف قطب الدين على نفسه، وركب البحر إلى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها، وهي من جملة بلاده، فأقام بها شهوراً، وجهّز المراكب وأتى الجزيرة. فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد إلى قلهات، وفعل ذلك مراراً. فلم تكن له حيلة، إلا أن يراسل بعض نساء أخيه، فسمتّه ومات. وأتى هو إلى الجزيرة، فدخلها، وفرّ ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قيس، حيث مغاص الجوهر، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند، ويغيرون على بلاده البحرية، حتى تخرّب معظمها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصـــادر والمـــراجع

أولاً ـ المصادر والمراجع العربية

ابراهيم بن محمد الفارسي، أبو إسحاق الأصطخري، كتاب المسالك والممالك، لإيدن.

ابن الاثير الجزري، علي بن أحمد بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، بيروت ١٩٨٢.

ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، مراجعة مصطفى القصاص، بيروت، ١٩٨٧.

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، بيروت ١٩٧٩.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أحرون الطبيب الملطي، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٠.

ابن ماجد، أحمد بن ماجد منظّر الملاحة الفلكية في المحيط الهندي وبحاره الشاطئية في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مؤلفاته في ٤ أجزاء، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، دمشق ـ رأس الخيمة.

أحمد بن ابراهيم الهمداني، المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، لايدن ١٨٨٥.

أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي، كتاب البلدان، لايدن ١٨٩١.

أحمد بن عبد الله القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة ٣ أجزاء، الكويت ١٩٦٤.

أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، لايدن ١٨٩١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ١٩٥٧.

أحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت، الجزء الأول، القسم الأول، الكويت ١٩٦٧.

اسماعيل بن محمد بن عمر، المعروف بأبي الفداء، تقويم البلدان، النص العربي، باريس ١٨٤٠.

البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة ١٩٠٠.

حوراني، جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة يحيى الخشاب، مصر ١٩٥٨.

خالد بن محمد القاسمي، الخليج العربي في السياسة الدولية، قضاياه ومشكلاته، ١٩٨٧.

سالم بن حمود السيابي، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، صقور البحر العُماني، ١٩٧٦.

سليمان التاجر وأبو زيد السيرافي، أخبار الصين والهند، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، دمشق ١٩٩١.

سليمان بن أحمد بن سليمان المهري، العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، مصنفات سليمان المهري، ٣ أجزاء، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٢، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري.

سيد نوفل، الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي، ١٩٦٩.

سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، ج ١، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت، ١٩٧٥.

الشريف الأدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية.

عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، لايدن ١٩٣٦.

عبيدُ الله أحمد بن خرداذبه، كتاب المسالك والممالك، لايدن.

علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت ١٩٦٥.

عيسى أحمد النشمي، الملاحة في الخليج العربي، الكويت ١٩٦٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عيسى القطامي، كتاب دليل المحتار في علم البحار، الكويت ١٩٦٤.

فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج ١، بيروت ١٩٨٠.

لبيب عبد الستار، قصة الخليج: تفاعل دائم وصراع مستمر، بيروت ١٩٨٩.

محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لايدن ١٩٠٦.

محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزغ ١٩٢٣.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، خمسة أجزاء، مكتبة صادر.

لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت ١٩٨٣.

ثانياً ـ المراجع الأجنبية

AUBIN, J., Les Princes d'Ormuz du XIIIe au XVe siecle, in JOURNAL ASIATIQUE, 1953, p.77-138.

AUBIN, J., Albuquerque et les Negotiations de Cambaye, in Mare Luso-Indicum, vol.1, 1971.

AUBIN, J., Le Royaume d'Ormuz au debut de XVIe siecle, in Mare Luso-Indicum, vol.2 1973.

AYYAR, K.V.K., The Zamorins of Calicut, Calicut, 1938.

BORBOSA, DUARTE, The Book of Duarte Barbose, 2 Vols., London, 1918-21.

BLAIR, S. SHEILA, The Mongol Capital of Sultaniyya, the Imperial, IRAN, 24, 1986.

BOUCHON, Genevieve, Les Mers de l'Inde à la findu XVc siecle, vue generale, p.101-116, in Moyen-Orient et Ocean Indien XVIe-XIXs., 1, 1984.

BOUCHON, G., Les Musulmans du Kerala à l'epoque de la découverte Portugaise, in Mare Luso-Indicum, vol.2, 1973.

BOXER, CHARLES R., The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825, London, 1969.

C. CAHEN, La Syrie du Nord à l'epoque des Croisades ct la Principauté franque d'Antioche, Paris, 1940.

CHAUMONT, M.L., Etudes d'Historie Parthe, V, La Route Royale des Parthes de ZEUGMA à SELEUCIE du TIGRE, d'après Isodore de Charax, in Syria, 61, 1984, p.63-107.

CHAUMONT, M.L., ETUDES D'Histoire Parthe, III, Les Villes Fondées par les VOLOGESES, in Syria, 51, 1974, p.75-89.

THE COMMENTARIES of the GREAT AFONSO D'ALBOQUERQUE, Hakluyt

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Society, Ed.M.de G.BIRCH, 4 Vols, 1875-83.

CORREIA - AFONSO, Ed., Indo-Portuguese History, sources and problems, Bombay, 1981.

FARIA Y SOUSA, The Portuguese Asia: The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese, 3 Vols, London, 1695, (repro. 1975).

FLOOR, WILLEM M., A Description of the Persian Gulf and its Inhabitants in 1756, in Persice, 8, 1979.

FLOOR, WILLEM M., Pearl Fishing in the Persian Gulf in 1757, in Semitica, 10, 1982 (BEN HAAG).

FRYE, RICHARD, N., The Persian Gulf and Changes in Nomenclature, Jerusalem Studies in Arabic and Islam, 13 (1990), pp.33-43.

GAWLIKOWSKI, MICHEL, Palmyre et l'Euphrate, in Syria, 60, 1983, p.53-63.

GAWLIKOWSKI, MICHEL, Le Commerce de Palmyre sur terre et sur Eau.

GILES, H.A., The Travels of FA-HSIEN, first published 1923; 2nd impression: London, 1956.

GROUSSET, R., L'Empire des Steppes, Paris, 1948.

HAMDULLAH MUSTAWFI QAZWINI, Nuzhat al-Qulub, the geographical part, ed.G.Le Strange (GMS, XXIII); ed. Dabir Siyaqi, Teheran, 1336.

HINDS, MARTIN, The First Arab Conquest in Fars, in Iran, 22, 1984.

HEYD, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, 2 vols, Leipzig, 1885-86, réimpression 1959, Amsterdam.

Hourani, G., Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Princetown, 1950-1951.

KUNG, W., FORMER TRADING CENTERS of the Persian Gulf, in Geographical Journal, 13/3 (Mars 1899).

LE STRANGE, G., The Lands of the Eastern Caliphate, Mesoptamia, Persia and Central Asia, from the moslem conquest to the time of Timor, Cambridge, 1905.

LORIMER, J.G., GAZETTER of the Persian Gulf, 2 vols: T.I, 1915, T.II, 1908, reprint 1970.

LYBYER, A.H., The Ottoman turks and the Routes of Oriental Trade, in ENGLISH HISTORY REVUE, 30 (Oct. 1915), pp.577-588.

MAJOR, R.H., INDIA in the fifteenth Century, HAKLUYT SOCIETY, 1858.

MARCO POLO, The Book of Sir Marco Polo, Yule, H., & Cordier, 3 ols, London, 1903-1920.

MILLER, J., INNES, The Spice Trade of the Roman Empire, Oxford, 1969.

MARE LUSO-INDICUM, tome I (1971), II (1973).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

MA-HUAN, YING-YAI SHENG-LAN, The Overall Survey of the Ocean Shores, 1433, trans. and Ed. by Mills, J.V.G., Cambridge, 1970.

MOUTERDE, R. POIDEBARD, A., La Route Ancienne des Caravanes entre Palmyre et Hit, in syria, 12, 1931, p.101-115.

PHILLIPS, G., The Seaports of India Ceylon, in Journal of the China Branch of the Royal Asiatic Society, vol.XX (1885) pp.209-26; vol.XXI (1886), pp.30-42.

PIRES, TOME, The Suma Oreintal of TOME PIRES, an Account of the EAST 2 vols, London, 1944.

POTTS, DANIEL T., The Arabian Gulf in Antiquity:

Vol. I: From Pre-history to the fall of the Achaemenid Empire. XVII-419 p., XII pl., 44 fig., 8 tables.

Vol. II: From Alexander the Great to the coming of Islam. XII-369 p.,XII pl., 25 fig., 2 tables. Oxford, Clarandon Press, 1990.

QUTREMERE, ETIENNE-MARC, Histoire des Mongols de la Perse, ecrite en persan par Rahid-ed-dine, traduite en francais, accompagnée de notes et d'un mémoire sur la vie et les ouvrages de l'auteur, Paris, 1836.

RAVENSTEIN, E.G., The first Voyage of Vasco da Gama, translated and edited by Revenstein, E.G., HS, 99, 1898.

SCHLUMBERGER, Daniel, Palmyre et La Mesene, in Syria , 1961, 38, p.256-260.

SCHOFF, W.H., The Periplus of the Erythraen Sea, New York, 1912.

SERJEANT, R.B., The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1963.

SIDI ALI, The Mohit, i.e. (THE OCEAN): a treatise on the navigation of the Indian Ocean, translated by J.H. HAMMER-PURGSTALL, in J.A.S.B., vols III & V.

STIFFE, A.W., The Island of HORMUZ (ORMUZ), in the Geographical Magazien I (1874), p.12-17.

TEIXEIRA, PEDRO, The Journal of Pedro TEIXEIRA from Indai to Italy by land, 1604-1605, with his Chronicle of the Kings of Ormuz, translated by SINCLAIR, W, F., with additional notes by FERGUSON, D.W., Londres 1901. Works issued by the Hakluyt Society, 2nd series no 9.

TEIXIDOR, janvier, Un port romain du desert: Palmyre, in Semitica, 34, 1984.

THREE VOYAGES OF VASCO DA GAMA by **Lord Stanly of Alderley,** 1869 (issued by H.S.).

WARMINGTON, E.H., The Commerce between the Roman Empire and India, London, 1928.

WHITELOCK, Description's sketch of the ISLANDS and COAST situated at the

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Entrance of the Persian Gulf, by Lieutenant whiteloc, in Journal of the Royal Geographical Society, 8 (1838), p.170-184.

WILL, ERNEST, Marchands et Chefs de Caravanes a Palmyre, in Syria, 34, p.262-277, 1957.

WILLEM, FLOOR, THE DUTCH EAST INDIA COMPANY'S Trade with SIND in the 17th and 18th centuried, in Moyen-Orient et Ocean Indien, XVIe-XIXe S., /3, 1986.

WIRTH, EUGEN., Les Grandes Echelles de la Mediterranee orientale et les routes du commerce monolial vers l'Asia, GENOVA, 1989, p.63-73.

ثالثاً ـ المصادر والمراجع الفارسية

رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير، موفق الدولة، جامع التواريخ، نشر كاترمير، باريس، ١٨٣٦.

الشبانكاري، محمد بن علي الشيخ محمد بن الحسن بن أبي بكر، مجمع الأنساب، مخطوط.

قزويني، حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر، نزهة القلوب، نشر لوسترانج، لايدن ١٩١٣.

وصّاف الحضرة، أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي، تاريخ وصاف، بمباي ١٢٦٩ هـ.

الفهـــارس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ فهرس الأماكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ أعلام الرجال والنساء والقبائل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ـ أسماء الكتب والقصائد الواردة في النص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ سلاطين هـرمـز
من أوائل القرن السابع الهجري إلى أوائل القرن العاشر الهجري
(١٣ ـ ١٦ م)

سيف الدين بانضر.
شهاب الدين محمود بن عيسى.
ركن الدين محمود بن حامد (أو أحمد) القلهاتي
٦٤١هـ/ ١٢٤٣م ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م.
قطب الدين تهمتن الأول بن محمود القلهاتي: بضعة أشهر من سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م.
سيف الدين نصرت بن محمود القلهاتي:
٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م ـ ٦٨٩هـ١٢٩٠م.
ركن الدين مسعود بن محمود القلهاتي:
٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م.
بهاء الدين أياز، متوفى ٧١١هـ/ ١٣١١م.

* * *

عز الدين كردانشاه:
٧١١هـ/ ١٣١١م ـ ٧١٧هـ/ ١٣١٧م.
بهرام شاه
٧١٧هـ/ ١٣١٧م ـ ٧١٨هـ/ ١٣١٨م.
شهاب الدين يوسف
٧١٧هـ/ ١٣١٧م ـ ٧١٩هـ/ ١٣١٩ـ١٣٢٠م.
قطب الدين تهمتن الثاني
٧١٩هـ/ ١٣١٩ـ١٣٢٠م ـ ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م.
نظام الدين كيقباد ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م.

توران شاه الأول
٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ـ ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م.
بهمن شاه بن توران شاه
٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م ـ ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م.
محمد شاه الأول
٧٩١هـ/ ١٣٨٨م ـ ٨٠٢هـ/ ١٣٨٨.
بهمن شاه بن محمد شاه ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م.

* * *

قطب الدين تهمتن الثالث فيروزشاه
٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م ـ ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م.
سيف الدين مهار
٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ـ ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م.
فخر الدين توران شاه الثاني
٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م ـ ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م.
مرزوق ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م.
مقصود بن فخر الدين توران شاه الثاني:
٦ أشهر من ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م.
شهاب الدين أرفخشدشاه
٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م ـ ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م.
ميرشاه أويس: ٥ أشهر من
٨٨٠هـ/ ١٤٧٥ ـ ١٤٧٦م.
أبو الفتح مظفر الدين سلغرشاه الأول
٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ـ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ ـ فهـرس الأشــكال


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهـــرس محتـويـــات الـــكتـــــاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحـــق

وثائق تاريخية متفرقة خاصة بسلطنة هرمز والخليج العربي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



هذا الكتاب

سلطنة أو مملكة هرمز العربية تمثل تاريخاً حضارياً شمل شواطئ الخليج العربي وجزره، تمثلت فيه صلابة الإنسان العربي ونجاحه في بناء اقتصاد مزدهر في ظل سيادته على أرضه وعلى مياهه، ذلك هو ما حققه عرب الخليج عبر ثلاثة قرون يتحدث عنها مجلدنا الثاني في هذا الكتاب.

Bibliotheca Alexandrina
0345357